جورج بليخانوف

العامل الاقتصادي في التاريخ

ترجمة

جورج طرابيشي



دار الطليعة - بيروت

العامل الاقتصادي
في التاريخ

جورج بليخانوف

العامل الاقتصادي في التاريخ

ترجمة:
جورج طرابيشي

دار الطليعة للطباعة والنشر
بيروت

ص.ب ١١١٨١٣
بيروت ـ لبنان

الطبعة الاولى
كانون الاول (ديسمبر) ١٩٧٨

مرافعة مقتضبة عن المادية الاقتصادية
(رسالة مفتوحة الى فكتور غولتسيف)[1]

سيدي ،

نشرت في عدد نيسان من «روسكايا ميسل» مقالا مكرسا

---

١ ـ هذا المقال رد على مقال الليبيرالي فكتور الكسندروفتش غولتسيف: «حول المادية الاقتصادية» المنشور في عدد نيسان ١٨٩٦ من مجلة «روسكايا ميسل» («الفكر الروسي») التي كان يترأس تحريرها . وقد نشر مقال بليخانوف في العدد التاسع من المجلة نفسها في السنة نفسها باسم مستعار هو س. اوشاكوف ، مع عنوان فرعي هو «رسالة مفتوحة الى فكتور غولتسيف» .

وتحتفظ دائرة محفوظات بليخانوف ومخطوطاته التابعة لمعهد الفلسفة في اكاديمية العلوم السوفياتية بنسخة من المجلة التي نشر فيها المقال مع تصحيحات وهوامش وإضافات هامة بقلم بليخانوف ، وتنشر هنا مع المقال موضوعة بين قوسين .	«الناشر السوفياتي»

للمادية الاقتصادية (*) . وسوف يثير هذا النص في ارجح الظن مناقشات متواصلة وحامية لدى نخبة الجمهور القارىء . وبما ان هيئة تحرير «**روسكايا ميسل**» تضع بلا جدال مصلحة الحقيقة فوق كل شيء ، فإني لعلى يقين بأنها لن ترفض نشر بعض الاعتراضات التي يوحي بها مقالكم لرجل مغرم هو الآخر الى حد الهوس بالحقيقة .

يمكن ان نقسم النص المذكور الى قسمين. في القسم الاول، انت تصدر حكما اجماليا على نظريـة الماديين «الاقتصاديين»، بينما تأخذ على عاتقك في الثاني التصدي لتطبيق هذه النظرية على واقعنا الروسي .

ينبغي ان أقر ، يا سيدي ، بأن نقدك النظري للمادية «الاقتصادية» لا يبدو لي موفقا . فأنت تبدي عليها اعتراضات دحضها انصارها مرارا وتكرارا . ولو كنت قرأت ، على سبيل المثال ، بمزيد من الانتباه دراسة بلتوف [2] حول «**تطور التصور الواحدي للتاريخ**» ، لما كنت أثرت اعتراضات عدة سبقت الاجابة عليها بما فيه الكفاية في ذلك الكتاب .

مقالك في رأيي مفيد ، بله جدير بالاعجاب ، لكن ليس بنقده المادية الاقتصادية ، وانما بالاحرى بطريقته في طرح بعض مشكلاتنا العملية ، وهي طريقة قد تسمح بتقريب موعد اختتام المناقشة الحامية التي تلهب منذ عدة سنوات مشاعر الجمهور القارىء . وقد كان بودي ان أكتفي بهذا الجانب الاخير ، بهذه

(*) كان من الاصح القول «الجدلية» ، لكني لن افتح مناقشة حول المفردات .

٢ ـ هو الاسم المستعار لبليخانوف الذي نشر به الكتاب المشار اليه ، وقد صدرت الترجمة العربية للكتاب عن دار الطليعة . «م»

الناحية العملية في هذه الرسالة المفتوحة ، لكنـــي أخشى ان يساء تأويل افكاري اذا لم اقرنها ببعض ملاحظات ذات طابـــع عام . وبهذه الملاحظات سأبدأ رسالتي .

انت ترى انه لا يمكن «استنبـاط كـــل الحياة الثقافيـــة والتاريخية من علاقات الانتاج وحدها» ؛ وانت «تعتبر العامـــل النفسي في التطور التاريخي عاملا مستقلا بذاته» . وهنا تحديدا يكمن «اعتراضك الاساسي» على المادية الاقتصادية .

لنتوقف اذن عند هذه النقطة .

انك تستشهد بفوستل دي كولانج (٣) الذي كان من رأيه ان ديانة الاغريق والرومان البدائية قـــد حددت ، لدى هذيـــــن الشعبين ، الاسرة واسس الزواج والسلطة الابويـــة ، وعينت درجات القرابة ، وكرست حق الملكية وحق الارث . انني مطلع على وجهة نظر فوستل دي كولانج ، لكني ارى ان هذا المؤلف يجانب الصواب تماما وأن النتائج التي لا يرقى اليها شك التي وصل اليها العلم التاريخي الحديث تدحضه .

لستُ الوحيد الذي يرى هذا الرأي . فحين نشرت فـــي باريس ، في عام ١٨٧٩ ، الطبعة السابعة لكتاب فوستـــل دي كولانج الذي تعتمده مرجعا ، بادر الاستاذ أورت ، من جامعة لايدن ، الى تفنيده في **«مجلة اللاهوت»** على نحو لا يخلو مـــن الفائدة . يرى اورت انه من فادح الخطأ الافتراض بأن المعتقدات البدائية قد حددت حياة الاسرة في العهد القديم . بل العكس هو الصحيح . فـ «حين تكونت حياة الاسرة ، بادر الدين الـــى

---

٣ ــ مؤرخ فرنسي (١٨٣٠ ــ ١٨٨٩) ، من اشهر مؤلفاتـــه «الحاضرة القديمة» و«تاريخ مؤسسات فرنسا القديمة» . والآراء التي يدور حولهـــا النقاش عن دور ديانة الاغريق واليونان البدائية وردت في كتابه الاول . «م»

تكريسها» . وكذلك كانت الحال في حياة الدولة «حيث كرس الدين النظام القائم وقدم له دعما وسندا» . ويمكن اكتشاف الظاهرة ذاتها في ميدان الحقوق الخاصة : فهنا ايضا كرس الفكر الديني المؤسسات التي لم تنشأ بفعل تأثيره . ويلحظ اورت بالمناسبة ان فوستل دي كولانج عينه قد وجد نفسه مضطرا ، في المؤلَّف ذاته ، الى العزوف عن فرضيته التي منها انطلق ، حين أقر بأن الثورات التي قوضت الحاضرة القديمة كان السبب في قيامها لا تطور الفكر الديني الوثني ، وانما تأثير العوامل الخارجية ، وفي المقام الاول **صراع المصالح المادية** (سأقول انا : صراع الطبقات) في داخل المجتمع القديم . وهو محق تماما ؛ وللاقتناع بذلك حسب المرء ان يعيد قراءة الكتاب الرابع من مؤلَّف فوستل دي كولانج الذي تستشهد منه ، يا سيدي ، بواحدة من صفحاته الاولى في مقالك .

صحيح ان فوستل دي كولانج اذ يخص صراع الطبقات بدور كبير للغاية في التاريخ الداخلي لليونان وروما ، يبذل قصارى جهده ليثبت ان الطبقات المتصارعة تدين بأصلها ونشأتها للمعتقدات البدائية في ذينك البلدين . لكن هذا المجهود بالذات يبرز للعيان نقص افكار هذا المؤرخ وعدم كفايتها وخطلها فيما يتعلق بتطور مؤسسات العالم القديم البدائية ، علما بأنه يدلل على رصانة وجدّ عظيمين في مجالات اخرى عديدة . واذا اردت ، يا سيدي ، ان تتحقق من صدق اقوالي ، فرجائي منك ان تقارن الكتاب الرابع من **«الحاضرة القديمة»** بالفصول المناظرة لها من كتاب مورغان **«المجتمع القديم»** ، بله بدراسة لوتورنو **«تطور الملكية»** .

لقد ترجم مقال اورت الى الفرنسية في نشرة دورية باريسية متخصصة هي **مجلة تاريخ الاديان** (السنة الثانية ، المجلد ٣) ، مع حاشية استحسان من قبل هيئة التحرير . وهذا يقدم

موفور الادلة ، ان كنت لا اجانب الصواب ، يا سيدي ، على ان راي فوستل دي كولانج الذي اوردته لا يشاطره فيه الكثيرون من الضليعين في الموضوع .

وكيف يمكنهم اصلا ان يشاطروه فيه ؟ من يعن بباله اليوم ان يصف **بالبدائية** ديانة الاغريق والرومان التي يتكلم عنهــا فوستل دي كولانج ؟ لقد كان وراء تلك الديانة التي يقال انهــا بدائية تاريخ مديد لا سبيل الى فهمه ، ولو على نحو تقريبي ، من دون نفض اليد من فكرة فوستل دي كولانج الاساسية ، ومن دون اعتبار الديانة القديمة نتاج التطور الداخلي للمجتمعــات القديمة .

بالاجمال ، يمكننا القول بدون ادنى مبالغة انه لا يوجد مؤرخ رصين واحد يقبل اليوم بفكرة فوستل دي كولانج بدون تحفظات جازمة وجوهرية .

ان بين يدي **تاريخ الرومان** لفكتور دوروي [٤] . فــي الصفحة ٧٦ من المجلد الاول (طبعة ١٨٧٧) من هذا المؤلف الذائع الصيت ، اقرأ ما يلي :

«كان الدين [في ايطاليا القديمة] قبل غزو الافكار الاغريقية والشرقية بسيطا ، شعبيا ، مؤسسا علــى ضرورات الحياة ، على اعمال الحقول ، على انطباعات الاعجاب او الذعر التي كانت تحدثها تلك الطبيعــة الجميلة والمتقلبة . وفي تلك الديانة الريفية فــي الجوهر ، كانت شعائر العبادة كلها تؤدى في الهواء

---

٤ ـ مؤرخ ووزير فرنسي (١٨١١ ـ ١٨٩٤) ومــن اعضاء الاكاديميــة الفرنسية . «م»

الطلق (✱) . وكانت الآلهة الايطالية ، حارسة الملكية والوفاء الزوجي والعدالة ، وحامية الزراعة ، وموزعة الخيرات الارضية جميعا، توجه أفعال البشر من دون ان تشاركهم أهواءهم» (٥) .

(✱) يشير دوروي في الحاشية الى ان أقدم تقويم لروما لا يأتي بذكر لغير الاعياد الريفية .

٥ ـ حاشية مأخوذة من محفوظات بليخانوف :

بخصوص ديانة الرومان «البدائية» نلقى الفكرة ذاتها لدى تييل ، وهو من خيرة الضليعين بتاريخ الاديان : «كانت ديانة اقدم سكان روما ديانة رعاة وفلاحين ...» («موجز تاريخ الاديان» ، ترجمه عن الهولاندية موريس فيرن ، باريس ١٨٨٠ ، ص ٢٥٦) .

تظهر ديانة الرومان بجلاء تام كيف والى اي حد تعكس الديانة «البدائية» نشاط الانسان «البدائي» وحاجاته . يقول تييل : «لا كل ظرف خاص من ظروف الحياة الاجتماعية ، بل ايضا كل عملية زراعية ، من حرث وبذر وجني ، ووصولا الى فتح الاهراءات ... كان لها ممثلوها الخاصون ... في عالم الارواح» (المصدر نفسه ، ص ٢٥٢) .

لدى الرومان ، كان حتى للعملة النحاسية إلهها («عفريتها») ، وكان يطلق عليه اسم آيسكولانوس . وحين جرى في اواسط القرن الثالث قبل الميلاد تداول العملة الفضية ، ولد للحال لعفريت العملة النحاسية العجوز ابن ، أطلق عليه اسم ارجانتينوس (تييل ، المصدر السابق ، ص ٢٥٣) . لكن ديانة الشعب الروماني «البدائية» ، أكرر ذلك ، لم تكن البتة بدائية بالمعنى الذي يعطى اليوم لهذه الكلمة في تاريخ الحضارة . فبمقتضى هذا المعنى الاخير ، فان الديانة البدائية هي أرواحية قبائل القناصة المتوحشة ، تلك الارواحية التي لا تمارس اي تأثير على السلوك الاجتماعي للانسان ، وذلك للسبب البسيط الآتي ، وهو عدم وجود اي صلة بينها وبين الاخلاق الاجتماعية (انظر بصدد هذه النقطة تايلور : «الانتروبولوجيا» ، لندن ١٨٨١ ، ص ٣٦٣ ؛ =

اسمح لي ، يا سيدي ، بسؤال : هل تشابه فكرة دوروي فكرة فوستل دي كولانج ؟ وايهما الأصح في رايك ؟ هل الزراعة، وكذلك ضرورات الحياة والاشكال المجتمعية المرتبطة بها ، لدى قدامى سكان ايطاليا ، هل هي معلول لتلك الديانة البدائية **(الريفية في الجوهر)** ، ام ان تلك الديانة **(الريفية في الجوهر)** كانت على العكس نتيجة لنمط حياة ريفي ؟ حسبنا ، على ما يبدو ، ان نطرح السؤال حتى نجد للحال جوابه من دون ان نترك مكانا لظل من شك . فلو كانت الديانة هي التي شرطت بالفعل الحياة الاجتماعية لقدامى سكان ايطاليا ، لما كنا فهمنا البتة لماذا اتخذت هذه الديانة الشكل الريفي دون غيره من الإشكال . اللهم الا اذا كنت تعتقد ان ذلك كان نتيجة القوانين الخاصة المتحكمة بالتطور « **الذاتي المستقل** » للفكر الديني الوثني .

صحيح ان الآلهة الوثنية في ايطاليا القديمة ما كانت تحمي ، بموجب رأي دوروي ، الزراعة وحدها ، بل كذلك الملكية والاسرة والوفاء الزوجي والعدالة . وعليه ، يمكن ان يقال (ولكن يمكن ان يقال كل شيء ، يا سيدي) انه اذا لم تكن **الزراعة وضروراتها** قد خلقتها ديانة ايطاليا «البدائية» ، فان افكار قدامى الايطاليين عن الملكية والاسرة والحالة الزوجية والعدالة ترجع في اصلها الى تلك الديانة البدائية ، وانها انصاعت ، في تحولها، على هذا الاساس، لقوانين تطور سيكولوجي مستقل .

= وللمؤلف عينه : «الحضارة البدائية» ، م١ ، ص ٤٩٥ ؛ وكذلك ألبير ريفيل : «ديانات الشعوب غير المتحضرة» ، باريس ١٨٨٣ ، م٢ ، ص ٢٥٣ .

لا نملك اذن اي مسوغ لادراج ديانة الشعوب البدائية في عداد «عوامل» تطور المجتمعات البدائية ، وهو امر غالبا ما ينساه علماء الاجتماع .

ان أحكاما من هذا النوع تطلق بطيبة خاطر عندنا اليوم ، ولاسيما ان العديد من اصحاب الآراء المتقدمة بقدر او بآخر قد اخذوا على عاتقهم دحض المادية الاقتصادية التي يعزون اليها الرغبة في بعث «ميتافيزياء» هيغل المثالية . ولسوء الحظ ، ان هذه الاحكام لا تفعل شيئا سوى انها تشرح وتفصل حكم هيغل المتعلق بالصيرورة الذاتية المستقلة للمفهوم بوجه عام وللمفاهيم القانونية بوجه خاص . كان غانز ، وهو هيغلي مرموق ، يزعم على سبيل المثال، ان «مختلف الانظمة القانونية الوضعية ... تشكل مراحل في صيرورة فكرة الحق العامة التي لا تكف عن الانتشار متقدمة باطراد الى الامام وفق سنن خالدة» ، وأن رسالة العلم تكمن في دراسة كل مرحلة من تلك المراحل بتعاقبها الضروري . ان الماديين الاقتصاديين لا يشاطرون البتة هذا الراي الذي تشبث به بقوة فيما مضى المثاليون من أمثال هيغل وغانز ، والذي يغري اليوم أشد الاغراء الخصوم الروس لـ «الميتافيزياء» الهيغلية . ففي رأي الماديين الاقتصاديين ، لا تنطور المفاهيم القانونية البتة **من تلقاء ذاتها** ، وانما تحت تأثير العلاقات التي يعقد المنتجون أواصرها فيما بينهم بدافع الضرورة الاقتصادية . كان رودبرتوس يقول : «ان فكرة القانون تسير منذ أقدم الازمنة متلازمة مع الضرورة الاقتصادية» . هل كان على حق ؟ حسبنا ان نتذكر تاريخ الاسرة البدائية حتى ندرك انه ما كان يجانب الصواب .

واحد من أمرين : اما ان المؤسسات القانونية لبلد من البلدان تطابق حاجاته الاقتصادية ، وإما انها لا تطابقها .

لندرس على حدة كلا من هاتين الحالتين .

اذا كانت المؤسسات القانونية لبلد من البلدان تطابق حاجاته الاقتصادية ، اي بتعبير أدق تطابق نمط الانتاج السائد فيه ، ينطرح هذا السؤال بالضرورة : ما الذي أوجب هذا التطابق ؟

بديهي انه من الممكن الاجابة بصور مختلفة .

من الممكن الاجابة بأن المؤسسات القانونية لبلد من البلدان تطابق نمط الانتاج السائد فيه ، لانها هي نفسها **نتيجة** للعلاقات الاجتماعية التي تظهر الى حيز الوجود بالضرورة حين يسود ذلك النمط ، ولانها هي نفسها **تعبير** عن هذه العلاقات . والنظام القانوني الوضعي ، اذا كان موائما لغايته ، اي مطابقا لنمط الانتاج ، يكون محض نتيجة لواقع أن المؤسسات القانونية تفقد حيويتها وتموت اذا **كفت عن ان تكون موائمة لغايتها** ، هذا اذا لم تلغ عقب صراع طويل الامد ، ضارٍ وشرس ، بين أنصار العهد القديم وخصومه . ان مواءمة المؤسسات القانونية لغايتها (بالمعنى الذي نقصده هنا) هو الشرط اللازم لوجود المجتمعات البشرية . لذا تصبو هذه المجتمعات باستمرار الى مؤسسات تتمتع بتلك الصفة ، وان يكن التوازن الذي يتم التوصل اليه يختل باستمرار بحكم تطور القوى الانتاجية : فكل تقدم جديد في تطور هذه القوى يؤدي بالفعل الى اختلال جديد في التوازن بين وسائل الانتاج والمؤسسات القانونية . وينشب صراع جديد بين المحافظين والتقدميين . ويقع انقلاب جديد في مضمار الحقوق . وهكذا دواليك الى ايامنا هذه . ففي كل مكان وكل زمان تسير فكرة القانون متلازمة مع الضرورة الاقتصادية .

هذا ما يقوله الماديون «الاقتصاديون» (٦) .

---

٦ ــ حاشية مأخوذة من محفوظات بليخانوف :

يقول الاستاذ ريشارد هيلدربرانت :

«لتحديد التعاقب التاريخي ــ التطوري او التكويني او تبعية المؤسسات والأعراف القانونية التي تلاحظ لدى شعوب شتى وفي أزمان شتى ، وحتى يكون في الامكان التأكيد بأن قانونا من القوانين او عرفا من الاعراف يملكان اصلا اقدم او اكثر بدائية من قانون آخر او عرف آخر ، فلا بد من معيار =

واني لأرى انهم على صواب تام . لكن لنفرض انهم مخطئون، وان تطور **المؤسسات** القانونية ليس ، كما يؤكد هيغل والهيغليون ، سوى نتيجة لتطور **المفاهيم** القانونية . فكيف سنفسر في هذه الحالة التطابق في بلد بعينه بين المؤسسات القانونية ونمط الانتاج السائد ؟

حتى نفسر هذا التطابق ، لن يبقى امامنا غير ان نفترض وجود انسجام مسبّق بين تطور المفاهيم القانونية وتطور العلاقات الاقتصادية .

قد يبدو لك ذلك ، يا سيدي ، مفارقة جريئة ، ولعل ثائرتك ستثور الى حد وصفها بالعبث . لكني أتكلم ببالغ الجد .

في الواقع ، ان المفاهيم تتطور ، بموجب فرضيتنا ، على نحو مستقل بذاته ووفق قانونها الخاص بها . كذلك تتطور أنماط الانتاج على نحو مستقل بذاته ، وهي الاخرى وفق قانونها الخاص بها (٧) . ولئن تطابقت نتائج **تطور المفاهيم** في

= متحرر من قيود التسلسل التاريخي او مستقل عنها تماما . ويمكن ان نأخذ كمعيار هنا الثقافة الاقتصادية ، لانه فيها فقط يمكن ان نلاحظ مسارا للتطور مطلق التعين ، متماثلا على الدوام في معالمه العريضة ومتجها على الدوام في وجهة واحدة» («القانون والعرف في مختلف درجات الثقافة» ، القسم الاول، المقدمة ، ص ٣) . وفي الواقع ، ليس لمسار التطور الاقتصادي ذلك الاطراد الذي يعزوه اليه ريشارد هيلدربرانت ، لكن هذه مسألة اخرى ، ولا تعنينا هنا . أما عن روابط السببية التي تربط تطور القانون والاعراف بتطور الاقتصاد ، فغني عن البيان انني أتفق تمام الاتفاق مع المؤلف .

٧ ـ ما كان هيغل ليوافق على هذه الفرضية ، بل كان سيقول ان وسائل الانتاج تتحدد هي الاخرى بصيرورة الفكرة المطلقة . لكننا لسنا ، لا انت ولا انا ، يا سيدي ، من الهيغليين .

حقبة بعينها مع **نتائج التطور** الاقتصادي ، فلست بمستطيع تفسيرا لذلك الا بانسجام مسبّق او بالمصادفة . والحال ان المصادفة ليست تفسيرا . فلا يبقى اذن سوى الانسجام المسبّق .

هنا سيدفع بك نفاد الصبر الى مقاطعتي ، وستصمني بالترويج للميتافيزياء ، وهو مأخذ متواتر لكنه غير مستأهَل يوجه اليوم الى الماديين «الاقتصاديين» .

لسوف تهتف : من شاء ان يغطس في مستنقع الميتافيزياء فليغطس ! وقد لا يكون ثمة سبيل للخروج منه سوى درب الانسجام المسبَّق . لكن لماذا لا نتحاشى هذا المستنقع ؟ علما بأن ذلك في منتهى اليسر : حسبنا ان نلزم طريق الواقعية الامين . لكن ينبغي فقط ان نتذكر ان الاقتصاد يتطور بدالة المفاهيم الانسانية ، بينما تخضع المفاهيم الانسانية لتأثير الاقتصاد ، كما ينبغي ان نتذكر انه يقوم بين هذين العاملين بلا جدال **تفاعل** يحل جميع المسائل الواردة أعلاه . فما الداعي اذن الى فرضية الانسجام المسبَّق ؟

سوف نرى عما قليل هل يحل التفاعل ، بالفعل ، الاعتراضات المشار اليها . لكن ينبغي علينا قبل ذلك ان ننظر في ثانية الحالتين المنصوص عنهما ، اي الحالة التي **لا تتطابق** فيها المؤسسات القانونية لبلد من البلدان مع اقتصاده .

سبق ان رأينا ان هذه الحالة تجد كامل تفسيرها من منظور المادية الاقتصادية . فالمؤسسات القانونية لبلد من البلدان لا تعود تطابق اقتصاده متى ما قامت علاقات جديدة بين الناس بفعل كل تقدم جديد للقوى الانتاجية . وعلى الاثر ، تبرز الحاجة الى اعادة النظر في القوانين الوضعية (الخاصة والعامة) القائمة. وعندئذ تبدأ حقبة انقلاب اجتماعي .

ما تفسير هذه الحالة من منظور اولئك الذين يؤمنون بامكانية تطور ذاتي مستقل للمفاهيم القانونية ؟ للوهلة الاولى ، يبدو

الامر بسيطا وفي منتهى الجلاء هنا ايضا . فالمفاهيم القانونية لا تعود تطابق اقتصاد بلد من البلدان لانها تستبق تطور هذا الاقتصاد ، او على العكس لان هذا الاقتصاد تطور بسرعة اكبر من تلك التي تطورت بها المفاهيم القانونية . واذا ما سبقت المفاهيم القانونية الاقتصاد ، فعاجلا او آجلا سيعاد تنظيم هذا الاخير وفقا لتقدم المفاهيم . واذا سبق الاقتصاد المفاهيم ، فسيشهد تطورها تقدما جديدا ليعيد التوازن المرغوب . وعلى هذا النحو ، فان ما من شيء يناقض هنا في ظاهر الامر فرضية تطور مستقل للعامل النفسي .

لكن لو أمعنا النظر في الامر ، لتكشف هذا التفسير البالغ البساطة عن انه بالغ الابهام . لنتأمل ، على سبيل المثال ، فرنسا في القرن الثامن عشر . فقد كانت المؤسسات القانونية متخلفة عن مفاهيم قسم لا يستهان به من السكان . بوسعنا اذن ان نفترض ان علة الاضطرابات التي وقعت في فرنسا عهدئذ كانت ترجع الى تخلف **المؤسسات** قياسا الى **المفاهيم** ، وان تلك الاضطرابات قد نجمت عن تقدم المفاهيم ، وان تاريخ فرنسا في النصف الثاني من القرن الثامن عشر يؤكد بالتالي الصحة التامة لفرضية تطور مستقل ذاتيا للسيكولوجيا الانسانية . لكن مثل هذا الاستنتاج متسرع اكثر مما ينبغي . ولا يجوز لنا ان ننسى ان المؤسسات القانونية الفرنسية كانت تناقض عهدئذ مفاهيم شطر محدد من سكان فرنسا ، وعلى وجه التعيين الطبقة الثالثة ، اي مفاهيم طبقة كانت يومئذ في وضع اقتصادي خاص . وهذا الظرف يفتح لنا باب الافتراض بأن المفاهيم القانونية لذلك القسم من السكان كانت نتيجة لا لتطور ذاتي مستقل ، وانما لتغيرات طارئة على وضعهم الاقتصادي . وليس هذا كل شيء : ففي مجرى الصراع ضد المؤسسات القانونية المتقادم عليها الزمن كان الناطقون بلسان الطبقة الثالثة يتذرعون

بالعدالة . وليس يسع احدا ان ينكر عليهم انه كان من العدل ، بالفعل ، الغاء المؤسسات التي أمست عبئا بالنسبة الى غالبية الفرنسيين . بيد ان العدالة مفهوم يشكو من غموض التعريف ، وهو فوق ذلك مجرد للغاية . وجوهر القضية ان نعرف ما المضمون العيني الذي يسبغه عليه فرد من الافراد او طبقة من الطبقات . فما كنه المؤسسات القانونية التي كانت تبدو **عادلة** في أنظار الناطقين بلسان الطبقة الثالثة ؟ هي على وجه التحقيق تلك التي كانت تطابق نمط الانتاج الرأسمالي ، اي النمط الناتج عن التطور الاقتصادي السابق لفرنسا (*) . أقر ، يا سيدي ، بأن هذه ظاهرة مثيرة للاهتمام . واذا ما تخلينا عن فكرة انسجام مسبَّق ، فان تلك الظاهرة ستشكل ، ولا بد ، في أنظارنا حجة جديدة ضد التطور الذاتي المستقل للمفاهيم وبرهانا جديدا في تأييد المادية «الاقتصادية» .

صحيح انه من الممكن ان يقال (أكرر : من الممكن ان يقال كل

(*) قد يعترض معترض عليّ بكتاب ميالين الى الشيوعية من أمثال موريلي ومابلي ؟ وفي هذه الحال ، سألفت نظر المعترضين الى ان شيوعيتهما لم تكن في حقيقتها سوى انشاء مفخم وشبه خاو في صالح المساواة ، انشاء ما كانا هما نفسهما يعلقان عليه اي قيمة **عملية** . واذا اردنا ان نعرف الى اي حد كانت الهجمات التي تشن يومئذ على الملكية محصورة ضمن نطاق علم البيان والبلاغة ، فاننا واجدون لدى بريسو مثالا طيبا : فالصيغة التي سيقتبسها منه فيما بعد برودون ـ «الملكية هي السرقة» ـ ما كانت تسبب له حرجا في الاعراب عن ميول **بورجوازية** . ولا تتضمن مهاترات فرنسيي ذلك العصر ضد الملكية ولصالح مساواة العصور القديمة اي تحليل لشتى أشكال الملكية التاريخية . ويحامي المؤلفون الفرنسيون الاكثر تقدما في القرن الثامن عشر، ممن اكبوا على مثل ذلك التحليل ، يحامون جميعهم ، باستثناء روسو من الجائز ، عن الملكية البورجوازية .

شيء) انه اذا كان الفلاسفة (٨) الاكثر تقدما ما اضمروا اي عداء للملكية الرأسمالية ، على الرغم من كل ثورتهم على الملكيـــة الاقطاعية ، فذلك فقط لان افكارهم لم تكن قد ارتقت بعد الى مستوى مفاهيم اخرى ، وليس لانهم كانوا واقعين على نحو لا مرد له تحت تأثير نمط جديد للانتاج كان في سبيله الى انتزاع النصر . لكنني سأسأل في هذه الحال : **لماذا لم ترق افكارهم الى ذلك المستوى** ؟ أكان ذلك حقا لان الناس مكرهون بالضرورة ، في طور معين من تطورهم التاريخي ، وبمقتضى قانون التطور الذاتي المستقل للحياة النفسية ، على الوصول الى الاعتــراف بالملكية البورجوازية ؟ وسأضيف قائلا ان اللجوء الى التطــور الذاتي المستقل المزعوم للمفاهيم الانسانية لا يفسر شيئا البتة في واقع الامر . الناس وجدت لديهم هذه المفاهيم او تلك لانه لـم يكن بد من ان توجد لديهم بموجب قوانين التطور الذاتــي المستقل للحياة النفسية ! فهل هذا جواب ؟ أهو حل للمشكلة ؟ ان هذا يعدل القول: «ابنتك مريضة لانها وقعت فريسة المرض». انه ، وايم الحق ، ضرب من التفسير لا يقدم ولا يؤخر .

ليس هذا كل شيء . فقد كان **الفلاسفة** يكافحون مخلفـات المؤسسات **الاقطاعية** . فمن اين جاءت المؤسسات الاقطاعية ؟ من اين جاء الاقطاع ؟ كان **الفلاسفة** يعدونه ثمرة الاخطـــاء البشرية ، وبعبارة اخرى ، حصيلة تطور مغلوط للمفاهيم . غير أن مؤرخي عهد عودة الملكية (٩) جعلوا منذ ذلك الحين وكدهـم

---

٨ ـ الفلاسفة اطلاقا هم تحديدا فلاسفة القرن الثامن عشر الفرنسيون الماديون . «م»

٩ ـ ومن اشهرهم اوغستان تيري ومينييه وغيزو ، وكان بليخانوف يكن لهم تقديرا عميقا ، وان نقديا . «م»

تفسيره على انه نتيجة الوضع الاقتصادي في العصر الوسيط .
والحال انه كلما تقدمت دراسة الاقطاع لدى مختلف شعوب اوروبا وآسيا وكلما تأكدت صحة وجهة النظر هذه ، توضح اكثر فأكثر ان المؤسسات الاقطاعيه لم تكن وما كان من الممكن ان تكون مجرد نتيجة لتطور المفاهيم الانسانية .

من المؤسف ان المجال لا يتسع لي للمضي في تأملات أبعد مدى حول هذه النقطة . ناهيك عن ذلك ، أشعر بأنه آن الاوان للانتقال الى مشكلة **التفاعل** بين شتى عوامل التطور الاجتماعي ، الى فكرة التفاعل التي ينبغي ان تقوم ، في رأي العديد من الروس (ومن غير الروس) ، في اساس كل فلسفة صائبة للتاريخ ، اي غير مشوبة ب «الميتافيزياء» .

لنفرض ان هناك منظومة قوى أ ، ب ، ج ، وهكذا دواليك. يسألني السائل : من اين جاءت هذه القوى ، فأجيب : كل واحدة منها تؤثر على الأخر .ولنفرض انني على حق ، وان هناك بالفعل تفاعلا بين تلك القوى كافة . غير انك ستقر ، يا سيدي، بأن السؤال الذي طرحه السائل عليّ لبث بلا جواب: فقد أشرت الى وجود تفاعل بين تلك القوى ، لكنني لم أفسر من اين جاءت. وذاك الذي طرح عليّ السؤال سيكون على ملء الحق في ان يقول انني **تهربت من المعضلة** ، لا اكثر ولا أقل .

ويجدر بنا ان نبدي الملاحظة عينها بخصوص الاحالة الى تفاعل بين الاقتصاد الاجتماعي والفكر الانساني ، وهي احالة غالبا ما يجري التذرع بها وكأنها اعتراض مظفر لا يدحض على «ضيق المادية الاقتصادية» . اذ ان هذه الاحالة لا تحل المسألة التي يجيب عليها ، صدقا او بطلانا ، المذهب المذكور ؛ انما هي مجرد تهرب وتملص ، أواعيا كان ام غير واعٍ .

لا ينكر الماديون الاقتصاديون البتة التفاعل بين شتى «عوامل» التطور التاريخي . انهم يقولون فقط ان التفاعل لا يفسر شيئا البتة بحد ذاته ، وهم على كامل صواب . فالمنطق يقف هنا

بلا مراء الى جانبهم ، لان كل تفاعل يفترض سلفا وجود قوى يتم فيما بينها . والتوكيد بأن بعضها يفعل في بعضها الآخر لا يفسر بحال من الاحوال أصلها ومنشأها .

ستعترض عليّ بأن اصل «العامل» النفسي يفسره تنظيم الانسان الجسماني ؟ وسأرد عليك بأن **ليس المقصود اصل ملكة التفكير ، وانما اصل المفاهيم الانسانية** ، اصل افكار محددة تتعلق بالملكية ، وبالعلاقات بين الرجال والنساء ، وبالصلات بين اعضاء الاسرة والمجتمع ، وبالموقف من الآلهة الوثنية «البدائية» . ولا يحق لنا بحال من الاحوال اعتبارها نتاج التطور البيولوجي . كذلك لا يحق لنا تفسير نشأتها بالتفاعل بينها وبين الاقتصاد الاجتماعي ، لانه لا بد اولا – أكرر ذلك – ان توجد حتى تؤثر بالاقتصاد وتتأثر به . لعلك ستكرر على مسامعي بأنها نشأت على نحو ذاتي مستقل ، بموجب القوانين الخاصة لتطور الانسان النفسي ؟ وفي هذه الحال ، سألفت نظرك ، اولا ، الى انك تجد نفسك مرغما على التخلي عن وجهة النظر التي تقول بالتفاعل والتي كانت تبدو حافلة بالوعود . وسأكرر لك القول ثانيا : **ان التعلل بقانون خاص للتطور الذاتي المستقل للحياة النفسية لا يعني حل المشكلة ، وانما يعني تغيير بيانها وطرحها بصيغة اخرى .**

لنأخذ مثالا . يذهب سيسموندي (*) الى ان روايات الفروسية ، وهي الوحيدة التي كانت تقرأ في البلاط والقصور في عهد فيليب الخامس (١٠) في فرنسا ، قد غيرت الشيم والاخلاق القومية ببيانها للطبقة النبيلة المثل الاعلى الكمال الذي

(*) «تاريخ الفرنسيين» ، م١٠ ، ص ٥٦ .

١٠ – ملك فرنسا بين ١٣١٦ و١٣٢٢ . «م»

يتوجب عليها ان تجاهد لادراكه . الادب يؤثر اذن على الاخلاق . لكن من اين يجيء ؟ ما الذي ولّد روايات الفروسية ؟ من الواضح ان وجود روايات فروسية يرجع الى وجود اخلاق فروسية . وهذا مثال جيد على التفاعل : فأدب المجتمع الاقطاعي يمارس تأثيرا على اخلاقه ، وأخلاق المجتمع الاقطاعي تمارس تأثيرا على ادبه . لكن من اين يجيء المجتمع الاقطاعي ؟ ان واقعة التفاعل التي لا تقبل جدالا تلك لا تفسر لنا ذلك البتة .

مثال آخر : حين ظهر كتاب **في الروح** ، قال بعض الحراس المتشددين للنظام القائم انه من الواجب ان يحرق هلفسيوس حيا ، وأن يحرق معه مؤلّفه . وزعموا ايضا انه من الممكن العثور على قدر كافٍ من النصوص في التشريع الفرنسي لتبرير حكم كذاك . بيد ان هذا التدبير الفظيع لم يأخذ طريقه الى التنفيذ : فقد كانت اخلاق المجتمع الفرنسي قد آلت عصرئذ الى لين ما عاد من الممكن معه الاكثار من استعمال المخلفات الموروثة عن همجية القرون الوسطى بخفة قلب (*) . لقد انعكس اذن ما أصاب الاخلاق من لين في الممارسة القانونية . زد على ذلك انه لا يمكن الشك في ان اللين النسبي الطارىء على الممارسة القانونية قد مارس تأثيرا نافعا على الاخلاق . زبدة الكلام ، أثرت الاخلاق على الممارسة القانونية ، وأثرت الممارسة القانونية بدورها على الاخلاق . التفاعل اذن أكيد لا مراء فيه . لكن لمَ طرأ ذلك اللين على الاخلاق ؟ من اين جاءت الممارسة القانونية التي لانت تحت تأثير ذلك اللين الطارىء على الاخلاق ؟ لا نعرف عن ذلك شيئا . والظاهرة لم يفسرها ذلك التفاعل المتعلل به .

(*) لكنهم كانوا يستعملونها بين الحين والآخر مع ذلك ؛ وتشهد على ذلك امثلة معروفة .

مثال ثالث ايضا : لقد **ابطأ** وجود المؤسسات الاقطاعية بلا ادنى شك تطور فرنسا الاقتصادي في القرن الثامن عشر . وقد انهارت تلك المؤسسات تحت ضغط حاجات اقتصادية جديدة . واعطى سقوطها دفعا جديدا لتقدم البلاد الاقتصادي . هنا ، ايضا ، التفاعل اكيد لا مراء فيه . لكن ما الذي أدى الى ظهور علاقات اقتصادية جديدة في فرنسا ؟ من اين جاءت المؤسسات التي ابطأت لحقبة مديدة من الزمن تطور تلك العلاقات ؟ مرة اخرى نجد ان التعلل بالتفاعل لا يفسر شيئا .

اذا كان التفاعل لا يفسر شيئا ، واذا كانت فرضية انسجام مسبق بين تطور المؤسسات (وكذلك المفاهيم) وتطور الاقتصاد الاجتماعي تظل غير مشاكلة للواقع بالمرة ، لا يبقى امامنا الا ان نستنجد بالعامل الذي يحتج به الماديون «الاقتصاديون» . فهو وحده الذي سيفسر لنا بيسر يبعث على الدهشة النقاط الشائكة العديدة التي نتعثر بها عند كل خطوة في دراسة تطور المجتمعات.

تذكر داروين ، يا سيدي . فهذا البحاثة النابغة يفسر اصل الانسان وملكاته من زاوية **البيولوجيا** . لكننا نلفى لديه بعض صفحات ذات اهمية قصوى بالنسبة الى **عالم الاجتماع** ايضا . فعواطف الانسان ومفاهيمه الاخلاقية تتفسر ، في راي داروين، بعمل **العلاقات الاجتماعية** . فلو كان الناس يعيشون في ظروف مماثلة بدقة لتلك التي يعرفها النحل لسادت لديهم اخلاقية نحلية ، ولبادروا دوريا الى قتل أقرانهم بخفة قلب تماثل خفة القلب التي يرتكب بها النحل المجازر في خلاياه (*) . بل لاعتبروا ان من أقدس واجباتهم ان يقترفوا تلك الفظائع ، وكل من يتخلف عن المشاركة فيها يشذ عن الاخلاق العامة .

ان مثل هذه الاخلاق ما ان ترسي دعائمها حتى تمارس تأثيرا

(*) «اصل الانسان» ، لندن ١٨٨٣ ، ص ٩٠ — ١٠٠ .

لا مرية فيه على العلاقات الاجتماعية ، فتساهم في توطيدها وترسيخها وتقدمها الى الامام . ولا سبيل ، في مثل هذه الحال، الى التشكيك في وجود التفاعل . لكن سيبقى واضحا مع ذلك ان ليست الاخلاق هي التي خلقت العلاقات الاجتماعية ، وانما العلاقات الاجتماعية هي التي أوجدت الاخلاق .

من اين تجيء اذن العلاقات الاجتماعية ؟

اننا نتكلم عن العلاقات الاجتماعية كما توجد في المجتمعات **البشرية** . انها علاقات **بين كائنات بشرية** ، علاقات خلقها البشر، وعليه فانها تبدو وكأنها ثمرة نشاط حر للانسان . لكن ما حرية الاختيار الانسانية ؟ «وهم كائن يعي نفسه كعلة ، ولا يعي نفسه كمعلول» (١١) . وتعريف ديدرو الجميل هذا ينطبق على **الفرد** انطباقه على **الانسان الاجتماعي**، على gesellschaftsmensch (١٢) الذي قال به ماركس . والبشر ، اذ يتصورون ان علاقات اجتماعية محددة قد خلقت بفضل اختيارهم الحر ، انما يقعون من جديد في الوهم الابدي الذي يجعلهم لا يعون انفسهم كمعلولات . ان كل منظومة من العلاقات تظهر الى حيز الوجود بفعل مشيئة البشر الى حد كبير ، لكن هذه المشيئة تتجه نحو خلق المنظومة المشار اليها مدفوعة بعلل غير منوطة بالانسان . ان المشيئة **معلول** قبل ان تكون علة ، ورسالة السوسيولوجيا كعلم هي ان تفهم مشيئة الانسان الاجتماعي المتجهة نحو الابقاء على منظومة معينة من العلاقات الاجتماعية او نحو خلق منظومة جديدة ، على انها **علة** .

الانسان الاجتماعي هو نتاج تطور حيواني طويل الامد . غير ان تاريخ **الحضارة** الانسانية يبدأ فقط يوم لا يعود الانسان يكتفي

---

١١ ـ بالفرنسية في النص . «م»

١٢ ـ اي انسان المجتمع . «م»

بوضع اليد على هبات الطبيعة ، فيشرع بانتاج الاغراض الاستهلاكية اللازمة له . وسعة هذا الانتاج وصفته تتحددان في كل آن بحالة القوى الانتاجية ، وهذه القوى تتلقى اندفاعها الاول من **الطبيعة بالذات** ، من **الوسط الجغرافي** . لكن طردا مع تعاظم اهمية الانتاج في حياة الانسان الاجتماعي ، يتعاظم دور الوسط الاجتماعي في تطور القوى الانتاجية . فلكي ينتج البشر، لا يكفي ان يقيموا علاقات معينة مع الطبيعة ؛ فعملية الانتاج الاجتماعية تفترض ، ناهيك عن ذلك، علاقات معينة **بين المنتجين انفسهم** . وهذه العلاقات تتحدد في كل آن بحالة قوى الانتاج. وكل مرحلة تاريخية جديدة في تطور هذه القوى تؤدي الى انقلاب شامل في العلاقات بين المنتجين ، وكذلك في مجمل البنية الاجتماعية (*) .

على هذا المنوال ترى النور العلاقات الاجتماعية التي بها

(*) «في مجرى الانتاج ، لا يؤثر البشر على الطبيعة فحسب ، بل على بعضهم بعضا ايضا . انهم لا ينتجون الا اذا تعاونوا بكيفية محددة وتبادلوا فيما بينهم نشاطاتهم . انهم يدخلون ، كي ينتجوا ، **في صلات وعلاقات محددة** فيما بينهم ، وانما في حدود هذه الصلات والعلاقات الاجتماعية يقوم فعلهم في الطبيعة ، اي الانتاج .

«تبعا لصفة وسائل الانتاج ستختلف بالطبع العلاقات الاجتماعية التي يقيمها المنتجون فيما بينهم ، والشروط التي يتبادلون فيها نشاطاتهم والتي يشاركون فيها في مجمل الانتاج . فمع اكتشاف اداة حرب جديدة ، السلاح الناري ، تبدل بالضرورة كل التنظيم الداخلي للجيش ؛ فقد تغيرت الشروط التي يؤلف فيها الافراد جيشا والتي يمكنهم فيها ان يتصرفوا كجيش ، وتغيرت كذلك علاقات مختلف الجيوش فيما بينها» (ماركس) . [«العمل المأجور والرأسمال»] .

ترتهن ، كما قلنا للتو ، المفاهيم الاخلاقية او غيرها .

توضيحا لفكرتنا ، لنأخذ حالة المشاعات البدائية ، العشائر. فالملكية الخاصة لا وجود لها تقريبا فيها ؛ بيد ان تقدم القوى الانتاجية يقوض شيئا فشيئا الشيوعية البدائية ؛ فتتطور الملكية الخاصة ، وتتعزز ، وتوسع باستمرار حقل عملها ؛ ويظهر فقراء وأغنياء في داخل مجتمع كان فيما سلف قائما على اساس من المساواة . وهذا انقلاب شامل يفضي ، لا محالة ، الى تغير في الحقوق العائلية والبنية السياسية . وتظهر الى حيز الوجود الدولة ، ويعكس تكوينها علاقات المجتمع الاقتصادية . وعلى هذا النحو نرى ان كل التاريخ السياسي الداخلي للحاضرة القديمة التي تتحدث عنها في مقالك ، يا سيدي ، لا يفعل من شيء سوى انه يعكس الصراع بين الاغنياء والفقراء ، بين الارستقراطية والديموقراطية (لقد ادرك ذلك ارسطو خير ادراك). وهذه المؤسسات الجديدة تتفتق عنها مفاهيم معينة في الحقوق الخاصة والعائلية والعامة ، وأفكار معينة بصدد الموقف من الشعوب الاخرى ، بل حتى من الآلهة الوثنية «البدائية» .

أجل ! حتى من الآلهة الوثنية «البدائية» ! ان الوثنية هي تأليه قوى الطبيعة التي لا يفهمها الانسان . والديانة البدائية ، بالمعنى الحقيقي للكلمة ، هي تلك التي يصفها ماكس مولر بـ «**الطبيعية**» . وهذه الديانة ، القائمة على تأليه قوى الطبيعة ، نلتقيها لدى الانسان الاجتماعي في فجر الحضارة . لكن طردا مع تطور القوى الانتاجية لدى هذا الانسان وتعرض الوسط الاجتماعي لتعديلات متفاوتة العمق ، تكتسب الديانة البدائية طابعا جديدا : فتتحول من **طبيعية** الى **اجتماعية**. وتنقلب الآلهة، التي كانت فيما سلف محض تشخيص لقوى الطبيعة ، الى آلهة حامية ، بل خالقة وهمية لنمط معين من الملكية والاسرة والنظام السياسي والصلات بالشعوب الاخرى . وحين ينشب صراع في

سبيل نمط معين على سبيل المثال من البنية العائلية ، تتواجه الآلهة ايضا ، فيقف بعضها الى جانب المدافعين عن النظام القديم ، وينحاز بعضها الآخر الى حزب المجددين . فالاومينيديات (١٣) لدى اسخيلوس يدافعن عن الحق **الامومي** ، بينما تساند آثينا سلطة الاب (١٤) . ولم يكن لهذه الإلهة الاخيرة المثيرة لكبير الاهتمام من ام كما هو معروف (١٥) ؛ ومن هذه الزاوية ، لم تكن غير انعكاس استشباحي في الادمغة البشرية للصراع الذي رافق الانتقال من الحق الامومي الى الحق الابوي .

انه لأمر مفهوم تماما ان تخرج «نفسية» معينة من علاقات انسانية معينة ؛ كذلك لا يعسر علينا ان نبين ان هذه التيارات او تلك من تيارات الفلسفة والفن تستمد أصلها من هذه «النفسية» او تلك . تذكّر فلسفة القرن الثامن عشر الفرنسية ، ترَ ان عقلية الطبقة الثالثة ــ التي كانت في صراع مع رجال الدين والنبلاء ــ هي التي ابتدعتها بتمامها وبكامل تفاصيلها . أما عن الفن فلا حاجة بي الى الالحاح ، وحسبي ان اشير الى تين وكتابه

---

١٣ ــ اسم مأساة لأسخيلوس تؤلف مع «أغاممنون» و«الكوئيفوريات» الثلاثية الاورستية . والاومينيديات هو الاسم الذي كان يطلق ، بقلب المعنى ، على إلهات الانتقام ، اذ ان المعنى الحرفي للاومينيديات هو «المتسامحات». «م»

١٤ ــ يقتل اورست أمه كليتمنسترا ، بالتواطؤ مع اخته اليكترا ، انتقاما لأبيه اغاممنون الذي كان قد لقي مصرعه على يد زوجته . وتطارد الاومينيديات اورست ، لكن اثينا تكف شرهن عنه باقامتها مراسم عبادة لهن . «م»

١٥ ــ المعروف ان اثينا هي ابنة زفس فقط . «م»

فلسفة الفن (*) .

ان المفاهيم تخرج من العلاقات الاجتماعية ، لكن ما ان تظهر الى حيز الوجود حتى تمارس تأثيرا على تلك العلاقات . ومختلف ميادين المفهوم والتصور تمارس كذلك تأثيرا على بعضها بعضا : الدين على الحقوق ، الانقلابات الطارئة في مضمار الحقوق على الافكار الدينية ، كما رأينا للتو ، الخ ... هكذا يتفسر ، من وجهة نظر المادية الاقتصادية ، التفاعل بين مختلف عوامل التطور التاريخي .

انت تلفت نظري ، يا سيدي ، الى ان التاريخ أعقد مما يتصور الماديون الاقتصاديون ؟ وأنا سأجيبك : ان نظرية المادية الاقتصادية ارحب وأعقد بما لا يقاس مما يتخيل خصومها .

انك تذكر النزاعات الدولية ونتائجها بصفتها ظاهرات لا يمكن تفسيرها من زاوية المادية الاقتصادية . لكن **النزاع بين**

(*) سأسمح لنفسي بملاحظة صغيرة . لقد ابدى السيد كودرين بالغ دهشته في روسكويه بوغاتستفو من كونه قرأ لدى بلتوف ان صراع الطبقات كان له ، في ما كان ، انعكاس على تطور فن العمارة . ويخيل الي ان المأخذ الوحيد الذي يمكن ان يؤخذ على بلتوف هو انه لم يعط فكرته اطارا أعم . اما ان فن العمارة في كل حقبة تاريخية منوط باقتصاد هذه الحقبة ، فقد سبق ان اشار الى ذلك رودبرتوس : «يعكس الاسلوب المعماري لكل عصر الصفات الاساسية لحياة البلد الاقتصادية في الواقع . فالبيت الروماني ، والبيت البورجوازي في العصور الوسطى بغرف استقباله ... والبيت العائلي والصالون الحديثان تشكل جميعها العلامات الفارقة لألفين وخمسمئة عام من التطور الاقتصادي ، اذ ليس من فن وثيق الارتباط بالشروط الاجتماعية مثل فن العمارة ، ولقد اصاب من قال : كل أسلوب معماري مميز جديد لا يظهر الا على قاعدة اجتماعية جديدة» ... رودبرتوس : «مساهمة في دراسة القيمة الفعلية للمال في العصور القديمة» ، حوليات هيلدشايم ، م١٤ ، ص ٣٦٥ .

فوتين ، وكذلك امكانية تنازعهما بالذات ، يتحددان في كل عصر بطابع (بخصائص) تينك الفوتين . ونستطيع ان نصوغ هذا المبدأ العام في الحالة الخاصة للنزاعات الدولية على النحو التالي : ان نتائج النزاع بين مجتمعين ، وكذلك امكانية تنازعهما بالذات ، تتحدد في كل عصر بطابع (بخصائص) ذينك المجتمعين ، وبعبارة اخرى ، ببنيتهما **الداخلية** . واذا كانت المادية الاقتصادية تفسر تفسيرا مقنعا اصل البنية الداخلية للمجتمعات البشرية ، فانها تفسر سواء بسواء نتائج النزاعات فيما بينها وامكانية تنازعها بالذات .

يقول مولتكه (١٦) :

«لقد اكتسبت البورصة في ايامنا هذه نفوذا هائلا حتى انه بات في مقدورها ، دفاعا عن مصالحها ، ان تولع نار الحرب بين الجيوش . لقد رأت المكسيك ومصر الجيوش الاوروبية تقدم اليهما **تلبية لنداءات** رجال المال» (*) .

لماذا يسع البورصة ، في رأيك يا سيدي ، ان تقرر اليوم مصائر السلم والحرب ؟ الا ترتبط هذه الظاهرة بالوضع **الاقتصادي** للبلدان المتمدينة ؟

ان نتائج نزاع قد ينشب بين قبائل قناصة لا تشبه ولا يمكن

---

١٦ - الكونت هلموث فون مولتكه : ماريشال بروسي (١٨٠٠ - ١٨٩١) ، قائد الاركان من ١٨٥٧ الى ١٨٨٨ ، قاد الجيوش البروسية اثناء الحرب الفرنسية - الالمانية عام ١٨٧٠ - ١٨٧١ . «م»

(*) «حرب ١٨٧٠» ، باريس ١٨٩٤ ، ص ٢ .

ان تشبه نتائج نزاع قد ينشب بين شعوب مزارعة . ونتائج نزاع قد ينشب بين شعوب مزارعة تعيش في نظام الاقتصاد الطبيعي لا تشبه ولا يمكن ان تشبه نتائج نزاع قد ينشب بين البلدان الراسمالية المعاصرة . لماذا ؟ أليس ذلك لان نتائج نزاع من النزاعات تتعلق بالحالة الاقتصادية للمتحاربين ؟

[اضافة مأخوذة من محفوظات بليخانوف .]

امامي الان «**الحرب بين شتى الاعراق البشرية**» بقلم لوتورنو (باريس ١٨٩٥) . انتا نلتقي في هذا الكتاب عيوب مؤلفه المعتادة : فالوقائع مثبتة بلا نقد، والحكم الصادر بصددها ينم عن ازدراء تام للبحث العلمي . ولكن مهما نأى هذا الكتاب عن التبصر والروية ، فانه يظل يتضمن قدرا كبيرا من الشهادات المباشرة وغير المباشرة في تأييد الاطروحة التي اقول بها . اقرأ، اذا تكرمت ، هذا المقطع :

«لم يكن على العشائر الاولى ان تدافع الا عن اراضي لقاط او صيد او قنص ... وما دامت هذه الحالة البدائية قائمة ، ما كان من الممكن للحرب ان تغني المنتصر : فلم يكن ثمة ما يُنهب . لذا نرى ان الهنود الحمر ما كانوا يرفعون قط فأس الحرب رغبة في الربح ؛ بل ما كانوا يسلبون حتى القتلى . لكن حين صار الناس رعاة او زرّاعا ، تغيرت هذه الشيم . فقد بدأت منذئذ الغزوات لسرقة القطعان والمحاصيل والادوات ، الخ ؛ وتعرت الحرب من كل ظاهر قانوني ، وصارت السرقة هدفها الرئيسي ؛ وطفق الناس يقتلون بغية السرقة ، ولم يحجموا عن الامعان في التقتيل الى حد الابادة ، اللهم الا اذا ردع حساب الربح ذراع المنتصر ، فأمسك عن القضاء على الخصم المجندل لكي يجعل منه عبدا ... ومذذاك فصاعدا

غدت الحرب غزواً في المقام الاول ، غارة عنيفة ، تشن بهدف السلب والنهب . ثم طفق الناس اخيرا يسرقون الارض بالذات ويعمدون اكثر فأكثر الى الفتح عن طريق الاخضاع القسري للجيران المغلوبين على امرهم طردا مع الاتساع المتعاظم للتجمعات البشرية . وتكونت دول كبيرة ؛ واندفعت الى ساحات الحرب جيوش جرارة . وكانت اعظم الجيوش عنفا وضراوة جيوش الشعوب البدوية التي كانت حملاتها ترمي الى النهب في المقام الاول . وما كانت فتوحات جنكيز خان وتيمورلنك الا غزوات عظيمة . وقد سار التطور السياسي بالتلازم مع تأسيس الرق والعبودية . وبفضل الحرب بالذات تكونت حكومات ارستقراطية ، وصار القادة الحربيون ملوكا ، وتأسست طوائف او طبقات كهنوتية وتعايشت احسن ما يكون التعايش مع الاقوياء ؛ وراح الناس يشبهون الملوك اكثر فأكثر بالآلهة .

وانما عندما ادركت المجتمعات هذه الدرجة من التعقيد ، وأرست دعائمها على ركيزتي الزراعة والرق ... بدأ على اوسع نطاق عصر الفتوحات» (*) .

انك ستوافق ، يا سيدي ، على ان هذه التأملات توسع مكانا فسيحا جدا ، بل فسيحا اكثر مما ينبغي في رأيي ، لعامل «الفتح» . وبديهي ان لوتورنو يعجز عن ان يثبت ان الحرب

(*) «الحرب ...» ، ص ٥٣٠ - ٥٣١ .

تشكل **العلة الاولى ، العلة الاعمق** لولادة الارستقراطية . وفي الواقع ، **لا يفعل الفتح غير أن يستبدل** ارستقراطية اهل البلاد الاصليين بأرستقراطية الفاتحين ؛ ونجد مثالا على ذلك في انكلترا حيث احتلت النبالة النورماندية محل النبالة الساكسونية. لكني أؤثر ألا اتبسط بصدد هذه النقطة هنا . وبودي ان أسلّم بأن لوتورنو لم يبالغ ، وبأن الفتح لعب حقا في تاريخ التطور الاجتماعي الدور الذي يعزوه اليه ، وسأسألك : الا تلاحظ ان لوتورنو ذاته قد وجد نفسه مكرها على ربط عامل الفتح بتقدم الاقتصاد الاجتماعي ؟ فلدى المتوحشين الذين يعيشون على اللقاط والصيد والقنص ، تلعب الحرب دورا مغايرا تماما وينشد المتحاربون اهدافا مغايرة تماما لما هو عليه واقع الحال في المجتمعات الاكثر تقدما من زاوية التطور الاقتصادي . وقد كان ظهور الحياة الرعوية ، وعلى الاخص الحياة الزراعية ، حدثا بالغ الاهمية في تاريخ الحرب . ولم يبدأ عصر الفتوحات حقا وفعلا الا حين توطد المجتمع الزراعي وانقسم الى طبقات . ما معنى هذا ؟ معناه انه حتى المؤلفون الميالون الى المبالغة في اهمية الفتوحات في تاريخ التطور الاجتماعي مكرهون اليوم على الاقرار بأن طابع الحرب والنتائج الاجتماعية للنزاعات المسلحة ترجع في التحليل الاخير الى تطور الاقتصاد . وهذا بالضبط ما يقوله «الماديون الاقتصاديون» . واذا كانوا على صواب من امرهم ، فلا مسوغ اذن لمعارضتهم بالحرب من حيث انها ظاهرة اجتماعية تتمرد على التفسير المادي .

أما ان تقنية الحروب مشروطة بالبنية الاجتماعية للشعوب المتحاربة ، فهذا ما يعرفه اليوم كل عسكري يتمتع بحد ادنى من الثقافة . يقول الكولونيل الفرنسي روسيه :

«في الواقع ، ان الحالة الاجتماعية الخاصة بكل عصر تاريخي تمارس تأثيرا حاسما ، لا على المؤسسة

العسكرية لأمة من الامم فحسب ، بل كذلك على صفة رجالاتها الحربيين وقدراتهم وميولهم» (*) .

من المؤكد ان القائد العسكري يلعب دورا هائلا في الحرب. ولكن ماذا نعني بقائد عسكري كبير ؟ يجيب الكولونيل روسيه على السؤال بالعبارة التالية :

«ان الجنرالات العاديين يعتمدون ، كما هي ، وسائل العمل المتاحة لهم ، ويستخدمون الاساليب المعتادة ... اما كبار القادة ، فانهم يطوعون الوسائل والمناهج لعبقريتهم الخاصة» (**) .

فيمَ تكمن عبقرية القائد الكبير ؟ في مقدرته ، مسترشدا بغريزته ، على تحويل الوسائل والاساليب المشار اليها طبقا لقوانين التطور الاجتماعي الذي يمارس تأثيره على تقنية الحرب. ان القائد الكبير لا يتميز عن الجنرال العادي الا بغريزة العبقرية التي تجعله يفهم التقنية الجديدة التي تتطلبها العلاقات الاجتماعية الجديدة ، والسيكولوجيا الاجتماعية الجديدة التي انبثقت من هذه العلاقات الجديدة .

هذا واضح غاية الوضوح ، وصحيح كل الصحة ؛ وما هذه هي النقطة الوحيدة التي تتوضح هنا . فمن الواضح ايضا ان هذا التصور لدور كبار القادة وأهميتهم يشكل حجة جديدة في

(*) «اساتذة الحرب : فريدريك الثاني ، نابليون ، مولتكه . دراسة نقدية بالاعتماد على المؤلفات غير المنشورة للسيد الجنرال بونال» ، ص ٤ .

(**) المصدر نفسه ، الصفحة نفسها .

تأييد النظرية التي تطعن انت في صحتها (*) .
انتهت الاضافة] .

ثمة رأي مسبق عجيب غريب ، ما يزال يحظى بالذيوع في روسيا الى يومنا هذا ، يزعم ان المادية الاقتصادية تحكم على الفرديات بالخمول واللافعالية ، وأنه بناء على ما يقوله الماديون «الاقتصاديون» فان «كل شيء» يتم من تلقاء نفسه ، وما على «الفرديات» في هذه الحال الا ان تكتف الأذرع . ومن دون ان أتتبع هنا اصل هذا الرأي المسبق ، سأقول فقط انه سينقشع حالما تكلف الانتلجانسيا عندنا نفسها مشقة التفكير بخصوص المادية «الاقتصادية» .

أمن الواجب اذن ان يسود لدينا الاعتقاد بأن المثقف لا بد ان يصبح بالضرورة ، في حياته الخاصة ، كأوبلوموف (١٧) حالما يتبنى تعريف ديدرو القائل ان حرية الاختيار هي وهم كائن يعي

(*) حاشية مأخوذة من محفوظات بليخانوف :

تكملة لتلك المؤلفات ، سأذكر ايضا ابحاث الاستاذ سيكوتي المثيرة للاهتمام : «السلم والحرب في اثينا القديمة» ، سكانسانو ١٨٩٧ . وقد عبر سيكوتي عن الفكرة المحورية لكتابه على النحو التالي : «لقد كان للنزعتين المتعاكستين الى السلم والحرب ، الى الشقاق ونقيضه ، اهمية قصوى في اثينا ، ولقد تجلت النزعتان كلتاهما ، وان على نحو غير مطرد ، بالحاح ولجاجة في القرون الثلاثة من تاريخ تلك الحاضرة ، ملخصتين في اتجاهين مختلفين درجة التطور الاقتصادي ، والحاجات ، وطاقة الانتاج ، وصراع الطبقات ، والثورات السياسية في الدولة» ص ٢ .

١٧ ـ اوبلوموف : بطل رواية مشهورة معروفة بالاسم نفسه ، للكاتب الروسي غونتشاروف (١٨١٢ ـ ١٨٩١) ، مثال الكسول الواعي لكسله ولكن الذي لا يملك ان يغير واقع حاله . «م»

نفسه كعلة ولا يعيها كمعلول ؟ أمن الواجب ان يداخلنا الاعتقاد بأن المؤلف الموسيقي العبقري سيهجر الموسيقى وينفض يده منها حالما يدرك ان عبقريته ان هي الا نتيجة حالة معينـــة للدماغ لا تتوفر حولها بعد المعلومات الموثوقة ؟ بديهي ان لا ، بل انه لمـــن المضحك طرح السؤال . لكن لمَ الافتراض في هذه الحال بـأن رجل الدولة سيكف عن العمل حالما يدرك ان مثله الاعلى هو ثمرة التطور التاريخي ؟ فلئن تكن علة هذا المثل الاعلى هي بالفعـــل تطورا كذلك ، فهذه ضمانة اضافية لتحققه مستقبلا . يقـــول ماركس :

«لا تطرح الانسانية علـــى نفسها ابدا ســوى المشكلات التي تستطيع حلها ، ذلك اننا لو انعمنـــا النظر عن كثب لاتضح لنا ان المشكلة ذاتها لا تبرز الى حيز الوجود الا حيث تتوفر اصلا الشروط الماديـــة لحلها ، او على الاقل حيث هي في سبيلها الـــى ان تغدو متوفرة» .

اذا كانت الحال كذلك ، فإني لا أزداد الا ايمانـــا بالنصر ، وبوسعنا ومن واجبنا ان نعمل بمزيد من الشجاعة على حـــل المشكلات الكبرى التي تشغل اليوم بال العالم المتمدين . هذا الا اذا اوهن عزيمتنا وفتّ في عضدنا علمنا بأن القضية التي نقاتل في سبيلها قد هيأها الى حد كبير التاريخ بالذات ؟ وإلا اذا كنا نؤثر وضعا يحق لنا فيه ان نصيح بكل قادم : «لولانـــا لكانت الانسانية أسنت في الجهل ، ولكانت ارهقتها شتـــى ضروب الادواء والشرور . لكن هانحنذا ، ولقد سار كل شيء على احسن ما يرام» ؟ وهذا الضرب من التفكير غريب ، والحق يقال ، وهو

يليق ، اكثر ما يليق ، بكيت كيتيتش (١٨) ، العاطر الذكر .

من يزعم ان المادية الاقتصادية تقول ان كل شيء يتم وسيتم من تلقاء نفسه ، يحرف كامل التحريف معنى هذه النظرية . فالعلاقات الاجتماعية في منظارها علاقات بين **كائنات انسانية** (في المجتمع **الانساني**) . ومن غير الممكن ان يتم اي تقدم هام في الصيرورة التاريخية للانسانية بدون مساهمة الناس ، بل بدون مساهمة كثرة من الناس ، أي **الجماهير** . ان ضرورة مساهمة هذه الجماهير في الاحداث التاريخية الكبرى تشرط ضرورة فعل وتأثير في الجماهير من قبل الافراد الاكثر تطورا والاكثر اخلاقية. وعلى هذا النحو ينفتح الباب على مصراعيه امام عمل خصب تؤديه «الفرديات» . واذا وجد بين هذه الفرديات واحدة او اكثر تتحول ، تحت تأثير المادية الاقتصادية ، الى اوبلوموف ، فإصبع الاتهام يجب ان توجه في هذه الحال لا الى هذه المادية وانما الى تلك الفرديات ذاتها : اذ ليس يسعنا ان نرى فيها سوى **«معلولات»** غير مؤهلة للتفكير المنطقي وجامحة الميل الى الخمول واللافعالية .

انه لمما يسترعي الانتباه ، يا سيدي ، ان «الفرديات» طفقت تعارض عندنا «مسار الاحداث الطبيعي» منذ ما يناهز الخمسة عشر عاما ، اي في زمن طرأ فيه ، باعتراف تلك «الفرديات» بالذات ، انحطاط ملموس في المستوى الفكري والاخلاقي للانتلجانسيا . ففي الفترة ما بين ١٨٧٠ و١٨٨٠ ، كان يطيب الفرديات ، التي كانت هي الاكثر تقدما على صعيد الافكار والاكثر زخما على صعيد الطاقة والاندفاع ، ان تعتبر نفسها مجرد ادوات بين يدي التاريخ . كتب في أواخر تلك الفترة

---

١٨ ـ شخصية من ملهاة اوستروفسكي : «الثمل في وليمة الغير» ، نموذج للتاجر المستبد . «م»

شعبوي بارز ، صاحب مروءة ، اختفى اليوم ويا للاسف ، كتب يقول :

«اننا لا نؤمن بامكانية ان نخلـــق في الشعب ، بواسطة عمل تحضيري ، مثلا عليا مغايرة لتلك التي طوّرها كل المجرى السابق للتاريخ» .

وأردف يقول :

«الاحداث الكبيرة هي من صنع الجماهـــير . والتاريخ هو الذي يحضِّرها . وليس يسع الافراد ان يدبروا امرا . كل ما بوسعهم هو فقط ان يكونـــوا ادوات التاريخ ، التعبير عن صبوات الشعب» (١٩) .

ان مثل هذا التفكير قمين بأن يثير اليوم سخط رجال لا يمكن لنشاطهم ان يصمد للمقارنة ، ولو من بعيد ، مع اعمال كاتب تلك السطور . فمن اين جاء الفرق ؟ من واقع ان اهل النخبة قبـل عشرين عاما كانوا يؤمنون ايمانا صادقا بالشعب . كان هـــؤلاء الرجال ، الراسخو اليقين بوجود تيار في قلب الشعب مطابق في جوهره لمثل الانتلجانسيا الاعلى ، يعتبرون انفسهم مجرد ادوات بين يدي التاريخ وتعبيرا عن صبـــــوات الشعب . وبالمقابل ، امسكت غالبية «الفرديات» المعاصرة عن الايمان بالشعب ، وان كانت تتحدث عنه ، بحكم العادة ، بكثير من العاطفة . وتحاول

---

١٩ ـ شاهد استقاه بليخانوف من مقال «الارض والحرية» الذي نشر بلا توقيع في مجلة «زمليا اي فوليا» (الارض والحرية) ، العدد ١ ، ٢٥ تشريـن الاول ١٨٧٨ ، ص ٣ . «ن.س»

«الفرديات» المعاصرة ، لانها تعتقد ان التيارات الفردية النزعة راجحة الكفة لدى الشعب ولأن الاقتصاد يكذب مثلها الأعلى ، تحاول ان تكذب الاقتصاد . ولو كانت قادرة على تحقيق الانسجام بين مثلها الاعلى وبين الوضع الراهن للاقتصاد الروسي، لتعللت بكل تأكيد بهذا الاخير بوصفه احسن حجة في تأييد ذلك المثل الاعلى . بيد انها تعجز عن تحقيق الانسجام بين مثلها الاعلى وبين الاقتصاد الروسي المعاصر ، وهذا لانها لم تفهم المادية التاريخية .

في مقالك ، يا سيدي ، تعارض الماديين الاقتصاديين بأولئك الذين «يعتبرون ممكنا التدخل الواعي والارادي لرجل او للمجتمع او للدولة في اقتصاد البلاد» (٢٠) . فهل أنكر الماديون الاقتصاديون امكانية تدخل كذاك ؟ هل زعموا ، مثلا ، كما يفعل تلامذة مدرسة مانشستر ، ان الدولة لا يجوز لها ان تتدخل في الحياة الاقتصادية ؟ انهم لم يقولوا قط ، يا سيدي ، بشيء من هذا القبيل . لكن صحيح انهم لم يفهموا قط امكانية تدخل الدولة على نفس النحو المجرد الذي يفهمه بها اليوم السادة الشعبويون الروس . فكل شيء ، في نظر الماديين الاقتصاديين، منوط بظروف الزمان والمكان ، على نحو ما اعلن مؤلف **«ملاحظات حول ستيوارت ميل»** (٢١) .

في عهد لويس فيليب ، حين كانت البورجوازية الفرنسية الكبيرة تدافع عن المكوس الحمائية الهادفة الى انقاذها من

---

٢٠ ـ شاهد من مقال غولتسيف في «روسكايا ميسل» ، ١٨٩٦ ، العدد٤ ، الجزء ٢ ، ص ١٣٨ . «ن.س»

٢١ ـ انظر تشيرنيشفسكي : «مقالات في الحقبة الادبية الغوغولية» . «ن.س»

المزاحمة الانكليزية ، كانت تعترف باديء ذي بدء ، من حيث المبدأ ، بامكانية تدخل الدولة في حياة الامة الاقتصادية، وكانت، فضلا عن ذلك ، ترى بوضوح الامكانية **العملية** لهذا التدخل في مصلحتها **هي** كبورجوازية كبيرة : فقد كانت السلطة بين يديها ، وما كان عليها الا ان تستعملها .

لكن في عهد عودة الملكية (٢٢) ، لم تكن تتاح لها على الدوام الامكانية العملية لتدخل من ذلك القبيل . فقد كان نفوذ الارستقراطية الراجح الكفة يجعل مثل ذلك التدخل مستحيلا في الغالب . وكان على البورجوازية الكبيرة ، كي تخلق امكانيته ، ان تكبح نفوذ الارستقراطية ، اي ان تدخل تعديلات شتى على «البنية الفوقية» التي تستمد اصلها من الاقتصاد .

كذلك حين كانت البورجوازية الصغيرة والطبقة العاملة تفكران ، في عهد لويس فيليب ، بتحسين مصيرهما ، كانتا تسلمان ، بكل تأكيد ، من حيث المبدأ ، بامكانية تدخل الدولة في حياة البلاد الاقتصادية ؛ لكنهما ما كانتا تريان امكانية عملية لكي يأتي مثل ذلك التدخل في مصلحتهما : فالسلطة ما كانت في أيديهما ، وانما في يدي البورجوازية الكبيرة ؛ وعليه ، فقد كان البورجوازيون الصغار والعمال يطالبون باصلاح انتخابي .

ثمة ازمان يقتضي فيها تدخل الدولة في حياة الامة الاقتصادية ، كي يأتي لمنفعة طبقة من الطبقات ، شروطا سياسية معينة ؛ فاذا لم تتوفر ، يحسن الا يدور كلام عن ذلك التدخل . وفي الواقع ، يستمر بعضهم في الحديث عنه . لكنهم رؤوس بلا

٢٢ـ يطلق اسم عهد عودة الملكية على الحقبة الممتدة من ١٨١٤، عام رجوع آل بوربون الى العرش ، الى ١٨٣٠ ، عام سقوطهم من جديد. اما لويس فيليب فقد تسنم العرش على اثر ثورة ١٨٣٠ وبقي ملكا على الفرنسيين حتى عام ١٨٤٨ . «م»

دماغ ، عقول حسيرة لا تفهم اهمية المصالح التي تدعي انهـــا تذود عنها .

ان الانعطافات الكبرى في التاريخ ، الانعطافات التي يعتد بها ، لهي كالنقاط على المنحنى الطويـــل للصيرورة الانسانية . ولنشر اليها بالاحرف : أ ، ب ، ج ، د ، الخ . فحين يبلغ التطور الاقتصادي النقطة أ ، يعقـد إزار النصر لطبقة مـــن الطبقات . وحين يصل التطور الى النقطة ب ، تتراجع الطبقة السائدة القديمة الى الخلف لتحل محلها طبقة سائدة جديدة . وحين يتم الوصول اخيرا الى نقطة سنشير اليها بالحرف س ، يتوقف صراع الطبقات ، لان انقسام المجتمع الى طبقات يكون قد انتهى . لكن حركة الانسانية من أ الى ب ، ومن ب الى ج ، الخ، وصولا الى س، **لا تتم ابدا على صعيد الاقتصاد وحده**. فللانتقال من أ الى ب ، ومن ب الى ج ، الخ ، لا بد في كل مرة مـــن الارتفاع الى مستوى «البنية الفوقية» وإحداث **تعديلات** معينـة فيها. وانما بعد تحقيق تلكالتعديلات يمكن ادراك النقطة المرامة. **والطريق الذي يقود من منعطف الى آخـر يمر على الـــدوام بـ «البنية الفوقية»** . فالاقتصاد لا ينتصر البتة تقريبا بوسائلـه الذاتية ، ولا يمكن ابدا ان يقال عنه انه يتم من تلقاء نفسـه . لا وجود ابدا لـ «من تلقاء نفسـه» . انما يكون المرور على الدوام عن **طريق «البنية الفوقية» ، عن طريق** بعض المؤسسات السياسية **دوما وأبدا** . ذلك هو المعنى الاكيد الذي لا ريب فيه للماديـــة الاقتصادية حين نرى اليها من منظور «العقل العملي» .

بمَ تناط المؤسسات السياسية لبلد من البلدان ؟ اننا نعرف من الاساس انها تعبر عن العلاقات الاقتصاديـة . لكن هـــذه المؤسسات السياسية التي يمليها الاقتصاد لا بد لها ، كيمـــا تتحقق ، ان تمر اولا برأس الرجال في شكل **مفاهيم** . ولهذا لا يمكن للانسانية ان تنتقل من منعطف الى آخر في صيرورتهـــا

الاقتصادية من دون ان يكون هنـــاك مسبقا منعطف فـــي **مفاهيمها** .

لننتقل الان ، بعد تناولنا مسألة المفاهيم ، الى مشكلـــة **التعليم العام** التي تعرضت اليها ، هي الاخرى ، في مقالك .

انت تقول ان الحاجة الى المعرفة تتصاعد في كل مكان من أعماق شعبنا ، وانه في هذه الوجهة ينبغي ان تصب جهـــود جميع الكرام والشهام من الرجال . اعظم بها من حقيقة لا تحتمل جدالا او تفنيدا ! اجل ، في هذا الاتجاه اولا وعلى الاخـــص ينبغي أن يعمل جميع اولئك الذين لا يريدون ، كما كان يقـول الشاعر ريلييف ، ان يلطخوا ثوبهم بالعار . لكن هل من داع الى اقناع الماديين الاقتصاديين بذلك ؟ هل امتنعوا مرة عن القول ان ما ينبغي تطويره اليوم في المقام الاول انما هو **وعي الذات لدى المنتجين** ؟ هذا **تقريبا** ما تقوله انت نفسك . **تقريبا** ، لان تقدم وعي الذات لدى المنتجين مهمة اكثر دقة وتحديدا ، وان أعقـد بكثير والحق يقال ، من **مجرد نشر التعليم** في اوساط الشعب . ان المنتج الذي يعرف القراءة والكتابة ، الذي يملك متاعا وان بسيطا من العلم ، يتجاوز من جميع زوايا النظر المنتج الـــذي يبقى غارقا في دياجير الجهل الصفيقة حيث كان يحيا بخمـــول بائس ايفان ارمولايفيتش ، ذلك الناطق بلسان مثل اعلى فلاحي متناغم ، الذي أحسن غليب اوسبنسكي كل الاحسان وصفه(٢٣) . فكائنا ما كان تناغم مثله الاعلى ، فان ايفان ارمولايفيتش ليس بعد انسانا بملء معنى الكلمة ، وانما فقط انسان **بالقوة** . امـا ابن هذا الكائن شبه الانساني ، الفتى ميشوتكا ، فانه اهل اذا ما

---

٢٣ ــ شخصية في سلسلة حكايات غليب اوسبنسكي : **الفلاح وعمل الفلاح.**
«ن . س»

خميره الظمأ الى المعرفة (وهو لا يساوره لدى اوسبنسكي) لان يغدو **انسانا** . واذا ما استطاع تحصيل قدر ، ولو ابتدائي ، من المعارف العلمية ، يكون قد خطا بضع خطوات ، بضع خطـــوات صغيرة ، على طريق **الارتقاء الانساني** ، ويكون بالتالي قد ارتفع فوق مستوى ابيه بكثير . ولكن من الممكن ان يبقى ، حتى ولو امتلك بعض معلومات أولية في الحساب وعلوم الطبيعة ، جاهلا جهلا مطبقا بكل ما يمس وضعه الاجتماعي الخاص وبالواجبات التي تترتب عليه بنتيجة هذا الوضع . والحال انه ، ما لم يع هذه الواجبات ، يبقى **صفرا** من منظور الفعل الواعي في قـوى الاقتصاد العمياء ، حتى وان خطا بضع خطوات في طريق الارتقاء الاجتماعي . ومهما اطنبنا ، نحن المثقفين ، في الكلام عن تأثـير ممكن للعقل الانساني على تطور العلاقات الاقتصادية ، فان هذا التأثير لن يفعل فعله في صالح ميشوتكا، ما دام هو نفسه لـم يعين لنفسه كهدف ان يمارس تأثيرا ما على تلك العلاقات .

في التحليل الاخير ، لا يمكن ان يكون انعتاق ميشوتكا مـن القوى العمياء للضرورة الاقتصادية الا من صنع ميشوتكا نفسه. وعليه ، ليس من عمل أخصب من عمل الرجال الذين سيأخذون على عاتقهم ان يشرحوا له ذلك .

تقول ان ظمأ الى المعرفة قد استيقظ في القرى . هـــذا صحيح كل الصحة ، ومبهج كل الابهاج . لكني لا ادري لمـــاذا تتكلم عن القرية **فقط** . ففي المدن ، وفي المراكز الصناعيـــة الكبرى ، يتجلى الظمأ النبيل الى المعرفة بمزيـــد من القوة . وهذه العناصر من السكان هي ، بحكم وضعها بالذات ، اكثـــر قابلية للتلقي والتعلم ، واليها يجب ان يكون التوجه في المقـــام الاول . [اضافة مستقاة من محفوظات بليخانوف : ان الماديين الاقتصاديين يبدؤون **في المدينة** ما اراد الشعبويون قبل عشرين عاما ان يبدؤوا به **في الريف**] .

انت ترى ، يا سيدي ، ان المادية الاقتصادية لا تحكم على أتباعها باللافعالية ، وان السكونية ليست والمادية الاقتصادية شيئا واحدا .

تكتب قائلا :

«ان الماركسية ،الراسخة الاقتناع بحتمية انتصار الرأسمالية في روسيا ، لملزمة ، مهما آلمها بؤس الشعب ومهما أحزنها وعي المصائب التي ستنجم عن ذلك الانتصار ، اقول : انها لملزمة مع ذلك بالتعجيل بالعملية حتى يتم بسرعة اكبر ادراك مرحلة الرأسمالية التي ستبتعث بعدها علاقات الانتاج نظاما اقتصاديا آخر يتطابق مع ما نسميه مقتضيات العدل والانصاف» .

لن أتوقف عند ابهام صيغة « نظام اقتصادي آخر يتطابق مع مقتضيات العدل والانصاف» . لكن ينبغي عليّ بالمقابل ان الفت نظرك الى انك تستخلص استنتاجا مغلوطا بعض الشيء مما يقوله الماديون الاقتصاديون بصدد ضرورة الانتصار النهائي للرأسمالية في روسيا .

لنفترض ان نمسويا ليبراليا عبر قبل زهاء خمسين عاما عن رأيه بأن سياسة مترنيخ الرجعية ستودي بنظام هذا الوزير بالذات الى التهلكة .

فهل ستقول لي بأنه لو كان ذلك النمسوي الليبرالي صاحب عقل متماسك المنطق وراسخ القناعة لكان عليه ان يجعل من نفسه عميل مترنيخ وأن يؤيد من كل قلبه جميع اجراءاته الرجعية ؟ لن تقول لي ذلك ، لانك تدرك حق الادراك ان صاحبنا النمسوي الليبرالي يستطيع ان يوظف طاقته وجهده على نحو

مغاير واخصب واجدى **في المجال الذي كان مترنيخ يهيئه بلا علمه .**

بيد انك تحاكم الامور غير هذه المحاكمة عندما تتحدث عن الماديين الاقتصاديين . فبما انه تناهى الى علمك ان الرأسمالية تهيء المجال في رأيهم لنظام اقتصادي يتطابق ومقتضيات العدل والانصاف ، نراك تؤكد وتجزم بأن خير ما يمكن ان يفعلوه هو ان يوظفوا طاقاتهم وجهودهم في سبيل اقامة الرأسمالية . ما مصدر هذا التفاوت في المعاملة ؟ لماذا لا يتطابق موقفك من الماديين الاقتصاديين مع «مقتضيات العدل والانصاف» ؟ لانك اذا كنت تفهم حسن الفهم ما يمكن لخصم نظام مترنيخ ان يوظف في سبيله طاقته وجهده ، فانك بالمقابل لا تدرك ما يستطيع ان يفعله رجال لا يذعرهم ولا يطيش بصوابهم ، وان كانوا اخصاما للرأسمالية ، منظور انتصارها الاكيد في روسيا .

انني آمل بأن ما قلته لك عن ضرورة تطوير وعي الذات لدى المنتجين ، وما تلا ذلك من ملاحظات ، سيبدد الى حد ما سوء التفاهم هذا الذي يدعو الى الاسف .

«التعجيل بالعملية» ... أجل ، ينبغي التعجيل بها ! لكن ثمة طرقا شتى للتعجيل بها . ان السيد اوبولنسكي ، على سبيل المثال ، يخطىء اذ يعتقد ان إفقار الشعب يمكن ان يعجل بتطور الرأسمالية (٢٤) . **فالإفقار ، بدل ان يعجل به ، سيبطئه** . اما تقدم وعي الذات لدى المنتج فلا جدال في انه يعجل به ، وهو امر تقدم عليه برهانا عمليا ساطعا حياة مجتمعات اوروبا الغربية . لكن تقدم وعي الذات هذا سيحسن في الوقت نفسه من وضع المنتج ، اي سيزيل ، الى حد ما على الاقل ، **بعض** الجوانب

---

٢٤ ـ اشارة الى مقال ليونيد اوبولنسكي: «انشقاق جديد في الانتلجانسيا عندنا» ، روسكايا ميسل ، ١٨٩٥ ، العددان ٨ ـ ٩ . «ن.س»

الضارة من الرأسمالية . وفي مقدورنا القول بشيء من التحفظ ان وضع المنتج يتحسن طردا مع تطور وعي الذات لديه. ويترتب على ذلك انه في مستطاع المرء ان يعجل بانطلاقة الرأسمالية من دون ان يكف لحظة واحدة عن الاخذ بناصر المنتج . وهذا ، على ما يخيل الي ، ما لا يفهمه السيد اوبولنسكي .

لا يعتقد الماديون الاقتصاديون في الوقت الراهن بامكانية تدخل واعٍ من قبل الدولة في الاقتصاد الروسي ، تدخل يكون هدفه تحقيق «مقتضيات العدل والانصاف» . وهذا امر يكربك على ما هو ظاهر للعيان ، لكن اسمح لي بأن أطرح عليك سؤالا : هل تعتقد حقا بأن ذلك ممكن ؟ أو َنسيت ان كل شيء رهن بظروف الزمان والمكان ؟ انت تقول ان الرجال الذين يدافعون عن العدل والانصاف «ملزمون بالنضال ، في حدود طاقاتهم ، لانقاذ كل كائن حي ، وللحؤول دون سلخ الفلاح عن الارض» ، الخ . هذا كلام جميل ، لكن نضال **كل واحد من جانبه** لانقاذ «الكائنات الانسانية» يعني بكل بساطة ممارسة الاحسان وحب الخير . وأنا لا اقول ذلك مستهجنا : فالاحسان وحب الخير شيء مفيد. لكننا لا نتكلم ، لا انت ولا انا ، عن الاحسان وحب الخير .

انه لمن المستحسن «النضال» للحؤول دون سلخ الفلاح عن الارض . لكن ذلك ليس مستحسنا الا في ظروف زمانية ومكانية محددة ، كما سبق لتشيرنيشفسكي انشرح لك ذلك . ففي نقاشه مع الاستاذ فرنادسكي (٢٥) ، دافع هذا الكاتب بقوة وبراعة عن الامتلاك المشاعي للارض . واليوم ايضا يدافع أنصار

---

٢٥ ـ ايفان فرنادسكي : اقتصادي بورجوازي روسي كان قد دار جدال بينه وبين تشيرنيشفسكي حول المشاعة القروية في مجلة «الفهرس الاقتصادي» التي كان يرأس تحريرها (١٨٥٧ ـ ١٨٦١) . «ن.س»

الركائز القديمة عن المير (٢٦) ، ويبدون هم ايضا استعدادا للدخول في مناقشة بكل ما اوتوا من قوة وطاقة مع أخصام المشاعة القروية . ومن هنا ينبع الاستنتاج بأن الانصار المحدثين لـ «الركائز» يأخذون بوجهة نظر تشيرنيشفسكي ، على الاقل فيما يتعلق بالمشاعة . وفي هذا تسرع ، بل تهور . فبين تشيرنيشفسكي وتلامذته المحدثين المزعومين فارق هائل يتمثل في ان هؤلاء يرون بروح **دوغمائية** ما كان تشيرنيشفسكي يراه بروح **نقدية** . وبعبارة اخرى ، بينما كان تشيرنيشفسكي يدافع عن المشاعة القروية **طارحا بعض الشروط** التي تفقد هذه المشاعة بدونها كل معنى في نظره ، يبشر تلامذته المحدثون المزعومون بالمير «في الاحوال جميعا» ، ويبدون استعدادهم للدفاع عنها تجاه الجميع وضد الجميع ، وان طرأ تغير شامل على الشروط الخارجية والداخلية لوجودها . لهذا اقول انه حتى اذا لبث اولئك الاشخاص على وفائهم **لحرف** تعاليم تشيرنيشفسكي ، فليس لاحد ان يماري في انهم قد تناسوا **روحها** تماما .

لكنهم في الواقع لم يستوعبوا حتى **حرفها** ، وما يقولونه ليس بتاتا ما كان يقوله تشيرنيشفسكي .

انك ما تزال تذكر ، يا سيدي ، **«نقد الآراء المسبقة الفلسفية المناوئة لامتلاك الارض مشاعيا»** . ويجري عادة تأويل هذا المقال المشهور على انه مرافعة في صالح المشاعة القروية . وهذا خطأ جسيم . فما يدافع عنه مؤلف المقال ليس بحال من الاحوال المير الروسية ، وانما الملكية الجماعية بوجه عام ، دحضا لرأي الاقتصاديين الليبراليين الذين كان يمقتهم والذين كانوا يزعمون ان الحضارة تتنافى والملكية الجماعية . يقول تشيرنيشفسكي : لقد كانت خطوة الحضارة الاولى نفي تلك

---

٢٦ ــ المير : المشاعة القروية الروسية . «م»

الملكية ؛ وستكون الثانيةنفي النفي ، اي العودة الى الجماعية .
ويوضح بالمناسبة ان مدة المرحلة الثانية ، مرحلة انتصار الملكية الفردية ، قابلة **في ظروف معينة وفي حال توفر عدد من الشروط لدى الشعوب الاكثر تقدما ، لان تختصر الى الصفر ،** اي انه من الممكن الانتقال دفعة واحدة من الملكية الجماعية البدائية الى الشكل الاعلى للجماعية .

لن اتساءل هنا ان كان لا ينبغي اضافة بعض تصحيحات الى هذه الفكرة القائلة بامكانية وضع مرحلة تاريخية بكاملها بين قوسين . سأتساءل فقط : هل المير الروسية هي بيت القصيد في ذلك المقال ؟ وجوابي هو : كلا . فالمقال يشير الى مناقشة بصدد المير ، لكنه لا يتناولها بالمعالجة ، كما لا ترجع اليها الافكار الواردة فيه عن امكانية تجنب مرحلة الملكية الفردية .

أتريد أدلة ، يا سيدي ؟ هاكها . يقول المؤلف في المدخل:

«اني لأخجل حين أتذكر الثقة السابقة لاوانها بالنفس التي أثرت بها مسألة الامتلاك المشاعي . لقد اظهرت طيشا وتبالهت ـ اقول ذلك بصراحة ـ في نظر نفسي ... ومن العسير توضيح سبب ذلك ، لكني سأحاول ان أفعل ما وسعني جهدي .

مهما تكن مهمة في نظري مسألة الابقاء على الامتلاك المشاعي ، فانها لا تشكل سوى مظهر واحد من مظاهر المشكلة . فهذا المبدأ ، على ما يمثله من ضمانة عليا لرغد العيش بالنسبة الى اولئك الذين يستفيدون منه ، ليس له من معنى الا اذا توفرت ايضا ضمانات اخرى من مستوى ادنى ضرورية لاطلاق العنان له كي يفعل فعله . وترتد هذ الضمانات الى شرطين . اولا: ينبغي ان يعود الريع الى اولئك الذين يشاركون في

الامتلاك المشاعي . لكن هذا غير كافٍ . بل ينبغي ان نلحظ ايضا ان الريع لا يستأهل حقا اسمه الا اذا كان المنتفع غير مثقل الكاهل بديون مرتبطة بامتلاكه ... واذا لم تتح لشخص من الاشخاص فرصة الانتفاع من ريع متحلل من كل التزام ، فالمفروض في هذه الحال الا يكون المبلغ الواجب دفعه سدادا للديون باهظـا بالقياس الى الريع ... وانما على اساس هذا الشرط الثاني يستطيع اولئك الذين يهتمون برغد عيشه ان يتمنوا له ريعا » .

لكن لم يجر التقيد بهذا الشرط عند عتق الفلاحين (٢٧) . ولهذا يرى المؤلف ان لا جدوى لا من الدفاع عن الامتلاك المشاعي للارض ولا من توزيع الاراضي على الفلاحين . واذا بقي أثر من شك بصدد هذه النقطة ، فان في المثال التالي اليقين القاطع .

يقول تشيرنيشفسكي معتمدا أسلوب المثل الرمزي الذي هو طريقته المفضلة في الشرح والتوضيح :

«لنفترض ان مصلحتي اوجبت عليّ ان أتخـذ اجراءات للحفاظ على المؤن المعدة للاستعمال في وجبات طعامك . بديهي انني اذا فعلت ذلك بحكم مودتي لك، فان الاساس الذي يقوم عليه اخلاصي وغيرتي هو الافتراض بأن المؤن تخصك وان وجبة الطعام التي تدخل في تركيبها صحية ومفيدة لك . لكن تخيل ما سيساورني من مشاعر اذا ما علمت ان

---

٢٧ ـ اشارة الى اصلاح ١٨٦٠ الزراعي القيصري الذي اعتق الفلاحين من القنانة وكبلهم بالديون في آن معا . «م»

المؤن لا تخصك ، وانه مقابل كل وجبة جرى اعدادها منها طلب منك مبلغ يفوق قيمة الوجبة نفسها ولا يسعك تسديده الا بلأي وعسر . ما الافكار التي ستدور في ذهني بعد هذه الاكتشافات الغريبة ؟...
«ما كان أغباني اذ جشمت نفسي مشقة الحفاظ على ملك احدهم من غير ان اتأكد سلفا من انه سيبقى بين يديه ، ومن انه سيبقى بين يديه بشروط مؤاتية له ؟» «الى الشيطان بكل تلك المؤن التي لا تعود الا بالاذى على الرجل الذي أحب ! الى الشيطان بكل تلك القضية التي لا تعود عليك الا بالضرر !» .

ويكتب تشيرنيشفسكي في واحد آخر من مؤلفاته (٢٨) :

«لو وضعت قضية التحرر الفلاحي من جديد بين يدي حزب كبار الملاكين ، لما كان الفرق بكبير» .

وردا على الاعتراض الزاعم ان الفرق سيكون هائلا ، لان حزب كبار الملاكين يعارض توزيع الاراضي على الفلاحين ، يجيب جازما :

«كلا ، لن يكون هائلا ، بل زهيدا . كان سيكون هائلا لو استلم الفلاحون الارض من دون ان يتوجب عليهم افتداء انفسهم . ان ثمة فرقا بين ان تأخذ شيئا من انسان وبين ان تتركه له . لكن لا يعود ثمة

---

٢٨ — في روايته «تمهيد» . «ن.س»

من فرق حالما تلزمه بدفع ثمنه . وخطة حزب كبار الملاكين لا تتميز عن خطة حزب التقدميين (٢٩) الا من حيث انها اكثر بساطة واختصارا . وعليه ، فانها حتى لأفضل . **وتترتب عليها في أرجح الظن مشاكل أقل بالنسبة الى الفلاح** (*) . فالفلاح الذي لديه مال سيشتري ارضا ، اما من ليس لديه مال ، فلا جدوى من ارغامه على شراء ارض : **ففي ذلك لن يكون الا خرابه** (*). والافتداء والشراء شيء واحد. والافضل والحق يقال ، ان يعتق الفلاح من دون منحه ارضا.. ان المسألة مطروحة على نحو لا ارى اي مبرر معه للتحمس ، حتى بصدد النقطة المتعلقة بمعرفة هل سيعتق الفلاحون او لا ، وكم بالاحرى بصدد النقطة المتعلقة بمعرفة اي الحزبين سيعتقهم : أحزب الليبيراليين ام حزب كبار الملاكين . فالحزبان في رأيي يتعادلان . بل ان حزب كبار الملاكين لأفضل» .

فضلا عن ذلك ، وفي الكتاب ذاته ايضا ، يبدي المؤلف الملاحظة التالية :

«يتكلمون عن عتق الفلاحين ، لكن اين هي الوسائل لتحقيق هذه العملية ؟ انها غير متوفرة بعد. وانه لمن العبث الشروع بعملية ما قبل ان تتوفر

---

٢٩ ـ الاسم الذي كان يطلق على الحزب الليبيرالي البورجوازي في روسيا . «م»

(*) التسويد مني انا ـ ج.ب .

الوسائل لتحقيقها . والحال ، إلامَ نحن ماضون ؟ تحرير الفلاحين سيتم على كل حال . احكم بنفسك على النتيجة . ماذا سيحدث حين يشرع المرء بشيء لا يستطيع انجازه ؟ ان مغبة ذلك ستنعكس على العمل بالذات . سننتهي الى شيء فظيع . آه ، آه ، ايها السادة المحررون ! آه ، يا احزاب ريازانتسيف وشركاءهم ! آه ، ايها المتبجحون ، المهذارون ، البلهاء ...» .

اعتقد ، يا سيدي ، ان هذه الشواهد تؤكد بما فيه الكفاية صحة ما قلته عن افكار تشيرنيشفسكي حول المشاعة القروية الروسية . لقد دافع عنها في البداية . ثم ادرك بعد ذلك ان الشروط التي تجعل الامتلاك المشاعي للارض (ناهيك عن توزيع الاراضي على الفلاحين) نافعا للشعب غير متوفرة . وعندئذ أحس بـ «الخجل» من الثقة السابقة لأوانها بالنفس التي كان قد دافع بها عن المشاعة («الى الشيطان ...» ، الخ) .

ان تلامذته المحدثين المزعومين لا يحاكمون الامور نفس المحاكمة . فهم يتمسكون بالمير ، ويتناسون الشروط التي إن لم تتوفر فان الامتلاك المشاعي للارض يمكن ان يغدو وسيغدو بالفعل **شرا** بالنسبة الى الشعب . لقد حولوا الى **عقيدة جامدة ميتة** ما كان تشيرنيشفسكي ينظر اليه من وجهة نظر **نقدية** .

اعلم انني سأتهم بالظلم وعدم الانصاف . وسيقول لي القائلون : الا متى تناسى المدافعون عن المشاعة القروية الشروط اللازمة لتكون نافعة بالنسبة الى الشعب ؟ هل امسك الشعبويون يوما عن ترجيع القول مرارا وتكرارا بأنه من الواجب فعل كذا وكيت من اجل تدعيم «الركائز» ، حتى يتاح لها الازدهار ؟

لقد تخيل السادة الشعبويون ، بالفعل ، عددا كبيرا من المشاريع للحفاظ على تلك الركائز ولتحسينها . لكن سبق ايضا،

يوم نشر **«نقد الآراء المسبقة الفلسفية»**، ان تخيل المتخيلون عددا كبيرا من المشاريع من اجل خير الشعب . بيد ان كاتب ذلك المقال ، كما رأينا للتو ، ما كان يستسلم لاغراء الاكتفاء بمحض وجود مشاريع جميلة . بل كان يتساءل ، وهو الناقد الصارم الساخر : **اين الوسائل التي تسمح بتحقيق تلك المشاريع** ؟ وحين لاحظ ان تلك الوسائل لا وجود لها ، وان المشاريع **الجميلة** مقيض لها ان تبقى مجرد **مشاريع** ، ارتأى انه من المخجل تبديد الحبر في مناقشتها ، ونعت بالتبجح والهذر والبلاهة الاشخاص الذين يضيعون في تلك المناقشة وقتهم . هل يفعل أنصار «الركائز» الشيء نفسه اليوم ؟ كلا . فموقفهم مغاير تماما . الجُمَل في نظرهم هي كل شيء . انهم لا يتساءلون اين الوسائل التي تسمح بوضع المشاريع الجميلة موضع التطبيق . بل استسلموا لعدوى ذلك الولع العقيم بالاحلام الذي أدانه تشيرنيشفسكي مرّ الادانة والذي سخرت منه لاذع السخرية احيانا سفيستوك (٣٠) الشهيرة .

لقد صب مؤخرا السيد غلينسكي حمم غضبه في «استوريتشسكي فستنيك» (٣١) على الماديين الاقتصاديين الذين اتهمهم بأنهم لا يكنّون الاحترام لـ «ديموقراطيي ١٨٦٠» . وسأسمح لنفسي بأن ألفت نظر السيد غلينسكي الى انه يتلاعب

---

٣٠ ـ سفيستوك (الصفارة) : القسم الهجائي من صحيفة «سوفريمينيك» (المعاصر) التي لعب فيها دوبروليوبوف دورا رئيسيا . وكانت «سفيستوك» تسخرسخرية لاذعة من تفاؤل الليبيراليين العقيم ومن عجزهم عن النضال الفعال . «ن.س»

٣١ ـ المقصود هنا مقال بوريس غلينسكي «الشبيبة وقادتها» المنشور عام ١٨٩٥ في العدد ١٢ من «استوريتشسكي فستنيك» («الرسول التاريخي»)، ص ٩٣١ ـ ٩٦٠ . «ن.س»

بالكلمات . ومن الممكن للماديين الاقتصاديين ان يجيبوه : كما ان هناك موجيك وموجيك ، كذلك ينبغي التمييز بين «ديموقراطيي ١٨٦٠» . فحين يقترب ديموقراطيو ١٨٦٠ في ميولهم وصبواتهم من مؤلّف الملاحظات عن ستيوارت ميل ، يساور الماديين الاقتصاديين تجاههم احترام عميق . لكنهم لا يستطيعون ان يكنّوا اي احترام لديموقراطيي ١٨٦٠ من «ذوي النفوس المرهفة» الذين كانوا يثيرون اشمئزاز تشيرنيشفسكي ومعاونيه .

ان الماديين الاقتصاديين هم ، نظير تشيرنيشفسكي اعداء للنزعة الفردية . وهم موقنون بأن الحضارة سترتدي في طورها الاعلى شكل الملكية المميز لطورها الاول . لكنهم لا يرون في ذلك سببا كافيا للدفاع عن **الامتلاك المشاعي للارض كما هو موجود حاليا لدينا** . فهذا الامتلاك لا يجدي الشعب فتيلا اليوم اذ لا تتوفر الشروط (ولم تتوفر قط على ما يبدو) القمينة بأن تجعله مفيدا (*) ، كما لا تتوفر الوسائل القمينة بأن تخلق تلك الشروط . ان الماديين الاقتصاديين يعاملون بقسوة بالغة الحالمين الذين يتخيلون ان بمستطاعهم خلقها بمحاكمات عقلية سكولائية عن دور الفرد في التاريخ وعن المذهب الذاتي لكل عالم اجتماع مستقيم ، الخ ، وهناك من يدين القسوة التي يعامل بها الماديون الاقتصاديون اولئك الناس . لكن هل بوسعهم ان يسلكوا غير هذا المسلك ؟ لقد تعلموا لدى اساطين الفكر الروسي ، لدى دوبروليوبوف على سبيل المثال ، او لدى تشيرنيشفسكي ، ان يسخروا بلا شفقة من المتفائلين السذج . ولقد ترسخت هذه العادة فيهم وتأصلت جذورا بحيث لم يعد غير الموت قادرا على شفائهم منها . لكن أهي حقا عادة تبعث على الاسف ؟

(*) انظر بهذا الخصوص فولفين (اسم مستعار لبليخانوف) : «تفسير الشعبوية في نتاج السيد فورونتسوف» .

انه ليخطىء خطأ فادحا ــ هذا اذا لم يشوه الحقيقة تشويها فظيعا ــ من يزعم ان الماديين الاقتصاديين يستخفون بمصلحة الشعب الاقتصادية . فهم أبعد ما يكون عن الاستخفاف بمصلحة الشعب هذه ، لكنهم مقتنعون عميق الاقتناع بأن اساليب «النضال» في سبيل خير الشعب التي يبشر بها أنصار «الركائز» القديمة لا يمكن أن تعود بأي خير على هذا الشعب من اي منظور كان . **ومن هذا المنظور** ، فان هوة لا قرار لها تفصل الشعبويين عن الماديين الاقتصاديين . ولا يمكن تصور اي تقارب بينهم .

اما فيما يتعلق بك انت ، يا سيدي ، فلا يبدو لي البتة انك تدخل في عداد اولئك الذين يدافعون عن «الركائز» في الاحوال جميعا . ويخيل الي انه يمكن للماديين الاقتصاديين ان يتفاهموا مع اشخاص من اتجاهك بصدد العديد من النقاط ، حتى وان تعذر عليهم التفاهم بصدد النقاط كافة .

قليل من التاريخ (١)

يدرج العديد من القراء الروس ـ نحن على يقين من ذلك ـ لاكومب في عداد اولئك الذين يطلق عليهم (خطـأ) اسم الماديين الاقتصاديين . واذا شئتم ، فمن الممكن القول انه واحد منهم ، ولكن من نوع خاص للغاية . فأفكاره لا تشبه من قريب او بعيد افكار الاشخاص الذين ندين لهم بالنظريـة المسماة بالماديـة الاقتصادية (بتعبير أدق : الجدلية) . ولذا نحرص على الكلام عن مؤلّفه .

يفرد المؤلّف مكانا واسعا في كتابه لتأملات حول طبيعـة

---

١ ـ نشر مقال بليخانوف هذا عن كتاب بول لاكومب «عن التاريخ بوصفه علما» في صحيفة «سامارسكي فستنيك» («رسول سامارا») في العددين ٨ (١١ كانون الثاني) و١٠ (١٤ كانون الثاني) من عام ١٨٩٧ تحت اسم مستعار هو ب. بوتشاروف . «ن.س»

الانسان، «الانسان العام». وفي رأيه ، تقدم «الطبيعةالانسانية» مفتاح الظاهرات الاجتماعية . ومن منظور الطبيعة الانسانية هذا ، يستنتج لاكومب بتلاحم منطق ان **السيكولوجيا** يمكن ان تقدم لعالم الاجتماع خدمات اكبر بكثير من تلك التي تقدمها **ألبيولوجيا** . ففي علم النفس ، لا في علم الأحياء ، يكمن في تقدير لاكومب تفسير التاريخ . وعن طريق تحليل الطبيعة الانسانية ، يعزل مختلف الحاجات الخاصة بالانسان : حاجات المأكل والملبس والمسكن ، الحاجة الجنسية ، الحاجة الى حب القريب والى كرهه في آن معا ، الحاجة الى انتزاع استحسان هذا القريب ، واخيرا الحاجة الفنية والحاجة العلمية .

ويقيم لاكومب ضربا من التسلسل الهرمي بين هذه الحاجات:

> «من يبغِ ان يتكهن بالدور التاريخي لحاجة من الحاجات ، يتوجب عليه اولا ان يرجع الى درجة الحاحها» (ص ٤٧) .

ان حاجات المأكل والملبس والمسكن هي ألحّ الحاجات جميعا. صحيح ان لاكومب يشير الى ان حاجة التنفس هي أشد الحاحا ايضا ، لكن الهواء موجود بوفرة وما على المرء الا ان يفتح فاه حتى يلبي حاجته منه . وعليه ، مهما تكن هذه الحاجة على قدر عظيم من الاهمية ، فلا يسعها ان تمارس تأثيرا على تطور المجتمعات الانسانية . ويدرج لاكومب «**هذه الحاجات الجسمانية والنشاط** الذي يتولى سدها» في شتى أشكاله في «فئة» خاصة يصفها بأنها «اقتصادية» . ويعد هذه الفئة الفئة المسيطرة على سائر النشاطات الاخرى في التاريخ :

> «سنقول الان ان هذا الجانب الاقتصادي ، بحكم تكوين الجسم الانساني ، يسبق لدى الانسان الفرد

النشاطات الاخرى ؛ ويسيطر عليها لا في زمن من أزمان الحياة ، بل في الازمان جميعا وفي الايام كافة » .

وانما بعد ان ينجز الحافز الاقتصادي عمله ، يأتي دور الحاجات الاخرى التي يتاح لها المزيد من الوقت والقوى لتلبيتها بتناسب عكسي مع ما ينفق من وقت وقوى على النشاط الاقتصادي (ص ٤٨) . ولأن الحافز الاقتصادي هو الاقوى، تكون له الغلبة في كل زمان ومكان على الحوافز الاخرى اذا ما نشب نزاع . وعليه ، يرتئي لاكومب ان من حقه ان يبني «الفرضيات» التالية :

«١ ــ ان على المجتمعات ان تدرك درجة معينة من الغنى قبل ان يتاح لها تحقيق قدر من التطور الفكري . ٢ ــ ان التقدم الاقتصادي يغير قسرا باقي الحالة الاجتماعية . ٣ ــ ان التقدم غير الاقتصادي مقبول فقط ضمن حدود المصالح الاقتصادية» (ص٥٧٠) .

تلك هي كل مادية لاكومب الاقتصادية . ولا يسع المرء الا ان يعلن موافقته على «الفرضيات» التي يتقدم بها هذا المؤلف ، وان تكن صياغتها ، وبخاصة الثانية والثالثة منها ، غير مرضية . كذلك لا مناص لنا من الاقرار بأن لاكومب ، في الامثلة التي يسوقها تأييدا لافكاره ، يبدي في كثير من الاحيان ملاحظات سديدة ونبيهة . وعليه، سيستفيد من مطالعة كتابه جميع اولئك الذين يحلو لهم ان يتأملوا في الحياة الاجتماعية بروح من الجد والرصانة والذين أسأمتهم « السوسيولوجيات » الروسية المتسيبة . لكن لا يجوز ان ننسى انه لا يوجد لدى لاكومب سوى

بضعة مقاطع موفقة ، وأن «ماديته» لا تصمد لادنى تناول نقدي.

ليست وجهة نظر «الطبيعة الانسانية» بجديدة في علم المجتمعات . فقد سبق ان قال بها ارسطو الذي حاول ان يثبت، كما هو معروف ، ان العبودية **تتجاوب** من جميع النواحي مع طبيعة الناس الذين يحملون نيرها .

كذلك قال بها في فرنسا في القرن الثامن عشر **الفلاسفة** الذين كانوا يرددون بلا كلل ان العبودية **تعاكس** تماما الطبيعة الانسانية التي تتطلب **الحرية** .

وبوسعنا ان نوالي التعداد . كان اوغست كونت ، على سبيل المثال ، يؤمن جازما بأن تبعية المرأة هي النتيجة اللازمة والمحتومة لطبيعتها (*) . وكان اوغست كونت هذا عينه يربط قانونه الشهير عن الحالات الثلاث (٢) (المقتبس عن سان سيمون) بالمبدأ نفسه ، اي بالطبيعة الانسانية (**) .

(*) راجع «رسائل اوغست كونت الى جون ستيوارت ميل» ، باريس ١٨٧٧ ، رسالتا ١٦ تموز و١٥ تشرين الاول ١٨٤٣ .

٢ ـ كان اوغست كونت، مؤسس الوضعية، يؤكد انه يقف في اساس حياة المجتمع تطور فكري يمر بمراحل ثلاث مختلفة : لاهوتية وميتافيزيائية ووضعية. ومن وجهة نظر اوغست كونت ، فان المرحلة العلمية الاصيلة هي المرحلة الوضعية التي تأتي لتتوج نظام كونت نفسه . وتتطابق هذه المرحلة مع هيمنة العلاقات البورجوازية . ويقول انجلز ان كونت استعار من سان سيمون جميع افكاره المبتكرة ، لكنه شوهها اذ صنفها وكيّفها على طريقته الخاصة ؛ فبسلخه اياها عن المذهب الصوفي الذي كان يميزها قضى عليها بالابتذال وبالانحطاط الى مستواه كدعي غير مستنير . «ن.س»

(**) راجع «دروس في الفلسفة الوضعية»، طبعة١٨٦٩ ، م١ ، ص٨-٩ ، و م٣ ، ص ١٩٣ . وبصدد الطبيعة الانسانية راجع ايضا في م٤ الصفحات٣٨٤ ، ٣٨٥ ، ٣٨٧ ، الخ .

وبوجه العموم لم يظهر حتى عام ١٨٤٠ مؤلفون عالجوا المشكلات الاجتماعية من دون ان يتذرعوا بشكل او بآخر بالطبيعة الانسانية . ويخطىء لاكومب خطأ فادحا اذ يعتقد ان انصار النظرية المسماة بنظرية الروح القومي قد ابتعدوا عن وجهة نظر الطبيعة الانسانية. فهم بدورهم يضعون انفسهم في هذا المنظور، لكن بعد ان يسبغوا عليه ظاهرا من الجدة : فطبيعة «الانسان العام» تغدو لديهم طبيعة الروماني ، الاغريقي ، الجرماني ، السلافي ، الخ . وكل واحدة من هذه «الطبيعات» تقوم مقام الصيغة السحرية او التعويذة التي تحل جميع اشكالات التاريخ.

يصيب لاكومب اذن كبد الحقيقة حين يقول ان نظرية الروح العومي تفتقر الى اساس . لكن نظرية «الانسان العام» ، **الذي** يثمِّن طبيعته تثمينا عاليا ، تفتقر هي الاخرى الى اساس . وبالفعل ، ان الامر واحد من اثنين: فإما ان هذه الطبيعة لا تتغير، ومن المستغرب في هذه الحال التعلل بها عند دراسة التطور الاجتماعي ، مثلما هو مستغرب تفسير التحولات الطارئة على **متغيرة** بخواص **ثابتة** من الثوابت ؛ وإما ان الطبيعة الانسانية تتغير هي الاخرى ، وعلى علماء الاجتماع في هذه الحال ان يكتشفوا الإسباب التي تتسبب في هذه التغيرات . صحيح انه يمكن ، حتى في هذه الحال ، التعلل بالطبيعة الانسانية ، على اساس الافتراض بأن خاصيتها هي التغير . لكننا نكون بذلك قد حبسنا انفسنا في حلقة مفرغة ، وتملصنا بواسطة **جُمَل** مما يقتضي **تفسيرا علميا** . وتلك هي الحلقة المفرغة التي حبس العديد من علماء الاجتماع انفسهم فيها ، وأخص بالذكر منهم اوغست كونت ، ذلك العدو لـ «الميتافيزياء» الذي انزل «الطبيعة الانسانية» منزلة الكيان الميتافيزيائي الاصيل . ولكن من العجب ان يرتضي رجال العلم اليوم الانحباس فيها ، ما دامت وسيلة الخروج منها قد وجدت منذ زمن ، وما دام مؤسسو **المادية**

الجدلية المعاصرة هم الذين وجدوها .

يقول الماديون الجدليون ان **«خواص»** الانسان التاريخي ، عاداته وميوله ، أفكاره ومثله العليا، مأثوراته ومكارهه، تتغير مع تطور المجتمع ، وان هذا التطور مرده الى اسباب تكمن لا في الانسان بل **خارجه** . فالعلاقات الاجتماعية لدى قبائل القناصة لا تشبه العلاقات الاجتماعية لدى قبائل الزراعين ؛ والعلاقات الاجتماعية لدى الشعوب التي تتعاطى الزراعة في ظل ما يمكن ان يسمى **بالاقتصاد الطبيعي** لا تشبه العلاقات الاجتماعية لدى الشعوب التي في سبيلها الى **«المرور بمدرسة الرأسمالية»** ؛ وهكذا دواليك .

حين يتبنى الناس نمطا انتاجيا جديدا ، لا يفعلون ذلك لان «طبيعة» جديدة ظهرت عندهم ، وانما لان سلطان الانسان الاجتماعي على الطبيعة المحيطة قد تعاظم ، ولان حالة **القوى الانتاجية** قد تبدلت . وعليه ، يمكن ويجب القول انه انما في تطور القوى الانتاجية ينبغي البحث في التحليل الاخير عن تفسير الصيرورة التاريخية للانسانية .

ان **الطبيعة** ذاتها هي التي تعطي الدفعة الاولى لتطور قوى الانتاج الاجتماعية : فنمو هذه القوى يتحدد الى حد كبير بخصائص **الوسط الجغرافي** . بيد ان علاقة الانسان بالوسط الجغرافي لا تبقى ثابتة غير متحولة : فكلما تطورت القوى الانتاجية، تبدلت بسرعة اكبر علاقة الانسان الاجتماعي بالطبيعة، وطوّع الانسان بسرعة اكبر الطبيعة **لسلطانه الذاتي** . زد على ذلك انه كلما تطورت القوى الانتاجية ، تتابع تقدمها بسرعة ومتزايدة اكبر : ففي انكلترا المعاصرة تتعاظم القوى الانتاجية بسرعة اكبر بما لا يقاس مما كانت تتعاظم به في اليونان القديمة، على سبيل المثال . وهذا المنطق الداخلي لتطور القوى الانتاجية هو المنطق الذي يخضع له في نهاية المطاف كل تطور المجتمع. وما خضوعه له الا لسبب بسيط ، وهو ان العلاقات الاجتماعية متى

اضحت غير مطابقة لحالة القوى الانتاجية الراهنة ، يغدو من المحتم تنحيتها وازالتها . ومن الامثلة على ذلك العبودية التي كفت عن الوجود ما ان دخلت في تناقض مع قوى المجتمع الإنتاجية ، وبعبارة اخرى وأبسط : ما ان صارت غير موائمة. وغني عن البيان ان ازالة المؤسسات والعلاقات البالية لا تتم من تلقاء نفسها ، حسب الفكرة المخالفة للعقل التي غالبا ما يعزوها خصوم المادية الجدلية اليها . فلا شيء يتم من تلقاء نفسه ، والماديون الجدليون يعرفون حق المعرفة هذه الحقيقة القديمة . وهم عمليا يتقيدون بها اكثر بكثير مما يتقيد بها العديد من المثاليين والعديد من الذاتيين وأصحاب النفوس المرهفة .

لكن ليست هذه هي المسألة في الوقت الحاضر . بل كنه المسألة ما يلي : ان العالِم الذي هجر وجهة نظر الطبيعة الانسانية لا يعود في مستطاعه ان يبحث في **السيكولوجيا** عن تفسير التاريخ ، مثلما لا يستطيع ان يبحث عنه في **البيولوجيا** . فوجهة النظر **السيكولوجية** هي حالة خاصة من حالات وجهة نظر **الطبيعة الانسانية** . صحيح ان العقل الواهي الحجة هو وحده الذي يمكن ان يماري في التأثير الذي تمارسه افكار الانسان على سلوكه . بيد ان لب المسألة هو معرفة المصدر الذي منه تأتي الافكار . والحال ان الماديين الجدليين يأتون لهذا السؤال بجواب أوضح بكثير من ذاك الذي يأتي به المثاليون والانتقائيون ممن لا حيلة لهم غير التعلل بالطبيعة الانسانية ، اي في التحليل الاخير إحياء النظرية القديمة عن الافكار الفطرية ، تلك النظرية التي دعت الحاجة ، منذ النصف الثاني من القرن الثامن عشر ، الى ادخال تصحيح عليها يعزو الى الانسان **ميلا فطريا** الى التطور الفكري في هذا الاتجاه لا في ذاك ، والى المرور اثناء تطوره بهذه المرحلة او تلك دون غيرها .

ان المادي «الاقتصادي» لاكومب لا يملك اي فكرة عن هذا

الموضوع . وهو يتشبث بالضبط بوجهة النظر التي نحتّها المادية الحديثة عن ميدان العلم . ان ماديته الاقتصادية تذكرنا الى حد بعيد بالمحاولات الاولى لتفسير التطور الاجتماعي ماديا ، بمحاولة هلفسيوس على سبيل المثال ، لكن مع الفارق التالي المتمثل في ان هلفسيوس اعظم ذكاء بما لا يقاس ، وفي ان فائدة مؤلفاته لنا بالتالي ، حتى الى يومنا هذا ، اعظم بكثير من فائدة كتاب لاكومب الصغير .

بديهي ان **الفلاسفة** الذين كانوا يتمسكون بوجهة نظر الطبيعة الانسانية بحثوا عن التنظيم الامثل للعلاقات الاجتماعية ، بحيث يأتي متجاوبا مع هذه الطبيعة أكثر من كل تنظيم آخر . وبعبارة احرى ، لقد اضحى كل واحد منهم **طوباويا** بالضرورة . ولا يترتب على ذلك انهم جميعا كانوا مجددين ؛ بل على العكس ، فقد كان الكثيرون منهم محافظين متزمتين ، وكان بعضهم رجعيا خالصا . لكن كل واحد منهم كان ينظر الى النظام الاجتماعي الذي يرتئي انه هو الامثل بمثل ما كان ينظر به الطوباويون **الخلّص** الى مثلهم الاعلى : فقد كانوا جميعهم يقيسون التنظيم الاجتماعي بمقاس تصورهم عن الطبيعة الانسانية . ألا فلنتذكر تأملات اوغست كونت عن تبعية المرأة .

ان السعي الى اكتشاف تنظيم أمثل للمجتمع ، متجاوب أكمل تجاوب ممكن مع الطبيعة الانسانية ، يعني البحث عن تنظيم لن يكون في مستطاع الانسانية تجاوزه ابدا ، تنظيم سيكون في مقدور الناس ، بكل تأكيد ، ادخال تصحيحات طفيفة على علاقاتهم ضمن اطاره ، لكنه سيقف حائلا بينهم وبين اي محاولة لتغيير جوهره تحت طائلة الانحراف عن طبيعتهم . وعليه ، فان كل **طوباوي** يخفي في ذاته مقدارا لا بأس به ، على الاقل بالقوة ، من **النزعة المحافظة** ، وهذا ما اقام عليه كثرة من الادلة تاريخ المستعمرات الاشتراكية في اميركا . والحال ان هذه النزعة المحافظة لا يمكن البتة تصورها لدى الماديين الجدليين . فبموجب

نظريتهم ، يفترض في العلاقات الاجتماعية ان تتغير طردا مع تطور قوى الانتاج الاجتماعية . أهناك حد لهذا التطور ؟ البتة . لهذا ، فلا وجود لتنظيم مثالي لا تستطيع الانسانية تجاوزه . ان المادي الجدلي نصير لحركة دائبة ومتصلة . وهو وحده التقدمي بملء معنى الكلمة .

ولأن لاكومب ينطلق من وجهة نظر الطبيعة الانسانية ، يسفر هو الآخر القناع عن وجهه بصفته **طوباويا** محافظا . انه يقف عاجزا مطلق العجز عن أن يتصور امكانية قيام علاقات اقتصادية لا تشبه العلاقات الرأسمالية المعاصرة . وفناء النظام الرأسمالي يعني بالنسبة اليه فناء الحضارة . وهو يشاطر بصدد هذه النقطة الاقتصاديين المبتذلين جميع آرائهم المسبقة . وفي افكاره عن الاقتصاد لا يذهب الى أبعد مما يذهب اليه هؤلاء العلماء الموقرون .

للاقتناع بذلك حسبنا ان نقرأ ما يقوله عن أثر التناسل في نمى الشعوب (ص ٣٢٥ وما يليها من الترجمة الروسية) . وقليل هنا ان نتهمه بالخطأ ، لان هناك خطأ وخطأ . وفي هذا المقطع ينبغي ان نلحظ ان لاكومب لا يملك اي فكرة عن الموضوع الذي يعالجه . فهو يدلل فيه على عجز كعجز الطفل الذي ما يزال يرضع ثدي أمه ، وان كنا نلتقي لديه بين الفينة والفينة عناصر من افكار صائبة . يقول في الصفحة ٣٢٧ : «هناك نوعان من البؤس» . وهذا صحيح تماما : ففقر الانسان المتوحش مغاير تماما لفقر البروليتاري المعاصر ، وهو متأت عن اسباب مغايرة تماما . لكن ما ان يفصح لاكومب عن هذه الفكرة السديدة حتى يغرقها في شروح مسهبة ، تبعث بسذاجتها على الدهشة ، حول **اكتظاظ السكان** .

«المتوحش ، على ندرته ، فقير اذ تنقصه المعدات

التي تخلق الثروة ؛ والمتقاسمون هنا قلائل ، لكن لا يوجد بعد شيء ليُتقاسم . اما لـــدى المتمدينين المتقادم عليهم الزمن ، فالمعدات موفورة والمنتجـات كثيرة ؛ لكن تعداد الضيوف كبير » (ص ٣٣٠) .

من هنا يتأتى فقر الامم المتمدينة . لكـن لنفترض بـأن «المتمدينين المتقادم عليهم الزمن» يمتلكـون مؤسسات تسبر حاجات السكان قاطبة ، وتنظم الانتاج وفق هـذه الحاجات ، وتوزع في نهاية المطاف المنتجات طبقا لهذه الحاجات . فاذا مـا سارت الامور على هذا المنوال ، واذا ما بقي الفقر ، بالرغم من هذا التنظيم للانتاج ، علامة مميزة لـ «المتمدينين المتقادم عليهم الزمن» ، كان من ملء حقنا ان نعزو الظاهرة الى وجود «تعداد كبير من الضيوف» . لكن لن يعود من حقنا القول في هذه الحال بأن «هناك نوعين من البؤس» . اذ ستكون علته الوحيدة علـى هذا الاساس لدى الشعوب المتمدينـة كما لدى المتوحشين ، استحالة الانتاج بكمية وافية . والحال ان حاجات الفقراء فـي المجتمع الرأسمالي الحديث لا تؤثر على الانتاج الا بمقدار مـا يكون الفقير قادرا على ان **يدفع** في مقابل المنتجات اللازمة له : فمن لا يملك شيئا فلن يجد من «يتقاسم» واياه الا الانسان الذي يمن عليه **بالصدقة** . وبديهي ان ليس ذلك هو نوع القسمة الذي يرمي اليه المؤلف .

لنتابع محاكمتنا العقلية : بأي قدر تمثل الطبقة الدنيا مـن السكان ، في البلدان الرأسمالية ، طلبا «فعليا» ، اي **دافعا** ؟ بقدر ما تتوصل الى ان تبيع الرأسماليين قوة عملها: فاذا وجدت من يستأجرها توفرت لها وسائل المعاش ، وان تكن زهيدة للغاية بالطبع ؛ اما في الحالة المعاكسة فلن يجد الانسان ما يتبلغ به . لكن لأي غرض يشتري الرأسمالي قوة عمل البروليتاري ؟ لكـي يحقق ربحا من استخدامه في الانتاج . اما اذا كان الرأسمالي لا

يتأمل تحقيق هذا الربح ، فلن «يشغّل» ماله ، مهما تكن كبيرة قوى المجتمع الانتاجية **في حد ذاتها** . ينجم عن ذلك ان حدود الانتاج الاجتماعي في المجتمع الرأسمالي المعاصر تعينها امكانية **انفاق مربح للرأسمال** ، لا الحجم المطلق للقوى الانتاجية . لـذا يرجع الفقر في هذه المجتمعات ، بالفعل ، الى أسباب مغايـرة تماما لتلك التي تتحكم بالظاهرة عينها في فجر الحضارة : ففقر المتوحش يرجع اصله الى علاقات المتوحش بالطبيعة ، والـى السلطان الواهي الذي له عليها ، بينما ينجم فقر البروليتاري عن العلاقات في داخل المجتمع . واذا لم يفهم امرؤ ذلك ، فأولى به ألا يجازف بالاطناب في الكلام والتحليل عن اقتصاد المجتمعـات المتمدينة ؛ فهو في هذه الحال لن يكرر الا قديم الترهات .

بوسعنا ان نستنبط من «**التاريخ بوصفه علماً**» أمثلة اخرى تشهد على عدم كفاءة المؤلف التامة علـى الصعيد الاقتصادي . لكننا لا نرى ضرورة لذلك ، لان المثال الذي سقناه ينيرنا بما فيه الكفاية ، وسنكتفي بطرح سؤال على القارىء : هل يمكن لـمادي اقتصادي يكاد لا يفقه شيئا في الاقتصاد ان يفصح عن كثير من الآراء السديدة بخصوص تطور الانسانية التاريخي ؟ هذا ، في أرجح الظن ، احتمال بعيد .

اذا كانت قوانين التطور التاريخي للمجتمعات تمد جذورها في الطبيعة الانسانية ، فليس يسع الانسانية في هذه الحال ان تفلت من النير الذي تقيدها اليه هذه القوانين ، تماما مثلما لا يسعها أن تردف نفسها وراء نفسها . فسواء أعرفت بوجود تلك القوانين ام جهلت به ، فلا خيار لها سوى الانصياع لها فـي تطورها .

على هذا النحو نظر فلاسفة التاريخ الى قوانين التطـور الاجتماعي التي عملوا على صياغتها . فسان سيمون يشبـه الحالات الثلاث بعناية إلهية تقف ارادة الانسان ازاءها عاجزة .

اما الماديون الجدليون فينظرون غير هذه النظرة الى القوانين التي يستنبطونها . فهذه القوانين تمد جذورها ، في تصورهم ، لا في طبيعة الناس ، وانما في طبيعة العلاقات الاجتماعية التي يعقد بنو الانسان أواصرها في شتى مراحل تطور القوى الانتاجية .

كان الناس ، حتى يومنا هذا ، يعقدون اواصر هذه العلاقات على نحو غير واعٍ بالمرة ؛ وكان عقدها يأتي حصيلة **الضرورة** ، لا حصيلة نشاط انساني حر ، **اي عاقل ومتجه نحو غاية محددة** . لكن يكفي ان يفهم الناس سبب تبعيتهم لقواهم الانتاجية حتى يخضعوا هذه القوى لمشيئتهم ولعقلهم . والظاهرة التي تتكرر هنا سبق ان لاحظناها في علاقات الانسان بالطبيعة : فما دام الانسان يجهل القوى الطبيعية ، نراه يخضع لها خضوعا اعمى ؛ لكنه ما ان يتحقق من هويتها حتى تخضع هي له .

لا يجوز ان نحمل هذا الشرط على محمل الخفة : فما هي بالمهمة السهلة ان يفهم الانسان سبب تبعيته لقواه الانتاجية . بيد ان المهم مع ذلك هو ان حل المشكلة في الوقت الراهن ليس **ممكنا فحسب** ، بل هو بكل بساطة **محتوم** .

لننعم النظر ، على سبيل المثال ، في **الازمات** . فلعله ليس كمثلها شيء يفصح بأوضح صورة عن تبعية الانسان ازاء القوى العمياء للعلاقات الاقتصادية. لكن كلما برزت هذه التبعية للانظار بمزيد من الجلاء ، تكشف بمزيد من الوضوح سببها الراهن : **فوضى الانتاج** . والناس يعاينون هذه الفوضى ويخوضون غمار الكفاح . بعضهم يجاهد للتغلب عليها من دون ان يتخطى نطاق العلاقات القائمة ، ومن هنا ترى النور «النقابات الصناعية» ، وبعضهم الآخر يتوغل الى أبعد من ذلك ، فيفهم الواقع فهما اعمق ، ويجعل همه ووكده ازالة العلاقات القديمة ، حتى يخضع الاقتصاد اخضاعا تاما للارادة الانسانية المستنيرة بالعقل. هذه المعركة ، معركة النور والظلام ، معركة العقل والضرورة ، تخاض من الان ، بل انه لمن المستحيل ــ وهذا هو الشيء

الاساسي ـ الا تخاض . فلو عنّ ببال الناس ان ينكصوا اليوم عن خوضها ، لحالت بينهم وبين ذلك الضرورة الاقتصادية ذاتها: فقوة ضرباتها العديمة الشفقة لا تلبث ان توقظ سكان البلدان المتمدينة من سباتهم المفترض .

واضح اذن ان خضوع بني الانسان للقوانين الاجتماعية ، كما يتكلم عنه الماديون الجدليون ، يختلف جوهري الاختلاف عن الخضوع الذي كان يتكلم عنه المفكرون الذين اخذوا بوجهة نظر الطبيعة الانسانية. ويمكن القول ان بعضهم يضحك الجمعة ليبكي الاحد ، وان بعضهم الآخر يفعل العكس ، وذلك ما دام الاوائل يبدؤون بالحرية لينتهوا الى الضرورة ، بينما ينطلق الاواخر من الضرورة ليطلوا على الحرية . ومذهب هؤلاء الاخيرين ، ومذهبهم وحده ، مذهب المادية الجدلية ، هو الذي ينحي جانبا الجبرية .

ولأن لاكومب لا يملك اي فكرة عن المادية الجدلية الحديثة ، لا يخطر بباله البتة ان العقل الانساني يستطيع ان ينتصر على قوى الضرورة الاقتصادية العمياء ، وماديته «الاقتصادية» تتقلص ـ بتنا نعرف ذلك ـ الى ايمان بأن الحاجات الاقتصادية للانسانية تتكلم بصوت اعلى وبإلحاح أشد من سائر الحاجات الاخرى . لكن مهما بلغت درجة هذه الفكرة من السداد ، لا يترتب عليها ان بني الانسان مقضي عليهم ابد الدهر بأن يبقوا عبيد اقتصادهم الاجتماعي . فالتنظيم العقلاني ، التنظيم المخطط للانتاج الاجتماعي ، سيضمن تلبية «الحاجات الجسمانية» بمثل ما تتكفل الطبيعة بسد «حاجة التنفس» **كائنة ما كانت** العلاقات **الاجتماعية** . وبناء عليه ، ستكف الحاجات الجسمانية عن ان تلعب في العلاقات الانسانية الدور الهائل الذي تلعبه بلا ادنى ريب في الوقت الحاضر الذي ترتهن فيه تلبيتها بجملة من احتمالات متداخلة لا يخضع تفاعلها لأي نظام .

لكن لاكومب لا تعن له هذه الفكرة ببال . فالانتاج الرأسمالي

يحجب دونه الرؤية ، فيتراءى له ان «الحاجات الجسمانيـــة» للانسان المتمدين لا يمكن ان تجد تلبيتها الا في ظل نظام مـــن العلاقات الرأسمالية . وعليه ، ما الطبيعة الانسانية التي يضعها نصب عينيه الا **طبيعة النظام الرأسمالي في الواقع** . وبمـا ان هذه الطبيعة غير جميلة ، فان «انسان» لاكومب «العـــام» ليس جذابا بالمرة . والحق ان مادية هذا المؤلف «الاقتصادية» هي في بعض جوانبها **تشنيع على النوع الانساني** . ومن حسن الحـظ ان **هذه** المادية ما هي الا نتاج سوء فهم . اذ ان مردها وعلـــة وجودها تأخر تصورات المؤلف العلمية .

وبعد ، ان بعض الصفحات التي خطتها يراعة لاكومب قـد استرعت بلا ريب انتباه القراء الروس: ونخص بالذكر الصفحات التي تتحدث عن **دور «الاشخاص التاريخيين»** . فهذا الـــدور عظيم للغاية في تقدير لاكومب ، والمؤلف لا يقبل بتاتا بـــرأي المفكرين الذين يردون كل شيء الى فعل علل عامة . يقول :

> «ضعوا فريدريك على رأس البروسيين المقهورين في ايينا [٣] ، وانتزعوا منا نابليون ، فمن يصـــدق ان مجرى الامور سيبقى على حاله ؟ لن يكون فـــي عداد المصدقين عسكريون ، **قطعا**» (ص ٢٢) .

يرى لاكومب انهم يخطئون عظيم الخطأ ، اولئك الذيـــن يزعمون ان الرجال العظام يعبرون عن صبوات عصرهم : فالعديد من التغيرات في التاريخ تمت على أيدي الرجال العظام ، ولـــم

---

٣ – في ١٤ تشرين الاول ١٨٠٦ ، في مقاطعة الساكس البروسية منيت القوات البروسية بقيادة دوق برانشفيك بهزيمة ماحقة في صدامها مع القوات النابوليونية . وبعد بضعة ايام دخل الفرنسيون الى برلين . «م»

تقابل من محيطهم الا بعدم التفهم المطبق :

«لاقى محمد في باديء الامر عداء عاما وسافرا ممن حوله ؛ لكنه تمكن في نهاية المطاف من حمل الشعب على خوض غمار الحرب المقدسة التي ما كانت تخامره اية حمية لها في البداية» (ص ٢٤ ـ ٢٥) .

ويردف لاكومب قائلا :

«ان المؤسسات او الجمهور او البيئة ، وكلها سواء ، لها تأثير عظيم . لكننا نرى ان الاشخاص التاريخيين الذين يقودون المؤسسات ويتولون تشغيلها لهم ، بحكم طبعهم الخاص ، الحسن او الرديء ، وبحكم مواهبهم ، الكبيرة او الصغيرة ، لهم قسطهم من التأثير ، وان هذا التأثير لا يلتغي دوما ، ولا يبقى بالضرورة بلا مفعول» (ص ٢٢) .

ان الفرد يدخل في التاريخ عنصر مصادفة . وهذا سيعجب أيما اعجاب «رجالنا العظام» من كل حجم وشكل ، ممن يسخطهم مجرد التفكير بأنهم قد يكونون مجرد أدوات عادية في يد الصيرورة التاريخية . ان هؤلاء «الرجال العظام» يطيب لهم ان يخدموا التاريخ ، لكن بشرط ان يحس التاريخ (في شخص فلاسفته) بأنهم يخدمونه لانهم هم الذين يريدون ذلك ، وبشرط ان يعي انه ما كان لولاهم الا ليسوء مصيرا . ان «الرجال العظام» المذكورين يطلبون من التاريخ ان يحترمهم ، هذا اذا لم يطلبوا منه أن ينذر نفسه لهم . وما أشد تلهفهم الى استصواب رأي لاكومب والى معارضة «الهراطقة» به ، قائلين : «هوذا مادي اقتصادي ، لكنه أقل هوسا منكم !» . ومن سوء الحظ ان لاكومب ، في

هذه الحالة كما في الحالات الاخرى ، ليس سندا يوثق به . فحججه لا تقنع احدا ، ولكنها تثبت فقط ان هذا الرجل ، وان لم يكن غبيا ، يفتقد تماما الى اهلية التفكير **الفلسفي** .

من المحتمل جدا ان معركة ايينا كانت ستعرف نهاية اخرى او لم يتول نابليون امرة الفرنسيين . لكن من المرجح اكثر انها ما كانت ستنتهي كما انتهت لو لم يكن الجندي الفرنسي في عام ١٨٠٦ متفوقا على الجندي الفرنسي التابع للويس الخامس‌عشر. من جهة اولى ، يبدو ذلك وكأنه يقدم البرهان على ان كل شيء رهن بـ «الافراد» (الذين يشكلون على سبيل المثال الجيوش) . ولكننا نجد انفسنا ، من الجهة الثانية ، وقد ارتددنا على أعقابنا بصورة مباشرة نحو السؤال القديم : لماذا لا يشبه «الافراد» في عصر من العصور أفراد عصر آخر ؟ ولسنا بمستطعين حلا لهذه المسألة الا بتحليل العلاقات الاجتماعية المميزة لشتى العصور التاريخية (*) .

اما أن العديد من التغيرات في التاريخ قد انجزها الرجال العظام وسط عدم التفهم المطبق من قبل محيطهم ، فهذا صحيح ايضا . لكن الاعتراض لن يحرج غير المثاليين ، وفي عدادهم يدخل لاكومب رغما عن «ماديته الاقتصادية» . فلو كان التاريخ قابلا للتفسير بعلم النفس ، لما مارينا في أن الرجال العظام ، اولئك الذين ارتفعوا فوق وسطهم ، قد ادخلوا على هذا التاريخ عنصرهم الخاص الذي ما كان له وجود في وسطهم . لكن ليس

(*) غني عن البيان ان دور نابليون في معركة ايينا لا يشبه دور جندي فرنسي بسيط . لكن ما الاستنتاج الذي يمكن استخلاصه من ذلك ؟ ان وظيفة المخ في الجسم الانساني ليست كوظيفة اصابع الرجل ، ومن المؤكد انها اعظم اهاية . لكن ذلك لا يثبت ان وظيفة المخ تجد تفسيرها عن غير طريق القوانين العامة للفيزيولوجيا .

على هذا المنوال تسير الامور من وجهة نظر الماديين الجدليين . فهم يعنون اولا بخصائص الوسط الاجتماعي خصائص **العلاقات الاجتماعية** التي يعقد الناس اواصرها في كل مرحلة من تطـــور قواهم الانتاجية . ولا يأتي دور علم نفس البيئة الا في طــــور لاحق ، وكنتيجة لهذه العلاقات . وفي هذه الحال ، لا يترك عمل رجال التاريخ العظام «رسابة» غير قابلة للتفسير بخصائـــــص البيئة الاجتماعية ؛ فكل ما يفعله الرجل العظيم هو أنه يعكس في فكره تلك الخصائص على نحو افضل وأوضح . ولهذا يمكن ان يجد نفسه في تناقض مؤقت مع «الجمهور» الذي ينحاز ، على كل حال ، رويدا رويدا الى جانب «البطل» تحت تأثير العلاقات الاجتماعية ذاتها . لقد كان مؤلف **«نظام الحقوق المكتسبة»** (٤) يفهم وضع العمال الالمان خيرا من هؤلاء العمال انفسهم ، ولهذا حدث لهم ان صفّروا لواضع النظام المذكور . لكن خصائـــص البيئة والعلاقات الاقتصادية القائمة في المانيا اقنعت بسرعـــة طليعة العمال الالمان بأنه مصيب حقا ذلك الرجل الذي بـــدت اهدافه لهم في بادىء الامر جسورة متهورة . ذاك هو كل شيء، وهذه **«النتيجة النهائية»** لا تترك شيئا البتة يفلت من التحليل من وجهة نظر منطق العلاقات الاجتماعية .

اما من يعارض فعالية رجال التاريخ العظام بفعالية القوانين الاجتماعية فانه يشبه (حتى لو ارتدت هذه **المعارضة** كما لـــدى لاكومب شكل **طرح** (soustraction) بطل شتشدرين الذي كان يطرح على نفسه الاحراج التالي «اما القانون وإما أنا» ، والذي كان يطالب بحل لهذا الاحراج لا مواربة فيه .

على اننا ننصح القارىء بأن يقرأ بتمعن كتاب **«عن التاريـــخ بوصفه علما»** . صحيح ان مؤلفه متأخر كثيرا ، لكن الاعور ملك

---

٤ ــ فرديناند لاسال . «م»

في مملكة العميان . ولاكومب ينظر الى الامور على كل حال نظرة اكثر معقولية من نظرة العديد من «علماء اجتماع» روسيا .

ختاما ، وما دام السيد بافلنكوف (٥) قد قر عزمه على نشر كتابه، فقد كان يخلق به ان يدلل على مزيد من الصرامة بخصوص الترجمة : **فهي غير مرضية** .

---

٥ ـ ف. بافلنكوف : ناشر الطبعة الروسية لكتاب لاكومب . اما المترجم الى الروسية فكان ر. سيمنتكوفسكي . «م»

التصور المادي للتاريخ [1]

- ١ -

هي ذي الـ «**مقالات في التصور المادي للتاريخ**» بقلم انطونيو لابريولا ، الاستاذ بجامعة روما ، المنشورة في باريس عام ١٨٩٧

---

١ ـ نشر بليخانوف هذا المقال ، الذي كرسه لتحليل كتاب الفيلسوف الماركسي الايطالي انطونيو لابريولا ، «مقالات في التصور المادي للتاريخ» ، باسم مستعار هو ن. نامنسكي في العدد ١٢ لعام ١٨٩٧ من مجلة «نوفويه سلوفو» («الكلمة الجديدة») . وتحتفظ «دار بليخانوف» برسالة موجهة بالفرنسية من لابريولا الى بليخانوف (مؤرخة في ١٢ حزيران ١٨٩٧) يشكره فيها على تحليل كتابه وعلى ما لقيه منه من دعم انتظره عبثا من «الرفاق الالمان» . «ن.س»

مع مقدمة بقلم جورج سوريل (٢) .

لنعترف فنقول : لقد فتحنا بشيء من التخوف كتاب الاستاذ الايطالي ، اذ سبق ان لسعتنا كتابات بعض ابناء جلدته ، وعلى سبيل المثال أشيل لوريا ، وعلى الاخص **«النظرية الاقتصادية للبنيان السياسي»** بقلم هذا الاخير (٣) . وقد اقنعتنا الصفحات الاولى من الكتاب بخطئنا : فأنطونيو لابريولا ليس أشيل لوريا . وفي النهاية ، ساورتنا الرغبة في تلخيصه للقارىء الروسي . فلنأمل الا تأخذه علينا موجدة :

الكتاب غير الخاوي ندرة الندرات !

لقد نشر مؤلف لابريولا في ايطاليا اولا . وترجمته الفرنسية ثقيلة ، وفي بعض المواضع فاشلة لا اكثر ولا أقل ، ونحن نصدر هذا الحكم بيقين جازم وان لم يكن الاصل بين يدينا . بيد ان المؤلف الايطالي لا يمكن ان يكون مسؤولا عن مترجمه الفرنسي . على كل الاحوال ، تبقى افكار لابريولا مفهومة حتى في هذه الترجمة الباهظة الوطأة . فلننعم النظر اذن فيها بحد ذاتها .

ان السيد ن. كارييف(٤) ، المعروف بكثرة قراءاته وبتشويهه

---

٢ ـ جورج سوريل : عالم اجتماع فرنسي (١٨٤٧ ـ ١٩٢٢) ، اشتهر بمؤلفه «تأملات في العنف» ، ذو اتجاه نقابي ـ فوضوي . «م»

٣ ـ نشر هذا الكتاب الذي يشير اليه بليخانوف في تورينو عام ١٨٨٦ ، وترجم الى عدد من اللغات ، وقد حاول فيه لوريا ان يثبت ان جميع الظاهرات الثقافية والاجتماعية لها اصل اقتصادي مباشر . «ن.س»

٤ ـ نيقولاي ايفانوفيتش كارييف : مؤرخ ليبيرالي روسي (١٨٥٠-١٩٣١). «م»

الموفق لكل «أثر» يمت بصلة ما الى **التصور المادي** للتاريخ ، سيصنف فيأرجح الظن لابريولا تحتعنوان **«المادية الاقتصادية»**.

وهذا الاتهام لا يقوم على اساس . فلابريولا يتمسك بحزم وبشيء من المنطق بالتصور المادي للتاريخ ، لكنه لا يعتبر نفسه «ماديا اقتصاديا» ، بل يرى ان هذه التسمية تناسب مؤلفين من أمثال جيمس روجرز (٥) اكثر مما تناسبه هو ومن ينحو نحوه . وليس أصح من هذا الرأي ، وان قد يعسر فهم الامر دفعة واحدة .

اسألوا اي شعبوي او اي ذاتوي : ما المادي الاقتصادي ؟ فيجيبكم : انه انسان يعزو الى العامل الاقتصادي دورا غالبا في الحياة الاجتماعية . هكذا يفهم الشعبويون والذاتويون عندنا المادية الاقتصادية . ولا مناص لنا ، بالفعل ، من الاقرار بوجود اناس يعزون الى «العامل» الاقتصادي دورا غالبا في حياة المجتمعات البشرية .

لقد استشهد السيد ميخائيلوفسكي اكثر من مرة بلويس بلان (٦) الذي تحدث ، قبل المعلم المعروف (٧) للتلامذة الروس المعلومين بزمن طويل ، عن ذلك العامل . وتدق هنا عن فهمنا هذه النقطة : لماذا توقف ذلك العالم الاجتماعي الذاتي الشائب عند لويس بلان ؟ لقد كان يفترض فيه ان يعلم ، من المنظور الذي يعنينا هنا ، انه كان للويس بلان متقدمون كُثر ، وأن غيزو ومينييه وأوغستان تيري وتوكفيل قد أقروا بالدور الغالب لـ «العامل» الاقتصادي، على كل حال في تاريخ العصور الوسطى والازمنة الحديثة ، وأن جميع هؤلاء المؤرخين ينتمون على هذا

---

٥ ــ اقتصادي انكليزي (١٨٢٣ ــ ١٨٩٠) . «م»

٦ ــ مؤرخ وسياسي فرنسي (١٨١١ ــ ١٨٨٢) ، مناصر للافكار الاشتراكية، وعضو الحكومة المؤقتة في ثورة ١٨٤٨ . «م»

٧ ــ يقصد ماركس . «م»

الاساس الى المادية الاقتصادية . وفي ايامنا هذه ، اتضح ان جيمس روجرز ، المتقدم ذكره ، مادي اقتصادي راسخ اليقين هو الآخر في كتابه **«التأويل الاقتصادي للتاريخ»** ، لانه يقر بدوره بالاهمية الراجحة الكفة لـ «العامل» المذكور .

بديهي انه لا يجوز ان نستنتج من ذلك أن افكار روجرز الاجتماعية والسياسية تطابق افكار لويس بلان على سبيل المثال. فروجرز يأخذ بوجهة نظر الاقتصاد البورجوازي ، بينما كان لويس بلان من ممثلي الاشتراكية الطوباوية . ولو كان روجرز سئل عن رأيه في النظام الاقتصادي البورجوازي ، لكان اجاب بأن الاساس الذي يقوم عليه هذا النظام هو الخواص الاصلية للطبيعة الانسانية ، وبأن تاريخ ولادته ما هو ، لهذا السبب عينه ، الا تاريخ التصفية التدريجية للمعوقات التي كانت أخرت فيما سلف ظهور الخواص المذكورة ، بله جعلت هذا الظهور مستحيلا . اما لويس بلان فكان سيصرح ، على العكس ، ان الرأسمالية واحدة من العوائق التي عارض بها الجهل والعنف تأسيس نظام اقتصادي يطابق، اخيرا، طبيعة الانسان الحقيقية. وهذا ، كما نرى ، فارق جوهري . لكن أيهما اقرب الى الحقيقة؟ بصريح القول ، اننا نرى ان كلا المؤلفين قد نأى عنها . بيد اننا لا نستطيع ان نتبسط حول هذا الموضوع .

ان ما يهمنا شيء آخر . وسنرجو القارىء ان يلاحظ ان العامل الاقتصادي الراجح الكفة في الحياة الاجتماعية كان ، في نظر لويس بلان كما في نظر روجرز ، **تابعا** ، على حد تعبير علماء الرياضيات ، للطبيعة الانسانية ، وفي المقام الاول للعقل وللعلم الانسانيين . وهذا ما ينبغي ان نقوله ايضا عن مؤرخي عصر عودة الملكية الفرنسيين الذين اتينا بذكرهم للتو . لكن بمَ نَنعت الفكرة التي يكونها عن التاريخ رجال يؤكدون ان العامل الاقتصادي ترجح كفته في الحياة الاجتماعية ويبقون في الوقت

نفسه راسخي اليقين بأن العامل المذكور ، اي اقتصاد المجتمع، هو بدوره ثمرة التصورات والمعرفة الانسانية؟ الحق انه لا يسعنا ان ننعتها الا بأنها **مثالية** . وينجم عن ذلك ان **المادية الاقتصادية غير كافية لاقصاء المثالية عن التاريخ** . بل ان هذه الصيغة ليست مضبوطة بدقة . اننا نقول : «غير كافية لاقصاء المثالية» ؛ مع انه كان ينبغي ان نقول : **يمكن ان تكون ، ولقد كانت حتى يومنا هذا في غالب من الاحيان شكلا من أشكال المثالية** . وهكذا نفهم لماذا لا يعد اشخاص من أمثال انطونيو لابريولا انفسهم ماديين اقتصاديين : **ذلك لانهم ماديون يتابعون فكرتهم الى نهايتها ؛ ولأن تصورهم للتاريخ يقف على طرفي نقيض مع المثالية التاريخية .**

- ٢ -

لعل السيد كودرين (٨) سيقول لنا : «هأنتمذا ، جريا على عادة تميز بها العديد من «التلامذة» (٩) ، تلجؤون الى المفارقة ، وتتلاعبون بالالفاظ ، وتحاولون ان تصرفوا انتباهنا ، فتقدموا لنا عرضا شبيها بذاك الذي يقدمه بالع السيوف . بين ايديكم ينقلب الماديون الاقتصاديون الى مثاليين . فكيف ينبغي لنا ، والحالة هذه ،ان نتصور الماديين الحقيقيين ، الماديين الذين يتابعون فكرتهم الى نهايتها ؟ أيرفضون حقا مفهوم العامل الاقتصادي الغالب ؟ أيقرون بوجود عوامل اخرى الى جانب هذا

---

٨ ـ اسم مستعار لنيقولاي روسانوف : كاتب شعبوي ، ثم اشتراكي ـ ثوري ، ثم مهاجر ابيض . «م»

٩ ـ التلامذة : الاسم الذي كان يطلق في روسيا على أنصار النظرية الماركسية . «م»

العامل في التاريخ ، وبأننا نحيد عن جادة الصواب حين نفتش عن العامل الذي ترجح كفته كفة العوامل الاخرى ؟ الحق اننا سنكون اول المغتبطين اذا كان الماديون الحقيقيون ، الماديون الذين يتابعون فكرتهم الى نهايتها، لا يسعون الى زج العامل الاقتصادي في كل شيء» .

وسنجيب السيد كودرين بأن الماديين الاقحاح ، الماديين الذين يبقون منطقيين مع انفسهم ، لا يسعون بالفعل الى زج العامل الاقتصادي في كل شيء . ومسألة معرفة اي العوامل ترجح كفته في الحياة الاجتماعية تبدو لهم ثانوية . لكن لا يسارع السيد كودرين الى الاغتباط . فليس تحت تأثير السادة الشعبويين والسادة الذاتويين توصل الماديون الاقحاح ، الماديون الذين يبقون منطقيين مع انفسهم ، الى هذه الفكرة. فالاعتبارات التي يعارض بها اولئك السادة غلبة العامل الاقتصادي ، لا يمكن ان يقابلها الماديون الاقحاح ، الماديون الذين يتابعون فكرتهم الى نهايتها ، الا بالضحك . وهذا من دون ان نقيم وزنا لكون هذه الاعتراضات تأتي متأخرة للغاية . واما انه قد فات أوان التساؤل عن العامل الذي ترجح كفته في الحياة الاجتماعية ، فقد اتضح ذلك للعيان منذ ايام هيغل . فالمثالية **الهيغلية** تنفي حتى امكانية طرح مثل هذه الاسئلة ، وتنفيها نفيا أشد جزما ايضا المادية الجدلية المعاصرة. فمنذ نشر **نقد النقد النقدي**(١٠)، وعلى الاخص منذ نشر **حول نقد الاقتصاد السياسي** (١١) المشهور ، لم يعد من الممكن ان يخوض غمار النقاش في الاهمية المقارنة لشتى

---

١٠ ـ العنوان الثاني لكتاب ماركس وانجلز «الاسرة المقدسة» ، وقد نشر عام ١٨٤٥ . «م»

١١ ـ هو كتاب ماركس «مساهمة في نقد الاقتصاد السياسي» ، الذي تضمنت مقدمته عرضا مكثفا للمادية التاريخية ، وقد نشر عام ١٨٥٩ . «م»

العوامل الاجتماعية والتاريخية الا أناس متخلفة نظرياتهم . ونحن نعلم ان هذه الملاحظة لن تدهش السيد كودرين وحده . لـــذا سنسارع الى توضيح ما نقول .

ما العوامل «التاريخية ـ الاجتماعية» ؟ وما منشأ التصور الذي يتم تكوينه عنها ؟

لنأخذ مثالا . لقد اراد الغراكيان (١٢) وضع حد لسيطـــرة اغنياء الرومان على الاراضي العامة ، لان هذه السيطـــرة كانت تقود روما الى التهلكة . وعارض الاغنياء الغراكيين . وحمـــي وطيس القتال ، وسعى كل طرف من المتحاربين بحماسة وحمية الى عقد ازار النصر لقضيته . ولو كان بودي وصف هذا الصراع، لكان بامكاني ان أصوره على انه مواجهة بين الاهواء الانسانية ، فتنقلب الاهواء للحال الى «عوامل» لسياسة رومـــا الداخلية . لكن الغراكيين وخصومهما معا كانوا يستخدمون في ذلك الصراع الوسائل التي كان القانون العام في روما يضعها في متناولهم . ومن المؤكد انني ان انسى هذه النقطة في سردي ، وبذلك ينقلب القانون العام الروماني بدوره الى عامل في تطور **الجمهورية** . وفي مستطاعنا ان نتابع على هذا المنوال : فأولئك الذين كانوا يكافحون الغراكيين كانت لهم مصلحة مادية في اطالة أمد سوء استعمال السلطة الذي صار جزءا من العادات ، كما كان لاولئك الذين يؤازرون الغراكيين مصلحة مادية في وضع حد لهـــــذه التجاوزات . وسأشير الى هذا الظرف اشارة يغدو معها الصراع

---

١٢ ـ هما الاخوان غراكوس : طيباريوس وكايوس ، الاول ولد في عام ١٦٢ وقتل في عام ١٣٣ ق.م . والثاني ولد في ١٥٤ وقتل غيلة في فتنة عام ١٢١ ق.م . وهما نقيبان وخطيبان رومانيان اقترحا اصلاحات زراعية وحاولا معارضة جشع الارستقراطية الرومانية التي وضعت يدها على القسم الاعظم من الاراضي المستولى عليها من الاعداء الخارجيين . «م»

الذي اصفه مواجهة بين المصالح المادية ، صراعا بين الاغنياء والفقراء ، صراعا طبقيا . وعلى هذا النحو يحضر بين ايدينا عامل ثالث ، وهو هذه المرة الاكثر اثارة للاهتمام : العامل الاقتصادي الشهير . واذا كان لدى القارىء متسع من الوقت ومن الرغبة ، ففي وسعه ان يتساءل على مهل من أمره عن العامل الذي رجحت كفته كفة العاملين الآخرين في تطور روما الداخلي ؛ ولا شك في انه واجد في سردي القدر الكافي من العناصر لتأييد الراي الذي سيقع عليه خياره .

اما من جهتي انا ، فان مسألة العوامل لن تثير حماستي ما دمت متقيدا بدور القاص الذي يسرد . ولن ألقي بالا لاهمية كل واحد منها على حدة . فأنا لا أحتاج بوصفي قاصا الا لشيء واحد : تصوير الوقائع أصدق تصوير ممكن وأقربه الى الحياة. ولا مندوحة لي ، للوصول الى ذلك ، من اقامة رابطة ما ، ولو سطحية ، بين تلك الوقائع ، ومن ترتيبها وفق منظور معين . واذا ما عرضت للاهواء التي كانت تجيش في افئدة الاطراف المتصارعة ، او لنظام روما السياسي عهدئذ ، او اخيرا لوجود تفاوت ثروات في تلك الحاضرة ، فانني لا افعل ذلك الا لصالح القصة المسرودة ، بغية ربط الوقائع بعضها ببعض وبعث الحياة فيها من جديد . واذا ما ادركت هذا الهدف ، انتابني شعور بالرضى التام ، وتركت بلامبالاة للفلاسفة ان يحلوا مسألة معرفة هل ترجح كفة الاهواء كفة الاقتصاد ، ام هل ترجح كفة الاقتصاد كفة الاهواء ، ام هل لا ترجح كفة شيء كفة شيء آخر ، على اعتبار ان كل «عامل» يتقيد بالحكمة القائلة : عش ودع غيرك يعيش .

هذا كله في حال اقتصاري على دور الراوي الذي لا يهمه ان يقسِّم ويفصِّل ويصنف . لكن ماذا سيحدث اذا لم أكتف بهذا الدور، واذا اندفعت في تأملات فلسفية بصدد الوقائع الموصوفة؟

في هذه الحال ، لن يعود يكفيني الربط الخارجي بين الوقائع ؛ وستنتابني الرغبة في تعرية اسبابها وعللها الباطنة ، وسترتدي الاهواء والقانون العام والاقتصاد ، وجميع العوامل التي كنت فيما أنف أنوه بها او أبرزها للعيان ، سترتدي في نظري دلالة جديدة وهامة . انها ستغدو عندي الاسباب الباطنة اللامنظورة، «القوى الخفية» التي يفسر عملها الوقائع . وسأبادر الى ابداع نظرية في العوامل .

ان نظرية العوامل ، ايا يكن الشكل الذي تتلبسه ، تظهر بالضرورة الى حيز الواقع حيثما انتقل الناس المهتمون بالظاهرات الاجتماعية من الوصف والتأمل الخالصين الى دراسة الرابطة العميقة .

فضلا عن ذلك ، تتطور نظرية العوامل طردا مع تعاظم تقسيم العمل في علم المجتمعات . فجميع فروع هذا العلم ـ الاخلاق ، السياسة ، الحقوق ، الاقتصاد السياسي ، الخ ـ تتناول في الواقع الموضوع ذاته : نشاط الانسان الاجتماعي . لكن كل فرع منها ينظر الى هذا النشاط من وجهة نظره ؛ ويحلو للسيد ميخائيلوفسكي ان يقول ان كل فرع «يفتل حبله» (١٣) ، وان كل «حبل» يمكن ان يعد عاملا من عوامل التطور الاجتماعي . وفي الحق ، يسعنا الان ان نحصي من العوامل بقدر ما يوجد من فروع في علم المجتمعات .

وبعد كل ما تقدم قوله ، من السهل ان يفهم المرء ـ او هذا ما نرجوه ـ ما كنه العوامل «التاريخية ـ الاجتماعية» ، وما منشأ التصور الذي يتم تكوينه عنها .

---

١٣ ـ تعبير استخدمه ميخائيلوفسكي في عرضه للكتب في زاوية «الادب والحياة» ، في العدد ١ لعام ١٨٩٤ من مجلة «روسكويه بوغاتستفو» (الثروة الروسية) . «ن.س»

انها تشكل **تجريدات** ، والتصور المكون عنها هو ثمرة ملَكة **التجريد** . وعن طريق عمل هذه الملَكة ، ترتدي مختلف **مظاهر** الكل الاجتماعي ظاهر **مقولات** متمايزة ، بينما تتحول مختلف تظاهرات او تعابير الانسان الاجتماعي النشيط ـ الاخلاق ، الحقوق ، الاشكال الاقتصادية، الخ ـ في ذهننا الى قوى خاصة تبدو وكأنها تتحكم بذلك النشاط وتتأمر به وتشكل علله الاولى .

وما ان تتكون نظرية في العوامل ، حتى تعقبها بالضرورات مساجلات بصدد النقطة المتعلقة بمعرفة اي العوامل ينبغي اعتباره راجحا سائدا .

- ٣ -

ثمة تفاعل بين «العوامل» : فكل عامل يؤثر في العوامل الاخرى ويتأثر بها . ومن هنا كان تداخل الافعال المتبادلة ، الافعال المباشرة وردود الافعال بطريقة غير مباشرة . ومن اخذ على عاتقه تسليط الضوء على مسيرة التطور الاجتماعي لا يلبث ان يأخذه الدوار . وتساوره حاجة لا تقاوم الى خيط ما هادٍ للخروج من هذه المتاهة .

واذا ما اقنعته التجربة المرة بأن وجهة نظر التفاعل لا تقود الا الى الدوار ، يبحث عن حيلة اخرى ، ويحاول تبسيط المشكلة : يتساءل عما اذا لم يكن هذا العامل او ذاك من العوامل «التاريخية ـ الاجتماعية» هو العلة الاساسية ، الاولى ، للعوامل الاخرى . واذا توصل الى الاجابة بالايجاب ، تكون المشكلة قد امست ابسط بما لا يقاس . لنفترض انه اقتنع بأن جميع العلاقات الاجتماعية داخل قطر من الاقطار مشروطة في تكوينها

وتطورها بالتطور الفكري المتحدد بدوره بخواص الطبيعةالانسانية (تلك هي وجهة نظر المثاليين) . انه سيفلت بيسر وسهولة من إسار حلقة التفاعل المفرغة، وسيفبرك نظرية تتمتع بقدر او بآخر من الانسجام ومن تلاحم المنطق عن التطور الاجتماعي . وقد يتبين له فيما بعد ، اذا ما واصل درسة الموضوع ، انه ربما يكون قد اخطأ ، وانه ليس من حقه ان يعد التطور الفكري العلة الاولى لكل التطور الاجتماعي . لكنه بعد ان يعاين خطأه سيلاحظ في ارجح الظن انه جنى على كل حال فائدة من ايمانه ، لوهلة من الزمن ، بغلبة العامل الفكري ، لانه لولا هذا الاقتناع لما كان خرج من إسار التفاعل ، من النقطة الميتة ، ولما كان تقدم قيد أنملة على طريق تفهم الظاهرات الاجتماعية .

لن نكون منصفين لو أدنّا اولئك الذين يحاولون ان يقيموا على هذا النحو تسلسلا هرميا بين عوامل التطور «التاريخي ــ الاجتماعي» . فقد كانت هذه المحاولات محتمة ، في زمانها ، حتمية ظهور نظرية العوامل بالذات . يقول انطونيو لابريولا ، الذي درس هذه النظرية دراسة أمثل وأكمل من سائر الماديين جميعا ، يقول بسداد عظيم :

> «تشير العوامل التاريخية ... الى شيء أقل من الحقيقة بكثير ، لكنه اكثر بكثير ايضا من مجرد الغلط بالمعنى الفج للكلمة» .

وقد قدمت نظرية العوامل مساهمتها في العلم :

> «ان الدراسة المنفصلة للعوامل التاريخية ــ الاجتماعية قد افادت ، شأنها شأن كل دراسة اختبارية اخرى لا تتجاوز الحركة الظاهرة للاشياء ، في تحسين ادوات الملاحظة وفي افساح المجال امام

اعادة اكتشاف الخيوط الخفية التي تربط الوقائع بالكل الاجتماعي» .

ان الاطلاع على العلوم الاجتماعية «المنفصلة» ضروري اليوم لكل من يريد ان يبعث الحياة من جديد في لحظة ما من ماضي الانسانية . فالتاريخ ما كان ليحرز تقدما لولا فقه اللغة . وحتى تطرف الرومانسيين الذين رأوا في الحقوق الرومانية الكلمة متجسدة ، ألم يؤد هو الآخر خدمات ؟

لكن مهما تكن نظرية العوامل مشروعة ونافعة في زمانها ، فانها لا تصمد اليوم امام النقد . فهي في الواقع تقطع أوصال نشاط الانسان الاجتماعي ، فتحول مظاهر هذا النشاط وتظاهراته الى قوى خاصة يفترض فيها انها هي التي تعين صيرورة المجتمع التاريخية . وقد لعبت هذه النظرية ، في تاريخ علم المجتمعات ، الدور ذاته الذي لعبه في علوم الطبيعة مفهوم القوى الخاصة . وقد افضى تقدم الفيزياء الى مذهب **وحدة** القوى ، الى النظرية الحديثة في الطاقة . كذلك افضى تقدم علم المجتمعات بالضرورة الى استبدال نظرية العوامل ، ثمرة التحليل الاجتماعي ، **بتصور مركب للحياة الاجتماعية** .

ليس التصور المركب للحياة الاجتماعية موقوفا على المادية الجدلية المعاصرة . فنحن نلفاه اساسا لدى هيغل الذي كانت المعضلة بالنسبة اليه تقديم تفسير علمي لمجمل السيرورة التاريخية ــ الاجتماعية منظورا اليها في كليتها ، اي بكل مظاهر نشاط الانسان الاجتماعي وتظاهراته التي تتصورها العقول الميالة الى التجريد في شكل عوامل مستقلة في ذاتها . لكن هيغل ، بصفته «مثاليا مطلقا» ، كان يفسر نشاط الانسان الاجتماعي بخواص الروح الكوني . فما أن تتعين هذه الخواص، حتى يتعين كل تاريخ الانسانية في ذاته ، وكذلك غايات هذا

التاريخ . ان تركيب هيغل **غائي** .

اما المادية الجدلية المحدثة فقد نحت جانبا بصورة نهائيـــة الغائية عن علم المجتمعات . فهي تبين ان الناس لا يصنعــون تاريخهم ليسيروا على طريق للتقدم مرسوم سلفا ، او لانــــه يتوجب عليهم الخضوع لقوانين تطور مجرد (ميتافيزيائي ، كما يقول لابريولا) ، وانما لانهم يسعون الى تلبية حاجاتهم . وعلى العلم ان يفسر لنا كيف تؤثر شتى وسائل تلبية تلك الحاجات على العلاقات الاجتماعية فيما بين الناس وعلى نشاطهم الروحي .

ان وسائل تلبية حاجات الانسان الاجتماعي ، وكذلك هذه الحاجات نفسها الى حد كبير ، تتحدد بخواص الادوات التـــي تسمح للانسان بأن يخضع الطبيعة بقدر او بآخــــر لسلطانه . تتحدد ـ بعبارة اخرى ـ بحالة قواه الانتاجية . فكل تغــــير محسوس في هذه الحالة ينعكس في العلاقــــات الاجتماعية ، وعلى الاخص في العلاقات الاقتصادية فيما بين الناس . ولقد كانت العلاقات الاقتصادية تابعة ، في انظار شتى صنـــــوف المثاليين ، **للطبيعة الانسانية** ؛ اما الماديون الجدليون فيعدون هذه العلاقات تابعة **لقوى الانتاج الاجتماعية** .

يترتب على ذلك انه اذا ارتأى الماديون الجدليون انه مـــن المباح الكلام عن عوامل التطور الاجتماعي لغايات اخرى غير انتقاد تلك الاوهام البالية القدم ، فان عليهم باديء ذي بدء ان يعارضوا الماديين الذين يسمون **بالاقتصاديين بتغيرية** عاملهم «الغالب» ؛ اذ ان الماديين المحدثين لا يعرفون نظاما اقتصاديا يتطابق وحده مع الطبيعة الانسانية ، بينما تأتي سائـــر اشكال التنظيـــم الاقتصادي للمجتمع نتيجة اغتصاب لهذه الطبيعة . ففي مذهب الماديين المعاصرين ، يتطابق **كل** نظام اقتصادي مع الطبيعـــة الانسانية اذا ما تطابق مع حالة القوى الانتاجية في الحقبـــة المعنية . وعلى العكس ، يدخل كل نظام اقتصادي في تناقض مع الطبيعة الانسانية متى ما خالف حالة القوى الانتاجية . هكذا

يستبين ان العامل «الغالب» **تابع** لعامل «آخر» . فماذا يبقى في هذه الحال من «**غلبته**» ؟

اذا كان كذلك هو واقع الحال ، فمن المفهوم ان تفصل هوة بين الماديين الجدليين وبين الماديين الذين يمكن — ليس بدون مبرر — وصفهم **بالاقتصاديين** . فالى اي اتجاه ينتمي ، والحالة هذه ، التلامذة غير المستحبين لمعلم غير مستحب ، هؤلاء التلامذة الذين كان يتألب عليهم بالامس بقدر عظيم من السخط وبقدر أقل من التوفيق السادة كاربيف وميخائيلوفسكي وكريفنكو (١٤) ، وهذا من دون ان نذكر العديدين غيرهم من الفقهاء والمؤلفين الحاذقين ؟

اذا كنت غير مخطىء ، فان «التلامذة» ينحازون تمام الانحياز الى وجهة نظر المادية الجدلية . فلماذا اذن يعزو اليهم السادة كاربيف وميخائيلوفسكي وكريفنكو ، وهذا من دون ان نذكر العديدين غيرهم من الفقهاء والمؤلفين الحاذقين ، افكار الماديين الاقتصاديين ؟ لماذا ينحون عليهم بعنيف اللائمة ويتهمونهم بعزو اهمية مسرفة الى العامل الاقتصادي ؟ أينبغي ان يساورنا الاعتقاد بأن اولئك الفقهاء والمؤلفين الحاذقين يسلكون هذا المسلك لانه أسهل عليهم ان يكافحوا حجج مادية اقتصادية عاطرة الذكر من ان يتصدوا لمحاججة المادية الجدلية ؟ ام ينبغي ان نفترض ان أخصامنا الفقهاء اساؤوا فهم افكار «التلامذة» ؟ هذه هي ، في الحق ، الفرضية الاقرب الى الاحتمال .

قد يعترض علينا معترض بأن «التلامذة» قد وصفوا انفسهم بأنفسهم ، احيانا ، بأنهم ماديون اقتصاديون ، بل بأن «تلميذاً»

---

١٤ — سيرغي نيقولائيفيتش كريفنكو : شعبوي ليبيرالي (١٨٤٧ — ١٩٠٧)، معادٍ للماركسية . «م»

فرنسيا (١٥) كان هو السبّاق الى استخدام هذا التعبير . هذا صحيح . لكن لا التلامذة الفرنسيون ولا التلامذة الروس ادرجوا قط في صيغة «المادية الاقتصادية» الافكار التي يضعها فيها عندنا الشعبويون والذاتويون . ولنكتف ، بهذا الصدد ، بالتذكير بأن السيد ميخائيلوفسكي يصف لويس بلان وايولي جوكوفسكي (١٦) بأنهما «ماديان اقتصاديان» (١٧) ، اسوة بالانصار الحاليين للتصور المادي للتاريخ عندنا . والحق انه لمن العسير المضي الى أبعد من هذا الحد في التخليط .

- ٤ -

لقد اضفت المادية الجدلية (*) ، بعد ان نحت عن علم المجتمعات كل غائية وفسرت نشاط الانسان الاجتماعي بحاجاته

---

١٥ ـ المقصود هنا هو بول لافارغ الذي اطلق على واحدة من كراساته عنوان «مادية كارل ماركس الاقتصادية» . «ن.س»

١٦ ـ كاتب واقتصادي روسي ، انتقائي ، مناهض للاقتصاد السياسي الماركسي (١٨٢٢ ـ ١٩٠٧) . «م»

١٧ ـ كان ميخائيلوفسكي قد وصف لويس بلان ويوليوس جوكوفسكي بأنهما من أتباع «المادية الاقتصادية» في مقاله : «كلمة اخرى عن السيد طوغان ـ بارانوفسكي والعامل الاقتصادي» في «روسكويه بوغاتستفو» في العدد ٢ لعام ١٨٩٦ . اما بصدد رد بليخانوف على الافكار التي عبر عنها ميخائيلوفسكي ، فيُراجَع ، في هذا الكراس ، مقال «العامل الاقتصادي» . «ن.س»

(*) يطلق عليها لابريولا اسما مقتبسا من انجلز : «المادية التاريخية» .

وبطرق تلبيةهذه الحاجات ووسائلها في زمن معين ، اضفت على هذا العلم لاول مرة «الدقة» التي كانت تتباهى بها آنفا حياله علوم الطبيعة ، شقيقاته . ويمكن القول ان علم المجتمعات صار علما **للطبيعة** ، «مذهبنا الطبيعي للتاريخ» ، كما يقول ويحسن القول لابريولا . لكن هذا لا يعني البتة ان مضمار البيولوجيا يتداخل في نظره مع علم المجتمعات . فلابريولا يقابل بألد العداء **«الداروينية السياسية والاجتماعية»** التي «غزت كالوباء منذ سنين عديدة عقل اكثر من مفكر ، وعلى الاخص عقول المحامين عن علم الاجتماع والهتّافين له» ، والتي «انعكست عادة دارجة ... حتى في لغة الساسة اليومية» .

ان الانسان بلا ادنى ريب كائن حي نسيب الى الكائنات الحية جميعا . وليس في أصله شيء يقلده امتيازا : ففيزيولوجيته محض مظهر خاص من الفيزيولوجيا العامة . وفي البدء يجد نفسه ، كسائر الكائنات الحية ، خاضعا كل الخضوع لفعل الوسط الطبيعي الذي لا يكون بعد قد تعرض لنشاطه التحويلي ؛ وعليه ان يتكيف مع هذا الوسط بكفاحه في سبيل البقاء . وفي راي لابريولا انه ينبغي ان نعتبر ان من نتائج هذا التكيف **المباشر** مع الوسط الطبيعي العروق المتباينة ، وذلك بقدر ما تتميز هذه العروق عن بعضها بعضا بعلامات جسمانية (عرق ابيض ، اسود ، اصفر ، الخ) من دون ان تؤلف تشكيلات تاريخية ـ اجتماعية فرعية كالامم والشعوب . وانما بنتيجة هذا التكيف مع الوسط الطبيعي في الكفاح في سبيل البقاء ظهرت الغرائز البدائية للجماعة ، وكذلك العناصر الاولى للانتخاب الجنسي .

اننا لا نستطيع غير ان نتكهن تكهنا بما كانه « الانسان البدائي» . فالبشر الذين يعمرون اليوم الارض ، وكذلك البشر الذين درسهم فيما سلف مراقبون جديرون بالثقة ، قد تجاوزوا من بعيد الطور الذي انتهت عنده الحياة الحيوانية بحصر المعنى

بالنسبة الى الانسانية. فالايروكيون «(١٨)» بعشيرتهم الامومية كما درسها ووصفها مورغان ، قد قطعوا شوطا مديدا في مضمار الارتقاء **الاجتماعي** . وللاوستراليين انفسهم لغة يمكن وصفها بأنها شرط الحياة في المجتمع وأداتها ، علتها ومعلولها ؛ وهم لا يعرفون استخدام النار فحسب ، بل يعيشون ايضا في طوائف أجتماعية لها نظام محدد ومؤسسات وأعراف محددة . وللقبيلة الاوسترالية ارضها وتقنيتها الخاصة في قنص الحيوانات ، وأسلحة هجومية ودفاعية ، وأوعية لحفظ المؤن ، وطرائق خاصة في الوشم ؛ وزبدة القول : يعيش الاوسترالي في وسط أصطناعي ، وان ابتدائي ، يتكيف معه منذ طفولته الاولى . وهذا الوسط الاصطناعي ، الوسط الاجتماعي ، يمثل الشرط الضروري لكل تقدم لاحق . وبدرجة تطوره تقاس درجة وحشية كل قبيلة او همجيتها .

تتطابق هذه التشكيلة الاجتماعية البدائية مع ما يسمى **بالحالة ما قبل التاريخية** للبشرية . اما الحياة التاريخية بحصر المعنى فتقتضي تطويرا اوسع ايضا الوسط الاصطناعي وسلطانا أجل بكثير للانسان على الطبيعة . وتعقيد العلاقات الداخلية في المجتمعات التي سلكت طريق الرقي التاريخي ليس مشروطا بالتأثير المباشر للوسط الاجتماعي . بل يفترض التعقيد اختراع

---

١٨ ــ الايروكيون : مجموعة من قبائل الهنود الحمر في اميركا الشمالية، كانت تسكن في منطقة بحيرات يري واونتاريو ، وأبعد الى الجنوب ، في حوض نهر سان لوران ، وكذلك في القسم الجنوبي من جبال ابالاش ؛ وقد درسها مورغان في كتابه «المجتمع القديم» الذي كان كل من ماركس وانجلز يثمنه تثمينا عاليا ؛ وقد قال انجلز في مقدمة كتابه «اصل الاسرة» ان مورغان قد اعاد في اميركا اكتشاف التصور المادي للتاريخ الذي كان ماركس قد اكتشفه قبل اربعين عاما . «م»

بعض ادوات العمل ، وتدجين حيوانات شتى ، وفن استخراج المعادن ، الخ . وتتنوع هذه الوسائل وهذه الانماط الانتاجية تنوعا شديدا بحسب الظروف . ومن الممكن ان يلحظ فيها تقدم او ركود او حتى انتكاس . لكن هذه التبدلات لا ترجع البتة الانسان الى الحياة الحيوانية الصرف ، او الى الحياة الخاضعة مباشرة للوسط الطبيعي .

يقول لابريولا :

«الموضوع الاول والرئيسي اذن للعلم التاريخي هو تعيين والتماس المضمار الاصطناعي وأصله وتركيبه وتبدلاته وتحولاته . اما القول بأن هذا كله ما هو الا جزء من الطبيعة واستطالة لها ، فكلام عارٍ من كل مداول بحكم طابعه المغرق في التجريد والعمومية»(*).

ان لابريولا ، الذي يرفض «الداروينية السياسية والاجتماعية» ، لا يبدي تساهلا نقديا اكبر تجاه «الهواة اللطفاء» الذين يسعون الى ربط التصور المادي للتاريخ بنظرية عامة في التطور ، تتحول لدى العديدين منهم ، وفق ملاحظة المؤلف القاسية ، لكن السديدة ، الى محض استعارة ميتافيزيائية . ويسخر كذلك من سذاجة اولئك الهواة الذين يطيب لهم ان يضعوا التصور المادي للتاريخ تحت رعاية فلسفات اوغست كونت او سبنسر ؛ ويقول : هذا معناه اننا نريد «ان نجعل من أخصامنا السافرين حلفاء لنا».

ان هذه الاشارة الى الهواة تبدو وكأنها تتوجه بالتخصيص الى الاستاذ انريكو فيري ، وهو مؤلف كتاب بالغ السطحية عن «سبنسر وداروين وماركس» ، وقد ترجم الى الفرنسية تحت

(*) «مقالات ...» ، ص ١٤٤ .

عنوان «**الاشتراكية والعلم الوضعي**» (١٩) .

- ٥ -

أيصنع الناس اذن تاريخهم بمسعاهم الى تلبيـــة حاجاتهم . وبديهي ان الطبيعة هي التي تعين في الاصل هـــذه الحاجات ؛ لكن هذه الاخيرة لا تلبث ان يطرأ عليها تبدل ملموس ، مـــن الناحية الكمية ومن الناحية النوعية على حد سواء ، بفعل خواص الوسط الاصطناعي . وتشرط القوى الانتاجية التي يمتلكهـــا البشر علاقاتهم الاجتماعية كافة . وحالة القوى الانتاجية هـــي التي تحدد في البدء العلاقات التي يعقد الناس أواصرها فيمـا بينهم في عملية الانتاج الاجتماعية ، أقصد **العلاقات الاقتصادية**. وهذه العلاقات تخلق بطبيعة الحال مصالح معينة تجد تعبيرها في **القانون** . يقول لابريولا : كل نظام قانوني «هو دفاع .. عن مصلحة محددة» . ويتسبب تطور القوى الانتاجية في انقســام المجتمع الى طبقات لا تتباين مصالحها فحسب ، بل تتناقض في كثير من الاحوال تناقضا جوهريا . ويتولد عن هذا التناقض في المصالح منازعات بين الطبقات الاجتماعية ، صراع هذه الطبقات. ويفضي هذا الصراع الى استبدال **العشيرة بالدولة** ؛ ورسالة هذه هي الحفاظ على المصالح السائدة . وأخيرا ، في هذه العلاقات الاجتماعية المشروطة بحالة معينة للقوى الانتاجية تتأصل جذور

---

١٩ ـ نشر كتاب فيري هذا في روما عام ١٨٩٤ ، وفي باريس عام ١٨٩٦ . وانريكو فيري عالم ايطالي في الأجرام وقيادي في الحزب الاشتراكي الايطالـي (١٨٥٦ ـ ١٩٢٩) . «م»

الاخلاقية ، اي الاخلاق اليومية التي يهتدي الناس بقواعدها في الحياة الجارية ».

ان الحقوق والنظام السياسي والاخلاق لدى شعب من الشعوب مشروطة اذن **بصورة مباشرة وغير متوسطة** بالعلاقات الاقتصادية الخاصة بهذا الشعب . كذلك فان هذه العلاقات الاقتصادية هي التي تشرط ، وان **بصورة غير مباشرة وغير متوسطة** ، جميع ابداعات الفكر والخيال : الفن ، العلم ، الخ .

كي نفهم تاريخ الفكر العلمي او الفن في بلد من البلدان ، لا يكفي أن نعرف اقتصاده . بل ينبغي ان نمتلك المقدرة على الانتقال من الاقتصاد الى **السيكولوجيا الاجتماعية** ، لاننا اذا لم ندرس هذه السيكولوجيا دراسة متأنية ولم نفهمها عميق الفهم ، لا نستطيع ان نقدم تفسيرا ماديا لتاريخ الايديولوجيات . ولا يترتب على ذلك ، قطعا ، أن هناك «روحا» اجتماعية ، «نفسا» جماعية للشعب تتطور وفق قوانينها الخاصة وتجد في الحياة الاجتماعية تعبيرها ، على حد ما يزعم الزاعمون . «تلك هي صوفية خالصة» : هذا ما يقوله لنا لابريولا . وفي نظر المادي ، لا يمكن ان تكون المسألة ، والحالة هذه ، الا مسألة حالة نفسية وعاطفية تسود لدى طبقة معينة ، في زمن معين ، في قطر معين . وعلة هذه الحالة النفسية والعاطفيةالعلاقات الاجتماعية . ولابريولا مقتنع عميق الاقتناع بأن ليست أشكال الوعي هي التي تحدد لدى الانسان كينونته الاجتماعية ، بل على العكس بأن أشكال وعيه تتحدد بأشكال كينونته الاجتماعية . بيد ان اشكال الوعي ، التي ترجع في نشأتها الى الكينونة الاجتماعية ، تؤلف جزءا لا يتجزأ من التاريخ . فالتاريخ ، كعلم ، لا يمكن ان يحصر نفسه بالتشريح الاقتصادي للمجتمع : فهو يستهدف **مجمل الظاهرات المشروطة بصورة مباشرة او غير مباشرة** بالاقتصاد الاجتماعي ، بما فيه عمل المخيلة . وليس في التاريخ واقعة واحدة لا تستمد اصلها من الاقتصاد الاجتماعي . لكن من

الصحيح ايضا انه لا وجود لواقعة تاريخية واحدة لا تسبقها او ترافقها او تليها حالة وعي معينة . ومن هنا كانت الاهمية الجلّى للسيكولوجيا الاجتماعية . واذا لم يكن بد من ان يحسب حسابها في تاريخ القانون والمؤسسات السياسية ، فاننا لا نستطيع بدونها ان نتقدم خطوة واحدة في تاريخ الادب والفن والفلسفة ، الخ .

حين نقول عن أثر من الآثار انه امين لروح عصر النهضة على سبيل المثال ، ينبغي ان نفهم هذا القول بمعنى ان هذا الاثر يتطابق تماما مع الروح السائدة لدى الطبقات التي تحدد سمات الحياة الاجتماعية . وما دامت العلاقات الاجتماعية لم تتغير ، لا تتغير السيكولوجيا الاجتماعية هي الاخرى . ويعتاد الناس على بعض المعتقدات ، على بعض المدركات ، على بعض طرائق التفكير، على بعض وسائل تلبية بعض الحاجات الجمالية . لكن اذا أدى تطور القوى الانتاجية الى تغير ما جوهري في بنية المجتمع الاقتصادية ، وبالتالي في علاقات الطبقات الاجتماعية فيما بينها، تتبدل سيكولوجيا هذه الطبقات بالذات ، ويتبدل معها «روح العصر» و«الطابع القومي» على حد سواء . ويتجلى هذا التبدل في ظهور معتقدات دينية جديدة ، او مفاهيم فلسفية جديدة ، او اتجاهات جديدة في الفن ، او حاجات جمالية جديدة .

يرى لابريولا انه من الضروري ايضا ان يؤخذ بعين الاعتبار الدور المرموق الذي كثيرا ما تلعبه ايديولوجيات **مخلفات** الافكار والميول الموروثة عن الاسلاف والتي لا تصمد للزمن الا بحكم التقاليد . فضلا عن ذلك ، تمارس الطبيعة بدورها تأثيرا على الايديولوجيات . وقد رأينا ان الوسط الاصطناعي يعدل تعديلا غير هيّن تأثير الطبيعة على الانسان الاجتماعي . فهذا التأثير يغدو **غير مباشر بعد ان كان مباشرا** ، الا انه يستمر عن الوجود. كذلك تستمر في مزاج كل شعب خصوصيات معينة متأتية من

تأثير الوسط الطبيعي . ويعدل التكيف مع الوسط الاجتماعي هذه الخصوصيات الى حد ما ، لكنه لا يقضي عليها ابدا قضاء مبرما . وتشكل خصوصيات المزاج القومي هذه ما يسمى **بالعرق** . ويمارس العرق تأثيرا لا مرية فيه على تاريخ بعض الايديولوجيات ، على الفن على سبيل المثال . ويزيد هذا الظرف من تعقيد التفسير العلمي ، الذي ما هو بالميسور اصلا حتى بمعزل عن هذا الظرف .

- ٦ -

لقد عرضنا بالتفصيل ، وبدقة على ما يخيل الينا ، افكار لابريولا بصدد تبعية الظاهرات الاجتماعية لبنية المجتمع الاقتصادية المشروطة بدورها بحالة القوى الانتاجية في هذا المجتمع . ونحن متفقون اكمل الاتفاق مع المؤلف حول الجوهر . لكن أحكامه تترك احيانا فينا بعض الشك ، وسنسمح لانفسنا بإبداء ملاحظات شتى بصددها .

باديء ذي بدء ، الملاحظة التالية ...

ان الدولة في نظر لابريولا هي الهيمنة المنظمة لطبقة اجتماعية على طبقة اخرى او على الطبقات الاخرى . وهذا صحيح ، ولكنه ليس الحقيقة كلها . ففي دول من شبيهات الصين او مصر القديمة ، حيث كانت الحضارة مستحيلة بدون اشغال هائلة لتنظيم مجرى الانهار وطميها والتأمين الري ، يمكن ان يفسر ظهور الدولة الى حد بعيد بالتأثير المباشر للحاجات في عملية الانتاج الاجتماعية . ولا شك في ان اللامساواة كانت موجودة في تلك الامصار منذ ما قبل التاريخ ، سواء أفي **داخل** القبائل ،

المتباينة اشد التباين في كثير من الاحوال بأصولها الاثنوغرافية ، والتي منها تشكلت الدولة ، أم بين القبائل . لكن الطبقات الحاكمة التي نلتقيها في تاريخ الصين ومصر قد احتلت مركزها الاجتماعي السامق بفضل تنظيم الدولة الذي استوجبته ضرورات عملية الانتاج الاجتماعية . وليس لنا ان نشك ، على سبيل المثال ، في ان طائفة الكهنة في مصر دانت بهيمنتها للاهمية الكبيرة التي كانت تمثلها معارفهم العلمية الاولية بالنسبة الى الزراعة المصرية (*) .

اما في الغرب ــ وفيه ينبغي ان ندرج اليونان بالطبع ــ فان عملية الانتاج الاجتماعية (التي ما كانت تقتضي تنظيما اجتماعيا واسعا) لم تمارس تأثيرا مباشرا على نشأة الدولة . لكن ينبغي هنا ايضا ان نرجع نشأة الدولة الى ضرورة التقسيم الاجتماعي للعمل بحكم تطور قوى الانتاج الاجتماعية . ومن المؤكد ان هذا الظرف لم ينه الدولة عن تنظيم هيمنة اقلية ذات امتيازات على غالبية تعاني بقدر او بآخر من الاستعباد(**). لكن لا يجوز البتة ان ندعه يغيب عن أنظارنا اذا كنا نبغي تحاشي حسر النظر وعدم تكوين تصور خاطىء عن دور الدولة في التاريخ .

(*) يصرح احد ملوك الكلدانيين : «لقد درست اسرار الانهار لخير الناس ... وسقت ماء الانهار الى الصحارى ، وملأت به الحفر الجافة ... ورويت السهول القفر وكفلت لها الرخاء والخصب . وجعلتها مقاما للسعادة». وهذا الكلام وصف ، في شكل متبجح ، لدور الدولة الشرقية في تنظيم عملية الانتاج الاجتماعية .

(**) كما انه لا ينهى الدولة عن ان تكون في بعض الحالات حصيلة غزو شعب لآخر . ويلعب العنف على الدوام دورا بالغ الاهمية في تغيير المؤسسات. لكنه لا يفسر لا امكانية التبديل ولا نتائجه الاجتماعية .

لننتقل الان الى نظريات لابريولا حول تطور الايديولوجيات التاريخي .

لقد رأينا ان هذا التطور معقد في نظره بفعل الخصائص العرقية ، وبوجه عام ، بتأثير الوسط الطبيعي على البشر . وانه لما يدعو الى الاسف الشديد ان المؤلف لم ير ان من المفيد تأييد هذا الرأي وتوضيحه بالامثلة ، ولو فعل لكنا فهمنا عليه بصورة أيسر . على انه لا جدال في ان الاطروحة تبقى غير مقبولة في الشكل الذي عرضت به .

ان القبائل الهندية الاميركية لا تنتمي الى العرق ذاته الذي تنتمي اليه القبائل التي قطنت في حقبة ما قبل التاريخ في الارخبيل اليوناني او على سواحل البلطيق . ولا يمكن ان يساورنا ريب في ان الانسان البدائي قد تعرض في كل مكان من هذه الاماكن لتأثيرات خاصة من الوسط الطبيعي . في مقدورنا اذن ان نتوقع ان تعبر آثار الفن البدائي لسكان هذه المناطق البدائيين عن تنوع تلك التأثيرات . غير اننا لا نعاين شيئا من هذا القبيل . ففي جميع أرجاء المعمورة ، مهما تباينت ، تتطابق أطوار متماثلة من تطور الفن مع مراحل متماثلة من التطور الانساني . اننا نعرف فنا يعود الى العصر الحجري ، وفنا آخر يعود الى العصر الحديدي ، لكننا لا نعرف فنا يعود الى العرق الابيض او الى العرق الاصفر ، الخ . وتنعكس حالة القوى الانتاجية حتى في التفاصيل . ففي البداية لا نجد ، على سبيل المثال ، في الخزفيات سوى خطوط مستقيمة او منكسرة : مستطيلات ، صلبان ، اسنان منشار ، الخ . وهذا النمط من الزخرفة يقتبسه الفن البدائي من تقنيات اكثر بدائية ايضا : الضفر والنسج . أما في عصر البرونز ، اي العصر الذي يظهر فيه تطريق المعادن القابلة لاتخاذ جميع الاشكال الهندسية الممكنة ، فنكتشف زخارف منحنية الاضلاع او مقوسة الخطوط . وأخيرا ، مع تدجين الحيوانات ، تظهر صورها ، وقبل كل شيء صورة

الحصان (*) .

من المؤكد ان السمات العرقية تجد تعبيرها الاكيد في «مثل الجمال الاعلى» الذي يتقيد به الفنانون البدائيون في تصويرهم للانسان . ومعروف ان كل عرق ، ولاسيما في المراحل الاولى من التطور الاجتماعي ، يعدّ نفسه اجمل العروق ، ويثمن تثمينا عاليا السمات التي تميزه عن العروق الاخرى(**) . لكن خصوصيات الجمالية العرقية هذه (بقدر ما تبقى ثابتة) ، تعجز ، مهما بلغ تأثيرها ، عن تغيير مجرى التطور الفني . ثم انها لا تبقى ثابتة الا لحين من الزمن ، اي ضمن شروط معينة . اما في الحالات التي تضطر فيها قبيلة من القبائل الى الاعتراف بهيمنة قبيلة اخرى اكثر تطورا منها ، فان كبرياءها العرقية تتلاشى لتفسح في المجال لتقليد المشارب الاجنبية التي كانت ترى فيما سلف أنها تبعث على الضحك ، بله على الاشمئزاز والاستهجان احيانا . وتحدث لدى المتوحش عين الظاهرة التي نلحظها في المجتمعات المتمدينة لدى الفلاح الــذي يبدأ ، اول ما يبدأ ، بالسخرية من أعراف المدينة وعاداتها ، ثم لا يلبث ان يسعى الى تمثلها حسب امكاناته ووسائله متى ما ولدت وتعاظمت هيمنة المدينة على الريف .

اما عن الشعوب التاريخية فلنقل للحال اننا لا نستطيع ولا يجوز لنا بتاتا استعمال كلمة «عرق» بصددها . ونحن لا نعرف اي شعب تاريخي يمكن وصفه بصفاء العرق . فكل شعب منها

(*) كمدخل الى تاريخ الفن ، راجع في هذا الموضوع فاهلم لوبكه الذي توجد له ترجمة روسية («دراسات في تاريخ الفن» ـ ن.س) .

(**) انظر لدى داروين الصفحات ٥٨٢ ـ ٥٨٥ من «اصل الانسان» ، لندن ١٨٨٣ .

هو محصلة مزاوجات طويلة الامد ومخالطات بعيدة الشأو بين العناصر الاثنية .

الا حاولوا بعد ذلك ان تحددوا تأثير «العرق» على تاريخ الايديولوجيات !

يبدو للوهلة الاولى انه لا شيء أمتن وأصح من فكرة تأثير الوسط الطبيعي على المزاج القومي ، وبوساطة هذا المزاج ، على التطور الفكري والجمالي للامة . لكن حسب لابريولا ان يستذكر تاريخ بلاده بالذات كي يقتنع بخطئه . فالايطاليون المعاصرون يعيشون في الوسط الطبيعي عينه الذي كان يعيش فيه قدامى الرومان . ومع ذلك ، لا يكاد يكون هناك من شبه بين «مزاج» مقهوري عدوة الحاليين وبين «مزاج» قاهري قرطاجة الاشاوس (٢٠) . ولو عنّ ببالنا ان نفسر بالمزاج الايطالي تاريخ الفن الايطالي على سبيل المثال ، لأوقفتنا بسرعة مشكلة العلل التي أدت الى طروء تبدلات بالغة العمق على ذلك المزاج في عصور شتى وفي مختلف أرجاء الجزيرة الايطالية .

يقول مؤلف **«مقالات في الحقبة الغوغولية من الادب الروسي»** (٢١) في واحدة من ملاحظاته حول الكتاب الاول من **«الاقتصاد السياسي»** لستيوارت ميل :

---

٢٠ – يقيم بليخانوف هنا مقابلة بين هزيمة ايطاليا في حرب فتح الحبشة عام ١٨٩٥ – ١٨٩٦ ، وبين انتصار روما على قرطاجة ، المركز التجاري العظيم الغنى في افريقيا الشمالية ، في حروب القرنين الثالث والثاني قبل الميلاد.

«ن.س»

(وعدوة مدينة اثيوبية شهدت موقعة فاصلة عام ١٨٩٦ انتصر فيها منليك الثاني على الايطاليين . «م») .

٢١ – اي تشيرنيشفسكي . «م»

«لن نقول ان العرق لم تكن له اي اهمية البتة : فتقدم علوم الطبيعة والتاريخ لم يفضِ بعد الى دقة كبرى في التحليل يمكن الجزم معها بلا تحفظ في العديد من الحالات بأن ذلك العنصر لا وجود له البتة هنا . من يستطيع القول انه لا وجود في هذه الريشة الفولاذية لجزيئة من البلاتين ؟ ان نفي ذلك نفيا قاطعا لمستحيل ، لكن في مقدورنا ان نكون على ثقة من شيء واحد ، وهو ان التحليل الكيمياوي لتركيب هذه الريشة يكشف عن وجود عدد هائل من الجزيئات التي ما هي من البلاتين، وان كمية البلاتين التي يمكن اكتشافها فيها لامتناهية الصغر الى اقصى حد ممكن تصوره ، وأنه حتى لو كانت هذه الكمية موجودة فلن يكون ثمة داعٍ لاقامة اي وزن لها من وجهة النظر العملية ... واذا كان النشاط العملي هو بيت القصيد ، فليكن موقفكم من المسألة كموقفكم عادة من ريشات الفولاذ . عمليا ، لا تدخلوا في حسابكم عرق البشر ، بل عاملوهم فقط كبشر ... لعل عرق شعب من الشعوب قد مارس تأثيره على واقع أن هذا الشعب موجود في الوقت الحاضر في هذا الوضع ، لا في ذاك . يستحيل نفي ذلك نفيا قاطعا. والتحليل التاريخي لم يبلغ بعد دقة الرياضيات المطلقة . فبعد هذا التحليل ، كما بعد التحليل الكيمياوي الحديث ، تبقى ثمة رسابة طفيفة للغاية تستدعي طرائق أدق في البحث ، غير متاحة بعد للعلم الحديث . لكن هذه الرسابة زهيدة للغاية . وفي تكوين شعب من الشعوب في وضعه الراهن ، يرجع القسط الاعظم الى تأثير الظروف المستقلة عن الصفات العرقية الطبيعية ، بحيث انه حتى لو كان ثمة وجود ايضا

لتلك الصفات الخاصة، المتميزة عن الطبيعة الانسانية بوجه عام ، فلن يتسع كبير مجال لفعلها وتأثيرها ، ولن يكون لها الا مجال مجهري يعصى على القياس» .

لقد تذكرنا هذا المقطع ونحن نطالع تأملات لابريولا حول موضوع تأثير العرق على تاريخ التطور الفكري للانسانية . وقد كان مؤلف **«مقالات في الحقبة الفوغولية»** يهتم بدور العرق من وجهة نظر عملية على الاخص . لكن يتوجب ايضا على اولئك الذين تشغلهم الابحاث النظرية الخالصة ان يبقوا ما قاله بهذا الصدد ماثلا امام أعينهم . فالعلوم الاجتماعية لن تجني الا كل ما فيه فائدة لها ومنفعة اذا ما تخلينا اخيرا عن تلك العادة السيئة التي ترمي على عاتق العرق بكل ما يبدو لنا غير مفهوم في التاريخ الفكري لشعب من الشعوب . ليس متعذرا ان تكون الخواص العرقية قد مارست هي الاخرى تأثيرا ما على هذا التاريخ . لكن هذا التأثير الافتراضي كان في أرجح الظن في غاية من الضآلة بحيث يخلق بنا ، لصالح البحث بالذات ، ان نعتبره معادلا صفرا وأن نرى الى الخصوصيات الملحوظة في تطور شعب من الشعوب مجرد محصلة للشروط التاريخية الخاصة التي تم فيها هذا التطور ، بدل ان نرى فيها نتيجة لتأثير العرق .

صحيح اننا نصادف حالات عديدة يتعذر فيها تعيين مصدر الخصوصيات موضوع البحث . لكن ما يفلت اليوم من طرائقنا في البحث العلمي لا مناص له من ان ينصاع لها غدا . اما التعلل بالخواص العرقية فغير مناسب ، لانه يعني ايقاف البحث حيث ينبغي بالضبط ان يبدأ . لماذا لا يشبه تاريخ الشعر الفرنسي تاريخ الشعر الالماني ؟ سيقال لنا : لسبب في منتهى البساطة ، وهو ان مزاج الشعب الفرنسي كان يحول بين هذا

الشعب وبين ان ينجب رجالا من أمثال ليسنغ او شيللر او غوته . ألا شكرا جزيلا لهذا التفسير ! فقد فهمنا كل شيء ...

لو شاء لابريولا ان يرد لرد في أرجح الظن بأنه هو الآخر لا يميل الا بأدنى قدر مستطاع الى هذه التفسيرات التي لا تفسر شيئا . وهو يفهم جيد الفهم بوجه عام بطلان شبائه هذه التفسيرات ، ويعرف حق المعرفة من اي جانب ينبغي التطرق الى نظائر هذه المشكلات . لكنه اذ يسلم بأن تطور الشعوب الفكري تعقده خواصها العرقية ، يجازف بأن يقود اولئك الذين يقرأون له الى خطأ فادح ، ويظهر ميلا الى الاخذ ، على الاقل بصدد بعض التفاصيل التافهة، بطرائق بالية في التفكير، وضارة بعلم المجتمعات ، وانما على هذه التجاوزات تتركز ملاحظاتنا .

ان لنا من الاسباب ما يحملنا على الحكم بالبلى على الفكرة القائلة بأن للعرق دورا في تاريخ الايديولوجيات . فهي بالفعل محض وجه من وجوه النظرية التي كانت واسعة الانتشار في القرن الثامن عشر والتي تقول ان كل مجرى التاريخ يتفسر بخواص الطبيعة الانسانية . ويقف التصور المادي للتاريخ على طرفي نقيض مع هذه النظرية . فطبقا للافكار الجديدة ، تتباين طبيعة الانسان الاجتماعي **بتباين العلاقات الاجتماعية** . وعليه ، لا يمكن للخواص العامة للطبيعة الانسانية ان تفسر التاريخ . والحال ان لابريولا ، وهو نصير متحمس وراسخ اليقين للتصور المادي للتاريخ ، قد أقر الى حد ما – حد واهٍ للغاية – ببعض القيمة للنظرية القديمة . وكما يقول الالمان : «من يقل أ يجب ان يقول ايضا ب» . وإقرار لابريولا بقيمة النظرية القديمة في حالة من الحالات ، يرغم لابريولا على الاقرار بها في حالات اخرى . فهل من حاجة الى الايضاح بأن هذا الزواج بين تصورين متناقضين لا يمكن ان يعود بغير الضرر على انسجام البنيان ؟

يتحدد تنظيم كل مجتمع بحالة القوى الانتاجية في هـــذا المجتمع . وأي تغير في هذه الحالة يرافقه بالضرورة ان عاجلا او آجلا تغير في التنظيم الاجتماعي . ويكون هذا التنظيم فـــي حالة من التوازن غير المستقر حيثما تتطـــور قوى الانتـــاج الاجتماعية . ويشير لابريولا بسداد عظيم الى ان عدم الاستقرار هذا ، مضافا اليه صراع الطبقات والحركات الاجتماعية المتأتية عن هذا الصراع ، هو الذي يحمي البشر مـــن الركود الفكري . يقول متبنيا فكرة اقتصادي الماني مشهور (٢٢) : ان التصارع هو العلة الرئيسية للتقدم . لكنه سرعان ما يبدي ايضا تحفظا : فمن فادح الخطأ ان نتصور ان الناس يفهمون أينما كان وفي الاحوال جميعا وضعهم ، وأنهم يرون بوضوح المشكلات الاجتماعية التـــي يطرحها عليهم هذا الوضع . ويردف قائلا : من يفكر هذا التفكير «فإنما يفترض المستبعد الحدوث ، بله اللاموجود» .

واننا لنرجو القارىء انْ يولي هذا التحفظ كبير عنايته .

يشرح لابريولا فكرته بالعبارات التالية :

«لقد كانت الاشكال القانونية والافعال السياسيـــة ومحاولات التنظيم الاجتماعي ـ ولا تزال الى يومنا ـ تارة موفقة وطورا مغلوطة ، اي غير متناسبة وغـــير مناسبة . ان التاريخ مليء بالاخطاء ، مما يعني انه اذا كان كل شيء ضروريا ، بالنظر الى الذكاء النسبـــي لاولئك الذين كان عليهم انيذللوا صعوبة او ان يجدوا

---

٢٢ ـ اي كارل ماركس . «ن.س»

حلا لمعضلة محددة ، الخ ، وأنه اذا كان لكل شيء سبب كاف ، فما كان كل شيء بالمقابل بمعقول ، بالمعنى الذي يسبغه المتفائلون على هذه اللفظة . ومع مر الزمن ، امكن للعلل المحدّدة للتبدلات كافة ، اي الشروط الاقتصادية المعدّلة ، ان توجد في نهاية المطاف ، بطرق ملتوية للغاية احيانا ، الاشكال القانونية الموائمة والانظمة السياسية المتكيفة وأنماط التوافق الاجتماعي القريبة بقدر او بآخر الى ان تكون مثلى . لكن لا يجوز لنا ان نتصور ان حكمة الحيوان العاقل الغريزية قد تجلت وتتجلى ، هكذا وببساطة ، في الفهم الكامل والواضح للمواقف جميعا ، وأنه لا يبقى علينا بكل بساطة ان نفعل من شيء آخر غير سلوك طريق الاستدلال من الوضع الاقتصادي الى سائر الاوضاع الاخرى . ان الجهل ــ القابل بدوره للتفسير ــ هو سبب وجيه من اسباب الكيفية التي صنع بها التاريخ ؛ والى الجهل ينبغي ان نضيف الحيوانية التي لم تقهر قهرا كاملا قط ، والاهواء جميعا والمظالم كافة ، وشتى أشكال الفساد التي كانت وتبقى النتيجة المحتومة لمجتمع منظم على نحو تكون معه سيطرة الانسان على الانسان محتمة ، وعلى نحو ترتبط معه هذه السيطرة لا محالة بالكذب والنفاق والعجرفة والجبن . انبوسعنا ، من غير ان نكون طوباويين ... ان نتوقع ، ونحن نتوقع بالفعل ، قيام مجتمع يتطور بدءا من المجتمع الراهن وتناقضاته بموجب القوانين المحايثة للصيرورة التاريخية ويفضي الى تشارك خلو من التناحرات الطبقية ، الشيء الذي ستكون نتيجته ان الاقتصاد المنظم سيقصي من

الحياة المصادفة التي تتكشف الى يومنا هذا في التاريخ على انها علة متعددة الاشكال للحوادث الطارئة وللمصادمات . ولكن ذلك هو المستقبل ، وليس لا الحاضر ولا الماضي ...» (*) .

ان هذا الكلام ينطوي على قدر كبير من الصواب . لكن التداخل الاعتباطي لما هو صحيح بما هو مغلوط يضفي على الحقيقة في هذه الفقرة شكل مفارقة لا تتسم على الدوام بالتوفيق .

ان لابريولا محق تماما في قوله ان الناس لا يفهمون وضعهم الاجتماعي على الدوام بجلاء ، وانهم لا يعون على الدوام بوضوح المشكلات التي تتأتى عن ذلك . لكنه حين يتعلل ، تفسيرا لذلك، بالجهل او الخرافة كعلة تاريخية اظهرت الى حيز الوجود الكثير من العادات والعديد من اشكال الجماعية ، يرجع من دون ان يلحظ ذلك الى وجهة نظر الفلاسفة . فقبل ان نضع الجهل في عداد العلل الرئيسية التي تفسر لنا زعما «الكيفية التي صنع بها التاريخ» ، ينبغي ان نحدد ما المعنى الذي يمكن به استخدام هذه الكلمة هنا . ويخطىء خطأ فادحا من يعتقد ان هذه الكلمة مفهومة من تلقاء نفسها . فما الاشياء بواضحة ولا ببسيطة الى حد ما هو ظاهر . لنرَ الى فرنسا في القرن الثامن عشر . لقد كان جميع الناطقين بلسان الطبقة الثالثة يتطلعون بحرارة الى الحرية والمساواة . ولقد كانوا يطالبون ، لبلوغ هذا الهدف ، بإلغاء عدد كبير من المؤسسات الاجتماعية المتقادم عليها الزمن . لكن الغاء هذه المؤسسات كان يعني انتصار الراسمالية التي لا تشبه من قريب او بعيد ، كما نعلم اليوم حق العلم ، ملكوت الحرية

(*) «مقالات ...» ، ص ۱۸۳ ـ ۱۸٥ .

والمساواة . وعليه ، يمكن القول ان **فلاسفة** القرن الثامن عشر لم يبلغوا هدفهم النبيل . ويمكن القول ايضا انهم ما عرفوا ان يحددوا الوسائل الواجبة لبلوغه . من الممكن اذن وصمهم **بالجهل** ، كما فعل العديد من الاشتراكيين الطوباويين . ان لابريولا يأخذه العجب ازاء التناقض بين ميل فرنسا **الاقتصادي** الواقعي عصرئذ وبين المثل الاعلى لمفكريها . يهتف قائلا : «ما أغربه من مشهد وما أعجبه من تضاد !» . لكن ما الغريب والعجيب في ذلك ؟ فيمَ يكمن جهل **الفلاسفة** ؟ أفي انهم كانوا ينظرون الى وسائل تحقيق السعادة العامة غير نظرتنا اليها اليوم؟ لكن ما كان ثمة مكان عهدئذ لوسائل اليوم : اذ لم يكن ارتقاء البشرية ، وبتعبير أدق **تطور قواها الانتاجية ، قد خلقها بعد** .

اقرأوا **«شكوك برسم الفلاسفة الاقتصاديين»** لمابلي (٢٣) ، اقرأوا **«دستور الطبيعة»** لموريلي (٢٤) ، تلحظوا ما يلي : فلأن هذين الكاتبين كانا لا يتفقان في الرأي مع الغالبية العظمى من **الفلاسفة** حول شروط السعادة الانسانية ، ولانهما كانا يحلمان بالغاء الملكية الخاصة ، واضعين نفسيهما على هذا النحو في تناقض صارخ مع متطلبات الشعب الاساسية والجوهرية في عصرهما من جهة اولى ، ومع وعيهما لهذا التناقض وعيا غامضا من الجهة الاخرى ، كانا هما بذاتهما يعدّان أحلامهما **غير قابلة للتحقيق على الاطلاق** . فيمَ كان يكمن اذن ، لنكرر القول ، جهل **الفلاسفة** ؟ أفي انهم كانوا يعون ضرورات عصرهم الاجتماعية

---

٢٣ ـ غبرييل بونو دي مابلي (١٧٠٩ ـ ١٧٨٥) : مؤرخ وفيلسوف فرنسي، من رواد الشيوعية الطوباوية . «م»

٢٤ ـ موريلي : كاتب فرنسي . مؤلف «غرق الجزر العائمة» (١٧٥٣) و«دستور الطبيعة» (١٧٥٥) ، من اجرأ رواد الشيوعية الطوباوية . «م»

ويشيرون بسداد الى وسائل مواجهتها (الغاء الامتيازات ، الخ)، ويعزون في الوقت نفسه اهمية مسرفة الى هذه الوسائل ليجعلوا منها سبيلا الى سعادة الجميع ؟ ليس هذا ، وايم الحق ، بجهل خطير ، بل ينبغي القول ، من وجهة النظر العملية ، ان هذا الجهل ما كان عديم الجدوى ، **لان الفلاسفة** ما زادهم اعتقادهم بالقيمة العامة الشاملة للاصلاحات المطلوبة من قبلهم الا اصرارا على ضمان الانتصار لها .

لقد دلل **الفلاسفة** على جهل لا جدال فيه من حيث انهم لم يعرفوا ايضا كيف يجدون الخيط الذي يربط صبواتهم وأفكارهم بوضع فرنسا الاقتصادي عصرئذ ، ومن حيث انهم لم يشتبهوا ولو مجرد اشتباه في وجود ذلك الخيط . لقد كانوا يعدون انفسهم الناطقين بلسان حقيقة **مطلقة** . ونحن نعلم اليوم ان لا وجود لحقيقة مطلقة ، وان كل شيء نسبي ، وأن كل شيء رهن بظروف الزمان والمكان . ولكن لهذا على وجه التحقيق ينبغي ان نحاذر دمغ عصر تاريخي بـ «الجهل» . فجهل كل عصر من العصور ، بحكم من انه يتجلى في الحركات والصبوات والمثل العليا الاجتماعية الخاصة بهذا العصر ، **يكون هو الآخر نسبيا** .

- ٩ -

كيف ترى القواعد القانونية النور ؟ يمكن القول ان كل قاعدة من هذا النوع تفسخ او تعدل قاعدة قديمة او عرفا سابقا . لكن لماذا تفسخ القواعد القديمة والعادات القديمة ؟

لانها تكف عن التطابق مع «الشروط» الجديدة ، اي مع

العلاقات الفعلية الجديدة التي يعقد الناس أواصرها فيما بينهم في عملية الانتاج الاجتماعية . لقد زالت الشيوعية البدائية بفعل تنامي القوى الانتاجية . لكن هذه القوى لا تتنامى الا رويدا رويدا . وبالتالي لا تتطور الا رويدا رويدا ايضا علاقات فعلية جديدة في عملية الانتاج الاجتماعية . وبالتالي لا يتطور الا رويدا رويدا كذلك الطابع الجائر للقواعد القديمة والعادات القديمة ، ومن ثم الحاجة الى اضفاء تعبير **قانوني** مطابق على العلاقات **الفعلية** الجديدة لـ (العلاقات الاقتصادية) بين البشر . ولا تأتي الحكمة الغريزية للحيوان العاقل الا بعد التبدلات الفعلية . واذا حالت القواعد القانونية القديمة بين جزء معين من المجتمع وبين بلوغ اهدافه في الحياة وتلبية حاجاته الاساسية ، وعى هذا الجزء من المجتمع بالحتم والضرورة وبسهولة كبيرة الطابع الجائر للقواعد المذكورة : وهو لن يحتاج في ذلك الا الى مقدار من الفكر يزيد بنزر طفيف على مقدار ما يحتاج اليه منه ليلاحظ ما يسببه له من ازعاج حذاء ضيق او سلاح ثقيل اكثر مما ينبغي ، لكن يبقى ثمة بون لا يستهان به بين وعي جور قاعدة من القواعد القانونية وبين **ارادة فسخها الواعية** . ففي البداية يكتفي الناس بمحاولة الالتفاف عليها في كل حالة عينية . تذكروا كيف سارت الامور لدينا ، في الاسر الفلاحية الكثيرة التعداد ، حين ظهرت تحت تأثير الرأسمالية الوليدة مصادر جديدة للمداخيل غير متماثلة بالنسبة الى مختلف اعضاء الجماعة . فمنذ ذلك اليوم اضحى القانون العائلي العرفي جائرا بالنسبة الى المحظوظين الذين يكسبون اكثر من غيرهم . لكن هؤلاء المحظوظين لم يعقدوا العزم لا بسهولة ولا بسرعة على التمرد على العرف القديم . واكتفوا لحقبة مديدة من الزمن بالمراوغة ؛ مخفين عن الاسلاف جزءا من دخلهم . بيد ان النظام الاقتصادي الجديد راح يتوطد شيئا فشيئا ؛ وراح يتضح اكثر فأكثر ان العادات

العائلية القديمة تميد وتوشك ان تتهاوى . اما اعضاء الاسرة الذين لهم مصلحة في الغائها فقد صاروا يرفعون رؤوسهم ويشمخون بأنوفهم اكثر فأكثر ؛ وتكاثرت كذلك الحالات التي يلجأ فيها الى القسمة ؛ واخيرا زالت العادة القديمة ، لتحل محلها عادة جديدة ولدت من شروط جديدة ، من علاقات **فعلية** جديدة ، من **حالة اقتصادية** جديدة للمجتمع .

ان تقدم وعي الناس بوضعهم يتأخر بوجه عام بقدر او بآخر عن تقدم العلاقات الفعلية الجديدة التي تعدل هذا الوضع وتغيره. ولكن الوعي ، في الاحوال جميعا ، يتبع العلاقات الفعلية . فحيثما لا يتواجد الا طموح واع واهن الى الغاء المؤسسات القديمة والى ارساء أسس نظام قانوني جديد ، يكون مرد هذا الوهن الى ان **الاقتصاد الاجتماعي لا يكون بعد قد أعد العدة الكافية** لهذا النظام القانوني الجديد . وبعبارة اخرى ، ان ضبابية الوعي وأخطاء الفكر الذي لما يتضح بعد ، وبكلمة واحدة «الجهل» ، كل ذلك ينم في كثير من الاحيان عن شيء واحد ، هو ان الموضوع الواجب ان يوعى ، اي **العلاقات التي في سبيلها الى التكون** ، لما يتطور بعد بما فيه الكفاية . بيد ان جهلا من هذا النوع ، اي عدم فهم ما لا وجود له بعد وما لا يزال قيد الولادة والنشوء ، هو بكل بداهة جهل **نسبي** تماما .

ثمة ضرب آخر من الجهل : الجهل ازاء الطبيعة . ومن الممكن وصفه **بالمطلق** . ويقاس **بسلطان الطبيعة على الانسان** . وبما ان تطور القوى الانتاجية يؤدي الى سلطان اعظم **للانسان على الطبيعة** ، فمن البديهي ان نمو القوى الانتاجية يؤدي الى تناقص في الجهل المطلق . ان ظاهرات الطبيعة التي لا يفهمها الانسان ، والتي تفلت لهذا السبب من نطاق سلطانه ، تتولد عنها خرافات شتى . وفي طور معين من الرقي الاجتماعي تختلط التصورات الخرافية اختلاطا شديدا بالمفاهيم القانونية

والاخلاقية ، مضفية عليها لونا خاصا (*) . ولا يندر ان تلعب الافكار الدينية دورا كبيرا في الصراع الذي ينشب بنتيجة ظهور علاقات فعلية جديدة بين الناس في عملية الانتاج الاجتماعية . فالمجددون والمحافظون على حد سواء يستنجـــدون بالآلهة ، ويضعون هذه المؤسسة او تلك تحت حمايتها، هذا اذا لم يفسروا هذه المؤسسات بتجلٍ للارادة الالهيـــة . ومن المفهـــوم ان الاومينيديات ، اللائي كان الاغريق يعتبرونهن حاميات حق الام ، لم يفعلن شيئا للدفاع عنه اكثر مما فعلت اثينا من أجل انتصار السلطة الابوية التي كان يقال انها تعز عليها . والحق أن الناس، باستنجادهم بالآلهة والاصنام، قد بددوا سدى وقتهم وجهدهم .

(*) يكتب مكسيم كوفاليفسكي في «القانون والعادات في القفقاس» يقول: «يقودنا تحليل المعتقدات الدينية والخرافات لدى البشافيين الى الاستنتاج بأن هذا الشعب مكث الى يومنا هذا ، تحت ستار الاورثوذكسية الرسمي ، في ذلك الطور من التطور الذي سماه تايلور ـ وأحسن تسميته ـ بالارواحية . ومعروف ان هذا الطور يقترن عادة بخضوع الاخلاق العامة والقانون على حد سواء خضوعا تاما للدين» (م٢ ، ص ٨٢) .

غير ان الارواحية البدائية لا تمارس لسوء الحظ ، فـي تصور تايلور ، اي تأثير على الاخلاق او على القانون . ففي ذلك الطور من التطور لا يكون ثمة وجود لاي علاقة بين الاخلاق والقانون ، او اذا وجدت فهي علاقة جنينية فـي احسن الاحوال . وخلاصة ما يقوله : ان الارواحية المتوحشة عارية بصورة شبه تامة من ذلك العنصر الاخلاقي الذي يشكل ، في نظر كل متدين ، جوهر كل دين عملي . وفي رأيه ان القوانين الاخلاقية لها اساسها الخاص بها (انظـر «الحضارة البدائية» ، باريس ١٨٧٦ ، م٢ ، ص ٤٦٤ ـ ٤٦٥) . وعليه ، من الاصح ان نقول ان الخرافات الدينية لا تختلط بالمفاهيم الاخلاقية والقانونية الا في درجة راقية نسبيا من التطور الاجتماعي . ويؤسفنا ألا يتسع المجال هنـا لكي نوضح كيف تفسر المادية المعاصرة هذه الواقعة .

بيد ان الجهل الذي كان يتيح للاغريق ان يؤمنوا بالاومينيديات لم يمنع المحافظين الاثينيين من ان يفهموا ان النظام القانوني القديم (وبتعبير أدق ، العرف القديم) كان يقدم ضمانات افضل لمصلحتهم . وعلى كل ، لم تحل الخرافة التي كانت تسمح بعقد الرجاء على الإلهة اثينا بين المجددين وبين اكتشاف سيئات العادات القديمة .

ما كان الداياك من سكان بورنيو يعرفون استخدام الاسفين لشق الخشب . ولما حمله الاوروبيون معهم ، حظرت السلطات الاهلية علنا ورسميا استعماله (*) . وكان هذا في الظاهر دليلا على جهلهم ؛ فهل أبعد عن العقل من الامتناع عن استخدام اداة تسهل العمل ؟ لكن أمعنوا النظر في الامر مليا ، تروا انه في مستطاعنا العثور على ظروف تخفيفية . فقد كان تحظير استخدام اداة عمل اوروبية في اغلب الظن مظهرا من مظاهر الكفاح ضد التأثير الاوروبي الذي كان قد شرع يهز البنى الاهلية القديمة . وكانت السلطات المحلية تعي على نحو غامض ان الاخذ بالعادات الاوروبية لن يترك حجرا على حجر من تلك البنى . وكان الاسفين ، اكثر من أي اداة اخرى ، يذكر بالطابع المدمر للتأثير الاوروبي . فكان ان حظرت السلطات علنا ورسميا استعماله .

لماذا بدا الاسفين في نظرها رمزا للتجديدات المحفوفة بالاخطار ؟ لا نستطيع اعطاء جواب مرض على السؤال ، فنحن لا نعرف الاسباب التي جعلت صورة الاسفين تقترن في ذهن اهالي البلاد بصورة الخطر الذي يتهدد عاداتهم القديمة . لكننا نستطيع الاجابة بكل ثقة ويقين بأن الاهالي ما كانوا مخطئين في

(*) تايلور : «الحضارة البدائية» ، باريس ١٨٧٦ ، م١ ، ص ٨٢ .

خوفهم على متانة البنى القديمة : فالتأثير الاوروبي يشوه على نحو بالغ السرعة والشدة عادات المتوحشين والهمج ، هذا اذا لم يدمرها تدميرا .

يوضح تايلور ان الداياك ، في الوقت الذي ادانوا فيه عاليا وجهارا استعمال الاسفين ، كانوا يستخدمونه متى ما استطاعوا الى ذلك سبيلا بدون علم الآخرين . وهكذا يأتي «الرياء» ليعاضد الجهل . لكن ما كان مصدره ؟ لقد تولد ، كما تشير الظواهر ، عن وعي حسنات الاداة الجديدة ، مقرونا بالخوف من الرأي العام او من الاضطهاد من قبل السلطات . هكذا تكون الحكمة الغريزية للحيوان العاقل قد انتقدت بنفسها التدبير الذي كانت قد أملته بنفسها ايضا . ولقد كانت على حق في توجيهها هذا الانتقاد : فخطر التأثير الاوروبي لا يبعد بتحظير استعمال الادوات الاوروبية .

وبوسعنا القول ، فيما لو اخذنا بمصطلحات لابريولا ، ان التدبير الذي لجأ اليه الداياك كان تدبيرا غير مناسب وغير متناسب مع الموقف . ولن نكون الا على اتم صواب في هذه الحال . وبوسعنا ان نضيف الى ملاحظة المؤلف هذه ملاحظة اخرى مؤداها ان البشر غالبا ما يتخيلون من أشباه هذه الاجراءات غير المناسبة وغير المتناسبة . لكن ماذا يترتب على ذلك ؟ يترتب فقط انه ينبغي علينا ان نبحث عما اذا لم تكن هناك علاقة تبعية وارتباط بين هذا النوع من الخطأ وبين درجة تطور العلاقات الاجتماعية . وجلي ان هذه العلاقة موجودة . يقول لنا لابريولا ان الجهل يمكن بدوره ان يفسر ؛ وسنضيف نحن القول بأنه **ليس من الممكن فحسب ، بل من الواجب ايضا تفسيره متى ما غدا علم المجتمعات اهلا للتحول الى علم دقيق .**
وان يكن من الممكن تفسير «الجهل» بعلل اجتماعية ، فلا طائل من التعلل به ، ولا جدوى من القول انه يقدم سببا لـ «الكيفية التي صنع بها التاريخ» . فمفتاح المسألة لا يكمن هنا ، وانما في العلل

الاجتماعية التي تولّد هذا الجهل وتضفي عليه هذا الطابع بدلا من ذلك . فما الداعي الى الحد من ابحاثنا برجوعنا الى الجهل الذي لا يفسر شيئا ؟ **ان الرجوع الى الجهل ، في تصور علمي للتاريخ ، ينم فقط عن الجهل بالتاريخ .**

- ١٠ -

تحامي كل قاعدة من قواعد القانون الوضعي عن مصلحة معينة ، لكن من اين تأتي المصالح ؟ هل هي معلول للارادة وللوعي الانسانيين؟ كلا ، وانما توجدها العلاقات الاقتصادية بين البشر. وما ان تظهر هذه المصالح الى حيز الوجود حتى تنعكس بصورة او بأخرى في **وعي** البشر . وحتى يحامي الانسان عن مصلحة من المصالح ، ينبغي ان يكون على وعي بها . وعليه ، يمكن اعتبار كل نظام من الانظمة القانونية الوضعية نتاجا للوعي (*) . وليس

(*) «القانون ، بخلاف القوى الطبيعية التي تسمى مادية ، ليس شيئا يوجد مستقلا عن الافعال الانسانية ... بل على النقيض من ذلك ، فالقانون نظام أسسه البشر من اجل انفسهم . ومن غير المهم هنا ان يكون الانسان خاضعا في نشاطه لقانون السببية او انه يتصرف بحرية ، على هواه . ففي الحالين جميعا ، حال قانون السببية او حال قانون الحرية ، لا يتم ابتداع النظام القانوني مستقلا عن النشاط الانساني ، بل يتم ابتداعه من قبل هذا النشاط بالذات ، وبوساطة هذا النشاط بالذات» (نيقولاس كوركونوف: «دروس في نظرية القانون العامة» ، سان بطرسبورغ ، ١٨٩٤ ، ص ٢٧٩) . هذا صحيح مطلق الصحة ، وان جاء التعبير في منتهى السوء . لكن السيد كوركونوف نسي ان يضيف ان المصالح التي يحامي عنها القانون «لا يبتدعها البشر من اجل انفسهم» ، وانما تتحدد بعلاقات البشر فيما بينهم في عملية الانتاج الاجتماعية.

وعي البشر هو الذي يولّد المصالح التي يحميها القانون ، وليس هذا الوعي هو الذي يحدد بالتالي مضمون القانون . لكن حالة الوعي الاجتماعي (السيكولوجيا الاجتماعية) في عصر بعينه تحدد **الاشكال التي يرتديها في الدماغ البشري انعكاس تلك المصلحة .** واذا لم نأخذ في اعتبارنا حالة الوعي الاجتماعي ، فلن نستطيع البتة ان نفسر لانفسنا تاريخ القانون .

ينبغي على الدوام ان نميز بعناية **المضمون** من **الشكل** في هذا التاريخ . فالقانون ، نظير كل أيديولوجيا ، يتعرض من منظور **الشكل** لتأثير سائر الايديولوجيات الاخرى أو قسم منها على الاقل : المعتقدات الدينية ، المفاهيم الفلسفية ، الخ . وهذا الظرف كافٍ الى حد ما ، وأحيانا الى حد كبير ، ليؤخر اكتشاف رابطة التبعيةَ التي تربط مفاهيم الناس القانونية بعلاقاتهم في سيرورة الانتاج الاجتماعية. لكن ليس هذا الا نصف المحذور(*). اما المحذور الحقيقي فهو ان **كل ايديولوجيا تتعرض ، في مراحل متباينة من التطور الاجتماعي ، وعلى نحو متباين للغاية ، لتأثير**

(*) كثيرا ما يعدّ السيد كوفاليفسكي القانون ثمرة للافكار الدينية ، رغم ما لهذا من انعكاس فادح الضرر حتى على مؤلفات من أشباه «القانون والعادات في القفقاس» . والحق انه ينبغي سلوك نهج مغاير تماما في البحث ، وقد كان على السيد كوفاليفسكي ان يعتبر المعتقدات الدينية لشعوب القفقاس ومؤسساتها القانونية على حد سواء ثمرة لعلاقاتها الاجتماعية في عملية الانتاج، كما كان عليه ، بعد ان يسلط الضوء على تأثير احدى الايديولوجيتين على الاخرى ان يبذل جهده لاكتشاف العلة الوحيدة لهذا التأثير . وقد كان المفروض بالسيد كوفاليفسكي ان ينحو هذا المنحى في البحث ما دام يعترف في مؤلفات اخرى اعترافا صريحا برابطة السببية التي تربط القواعد القانونية بوسائل الانتاج .

الايديولوجيات الاخرى . فقد كانت الحقوق المصرية القديمة ، والى حد ما الحقوق الرومانية ، خاضعة للدين . وفي التاريخ الحديث تطورت الحقوق (نكرر القول ، ونرجو الا ينسى القارىء ذلك : من وجهة النظر **الشكلية**) تحت تأثير الفلسفة البالغ القوة. وقد كان على الفلسفة ، كي تنحي جانبا تأثير الدين على الحقوق وتحل محله تأثيرها هي ، ان تشن كفاحا مرا . وكان هذا الكفاح مجرد انعكاس مثالي للنضال الاجتماعي الذي خاضت غماره الطبقة الثالثة ضد رجال الدين ؛ بيد انه أعاق مع ذلك الى حد كبير انشاء افكار صحيحة عن اصل المؤسسات القانونية ، اذ ان هذه المؤسسات بدت ، بنتيجة ذلك الكفاح ، وكأنها الثمرة الواضحة والاكيدة لصراع بين المفاهيم المجردة . ومن نافل القول ان لابريولا يفهم عميق الفهم بوجه عام نوع العلاقات الفعلية الذي يختبىء وراء صراع المفاهيم . لكنه ما أن ينتقل الى التفاصيل حتى تخفض ماديته جناحها حيال الصعاب والعقبات ، ويكتفي المؤلف ، كما رأينا ، بالتعلل بالجهل او بقوة التقاليد . ناهيك عن انه ينزل ايضا «الرمزية» منزلة العلة الاولى العديد من العادات .

أن الرمزية لهي بالفعل «عامل» لا يمكن البتة اسقاطه من الحساب في تاريخ بعض الايديولوجيات ، لكنها لا تصلح لحمل لقب العلة الاولى للعادات . لنتأمل مثال قبيلة البشافيين القفقاسية حيث تجز المرأة ضفيرتها عقب وفاة اخيها ، ولا تجزها اذا ما توفي زوجها . ان هذه الضفيرة رمز وبديل للعادة القديمة التي كانت توجب على المرأة التضحية بنفسها على قبر الرجل المتوفى . لكن لماذا تؤدي المرأة هذا الفعل الرمزي عند قبر الاخ، لا عند قبر الزوج ؟ يذهب السيد كوفاليفسكي الى انه «ينبغي ان نرى في ذلك بقيا متخلفة من العهد النائي الذي كان فيه اقرب ذوي الارحام ، بكر الاهل في نسب الام ، زعيم عشيرة توحدها

«أرومة مؤنثة مشتركة ، واقعية او وهمية» (*) . ويترتب على ذلك ان الافعال الرمزية لا تغدو قابلة للفهم الا متى عرفنا معنى العلاقات التي ترمز اليها وأصلها . لكن من اين تأتي هــــذه العلاقات ؟ بديهي ان ليس في الافعال الرمزية ينبغي البحث عن الجواب ، وان تكن هذه الافعال قمينة بتقديـــم بعض المؤشرات المفيدة . ان اصل العادة الرمزية القاضية بجز ضفيرة المرأة على قبر اخيها يتفسر بتاريخ الاسرة ، وتفسير تاريخ الاسرة انما ينبغي البحث عنه في تاريخ التطور الاقتصادي .

وفي الحالة التي تعنينا هنا ، لبث طقس الضفيرة المجزوزة عند قبر الاخ ساري المفعول بعد زوال شكل البنية العائلية الذي يدين له بأصله . ذلك هو مثال على تأثير التقليد الذي يشير اليه لابريولا في كتابه . لكن التقاليد لا تحفظ ألا ما هو موجود أصلا. وهي لا تعجز عن تفسير اصل طقس من الطقوس او اصل شكل من الاشكال بوجه عام فحسب ، بل تعجز ايضا حتى عن تفسير بقائهما واستمرارهما. انقوة التقاليد انما هيقوة العطالة. وكثيرا ما يحدث في تاريخ الايديولوجيات ان يتساءل المتسائل لمــــاذا استمر طقس من الطقوس او عادة من العادات على قيد الوجود ، بينما تكون قد زالت لا العلاقات التي تولدا عنها فحسب ، بل كذلك سائر الطقوس والعادات التي نشأت عن تلك العلاقات . وهذا السؤال يعدل السؤال عن السبب الذي جعل التأثير الهدام للعلاقات الجديدة يعفو عن ذلك الطقس او تلك العادة ويمحق في الوقت نفسه سائر الطقوس والعادات الاخرى . والاجابة على هذا السؤال بالتعلل بقوة التقاليد تعني الاكتفاء بترداده في شكل اثبات وتوكيد . فكيف السبيل الى الخروج من هذه الحلقـــة المفرغة ؟ بالتحول نحو **السيكولوجيا الاجتماعية** .

(*) «القانون والعادات في القفقاس» ، م٢ ، ص ٧٥ .

تزول العادات القديمة وتتبدد الطقوس القديمة حين يعقد البشر فيما بينهم علاقات جديدة . وينعكس صراع المصالح الاجتماعية في صراع الطقوس الجديدة او العادات الجديدة ضد طقوس الماضي وعاداته . وليس ثمة طقس رمزي او عادة لا يستطيعان ، **منظورا اليهما في ذاتهما** ، ان يمارسا تأثيرا ايجابيا او سلبيا على تطور العلاقات الجديدة . واذا كان المحافظون يحامون بحرارة عن العادات القديمة ، فهذا لان تصور نظام اجتماعي نافع لهم وغالٍ على قلوبهم ومألوف لديهم يرتبط في ذهنهم بتصور تلك العادات . واذا كان المجددون يمقتون هذه العادات ويتخذونها موضوعا لسخريتهم ، فهذا لان تصور هذه العادات يقترن في ذهنهم بتصور علاقات اجتماعية جائرة وضارة ومقيتة . زبدة القول ، **يرتد كل شيء هنا الى تداعي الافكار** . وحين نرى طقسا من الطقوس يبقى على قيد الحياة ليس بعد زوال العلاقات التي ولدته فحسب ، بل حتى بعد زوال الطقوس المماثلة الاصل الناشئة عن تلك العلاقات ، يتوجب علينا أن نستنتج من ذلك ان صورته لا ترتبط في أذهان المجددين ارتباطا قويا بصورة ماضٍ بغيض . لماذا ؟ من السهل أحيانا الاجابة ، ومن رابع المستحيلات احيانا اخرى ، نظرا الى عدم توفر المعلومات السيكولوجية الضرورية . لكن حتى في الحال التي يتوجب علينا فيها ان نعتبر المشكلة متعذرة الحل ، على الاقل في الوضع الراهن لمعارفنا ، ينبغي ان نتذكر ان ليست المسألة هنا مسألة **قوة التقاليد** ، وانما فقط مسألة تداعيات افكار معينة يعود اصلها الى علاقات فعلية معينة بين الناس في المجتمع .

ان تاريخ الايديولوجيات يجد الى حد كبير تفسيره في تكوّن تداعيات الافكار وتغيرها وانفراط عقدها تحت تأثير تكوّن تركيبات معينة من القوى الاجتماعية وتغيرها وانفراط عقدها .

ولم يول لابريولا هذه النقطة ما تستأهله من اهتمام . وتصوره عن الفلسفة خير شاهد على ما نقول .

- ١١ -

في رأي لابريولا ، تختلط الفلسفة منظورا اليها في تطورها التاريخي تارة باللاهوت ، وتمثل تارة اخرى تطور الفكر الانساني في علاقته بالمواضيع التي تدخل في نطاق تجربتنا . وبقدر ما تتميز الفلسفة عن اللاهوت ، تتصدى للمشكلات عينها التي يتصدى لها البحث العلمي بحصر معنى الكلمة . فإما ان تحاول استباق العلم بتقديمها فرضياتها الخاصة ؛ وإما ان تكتفي بتلخيص الحلول التي سبق ان وجدها العلم ، مع اخضاع هذه الحلول لصياغة منطقية اكثر تعمقا وتقصيا .

كل هذا صحيح بلا جدال ، ولكنه ليس بعد الحقيقة كاملة .

لنتأمل مثال الفلسفة الحديثة . يجعل ديكارت وبيكون المهمة الاساسية للفلسفة مضاعفة المعارف في علوم الطبيعة بغية تعزيز سلطان الانسان على هذه الاخيرة . تهتم فلسفة عصرهما اذن بعين المشكلات التي تهتم بها علوم الطبيعة . وقد يساور المرء الاعتقاد بأن الحلول التي تقترحها الفلسفة مرهونة بحالة هذه العلوم . وما هو كذلك واقع الحال . فحالة علوم الطبيعة في النصف الاول من القرن السابع عشر لا يمكنها ان تعلل لنا موقف ديكارت من بعض المشكلات الفلسفية ، كمشكلة الروح او غيرها. لكن هذا الموقف يجد اكمل تفسير له في حالة فرنسا الاجتماعية عصرئذ . فديكارت يقيم تمايزا صارما بين مضمار الايمان ومضمار العقل . ولا تتقصد فلسفته ان تناوىء الكاثوليكية ، بل تسعى الى توكيد صحة بعض عقائدها على ضوء اعتبارات جديدة. وهي في هذه النقطة تعكس جيدا حالة الفرنسيين النفسية

عصرئذ : فبعد النزاعات الطويلة الامد والدامية في القرن السادس عشر (٢٤) ، كان هناك تطلع الى النظام والسلام . وكان هذا التطلع يتمثل في مضمار **السياسة** بتعاطف مع الملكية المطلقة ، وفي مضمار **الفكر** بقدر من التسامح وبرغبة في تحاشي المسائل الشائكة التي تعيد الى الاذهان حروب الامس الدينية. وتندرج المشكلات الدينية في هذه الفئة من المسائل . وتلافيا للمساس بها ، كان ينبغي رسم حد فاصل بين مضمار الايمان ومضمار العقل .

هذا ما فعله ديكارت ، كما رأينا . لكن هذا التحديد للحدود ما كان كافيا . فقد كان على الفلسفة ، نزولا عند مصلحة السلم الاجتماعي ، ان تقر علنا وجهارا بحقيقة العقيدة الدينية . وهذا ما فعله ديكارت ايضا . ولهذا يستقبل العديد من القساوسة بترحاب مذهب هذا الفيلسوف ، على الرغم من انه ، في ثلاثة أرباعه على الاقل ، مادي .

من صلب فلسفة ديكارت تحدرت ، منطقيا ، مادية لامتري (٢٥) . لكن كان من الممكن ايضا استنباط نتائج **مثالية** من تلك الفلسفة . ولئن لم يفعل فرنسيو القرن الثامن عشر ذلك ، فانما لعلة اجتماعية محددة :عداء الطبقة الثالثة لرجال الدين في فرنسا عصرئذ . والحال ان فلسفة ديكارت كانت تمتح من معين الطموح والتطلع الى السلم الاجتماعي . وبالمقابل جاءت مادية القرن الثامن عشر لتبشر بانقلابات جديدة في المجتمع .

---

٢٤ ــ اشارة الى الحروب الدينية المتصلة بين الكاثوليك والبروتستانت. «م»

٢٥ ــ جوليان أوفروي لامتري : طبيب وفيلسوف مادي فرنسي (١٧٠٩ ــ ١٧٥١) ، اضطهده الكهنة . «م»

ها قد تبين لنا ان تطور الفكر الفلسفي في فرنسا لا يتفسر بتطور علوم الطبيعة فقط ، بل ايضا بالتأثير المباشر للعلاقات الاجتماعية التي كانت قيد التطور . وتتوضح الظاهرة بمزيد من الجلاء اذا نظرنا الى الفلسفة الفرنسية من منظور آخر .

نحن نعلم ان الرسالة الاساسية للفلسفة كانت في نظر ديكارت زيادة سلطان الانسان على الطبيعة . والحال ان ماديي القرن الثامن عشر الفرنسيين يعتبرون في رأس واجباتهم إحلال افكار جديدة محل بعض المفاهيم القديمة ، افكار يمكن على اساسها بناء علاقات اجتماعية جديدة ، بينما لا يرد تقريبا عندهم ذكر لزيادة القوى الانتاجية . يوجد هنا اختلاف اساسي اذن . فما مصدره ؟

كان تطور القوى الانتاجية في فرنسا في القرن الثامن عشر يعوقه اشد التعويق تقادم علاقات الانتاج وبلى المؤسسات الاجتماعية . ولم يكن ثمة بديل عن الغاء هذه المؤسسات كيما تتمكن قوى الانتاج من مواصلة تطورها . وانما في هذا الالغاء يكمن كل معنى الحركة الاجتماعية في فرنسا عصرئذ . وفي الفلسفة ، تجلت ضرورة هذا الالغاء في الصراع ضد التجريدات التي أكل الدهر عليها وشرب ، والتي كانت تمتح من معين تلك العلاقات التي اكل الدهر عليها وشرب هي الاخرى .

اما في زمن ديكارت فلم تكن علاقات الانتاج قد بليت بعد . كذلك لم تكن قد بليت المؤسسات الاجتماعية التي نشأت عنها، وما كانت تعيق تقدم القوى الانتاجية . بل العكس هو الصحيح: فقد كانت تساعد عليه وتيسّره . وهكذا ما كان يفكر احد بإلغائها عهدئذ ، وكانت الفلسفة تجعل مهمتها الفورية تطوير القوى الانتاجية ، وهي مشكلة عملية ذات اهمية قصوى بالنسبة الى المجتمع البورجوازي الوليد .

ذلك هو اعتراضنا على لابريولا. ولعل هذا الاعتراض لا طائل فيه ؛ فلعل لابريولا لم يرتكب من خطأ سوى انه لم يوفق الى

الدقة التامة في التعبير عن رأيه ، ولعله في الصميم متفق وإيانا. وهذا لن يكون الا من دواعي اغتباطنا ، لانه يطيب للانسان على الدوام ان ينال موافقة رجل ذكي . لكنه اذا لم يعطنا موافقته ، فسيؤسفنا أن نردد أن هذا الرجل الذكي مخطىء .

لعلنا ، بفعلنا ذلك ، نقدم لشيوخنا الخرفين الذانيين (٢٦) ذريعة ليهتفوا وليقهقهوا هازئين . ولعلهم سيقولون انه من العسير تمييز «الحقيقيين» من «الزائفين» بين أتباع التصور المادي للتاريخ . لكننا سنرد في هذه الحال على شيوخنا الخرفين بأنهم **انما يسخرون من أنفسهم** . ذلك انّ من استوعب نظاما فلسفيا ما ، امكنه بيسر أن يميز تلامذته الحقيقيين من الزائفين . ولو كلف السادة الذاتيون انفسهم مشقة التفكير بالتصور المادي للتاريخ ، لكانوا عاينوا بأنفسهم في اي جانب يقف «التلامذة» الحقيقيون ، وأين ينبغي البحث عن الدجالين الذين عبثا ينتسبون الى اسم كبير . لكن بالنظر الى انهم لم يكلفوا انفسهم ولا يريدون ان يكلفوا انفسهم في المستقبل عناء هذه المشقة ، فها هم وقد قضي عليهم لا محالة بألا يفقهوا شيئا البتة ، وهذا مصير مشترك بين جميع المتباطئين الذين خلّفهم جيش التقدم وراءه .

وبالمناسبة ، كلمتان حول التقدم .

أيتذكر القارىء الزمان الذي كان فيه اللوم والتقريع يوجهان الى «الميتافيزيائيين» ، يوم كانت الفلسفة تدرس لدى «ليويس» (٢٧)، هذا ان لم يكن في «الوجيز في القانون الجنائي»

---

٢٦ ـ تعبير استخدمه بليخانوف برسم الممثل الرئيسي لعلم الاجتماع الذاتي ، نيقولا ميخائيلوفسكي ، وأتباعه . «ن.س»

٢٧ ـ جورج هنري ليويس (١٨١٧ ـ ١٨٧٨) : كاتب وفيلسوف وضعي انكليزي ، ناصر الداروينية في كتاباته في الفيزيولوجيا . «م»

لمؤلفه السيد سباسوفتش (٢٨) ؟ أيتذكر الزمان الذي اخترعت فيه ، برسم القراء «التقدميين» ، تلك «الصيغ» (٢٩) اللامتناهية في البساطة حتى ليسع الطفل الذي له ثلاثة أعوام من العمر ان يفهمها ؟ آه ! ما أحلاه من زمان ! لقد مضى وتصرم ، وتلاشى كالدخان . وعادت «الميتافيزياء» تغوي العقول من جديد في روسيا . وغربت شمس ليويس . ونسي الجميع صيغ التقدم المشهورة . وما عاد يأتي لها ذكر الا في النادر النادر على لسان اكثر علماء الاجتماع المعاصرين ذاتية وأعظمهم «نباهة» وأبرزهم «مكانة» (٣٠) . وانه لمما يسترعي الانتباه ان احدا من الناس لم يلجأ اليها في الوقت الذي كانت تبدو فيه ضرورية كل الضرورة، اي حين كان الخصام ناشبا عندنا حول النقطة المتعلقة بمعرفة هل في مقدورنا الحيدان عن طريق الرأسمالية لنهج طريق اليوتوبيا . وكان طوباويونا يلوذون آنئذ بحمى رجل نصب نفسه محاميا عن «انتاج شعبي» وهمي وحاول في الوقت ذاته ايهام الناس بأنه من أتباع المادية الجدلية المعاصرة (٣١) ، تلك المادية الجدلية المغشوشة التي سرعان ما انكشف انها السلاح الوحيد الجدير بالاهتمام بين أيدي الطوباويين .

---

٢٨ ـ سباسوفتش : حقوقي روسي ليبرالي (١٨٢٩ ـ ١٩٠٦) . «م»

٢٩ ـ يشير بليخانوف هنا الى صيغ ميخائيلوفسكي التي كان قد اخضعها لنقد لاذع في كتابه «دراسة في تطور التصور الواحدي للتاريخ» . «ن.س»

٣٠ ـ المقصود هنا ميخائيلوفسكي و«صيغة التقدم» التي اوردها في واحد من مقالات شبابه : «ما التقدم ؟» . «ن.س»

٣١ ـ يقصد بليخانوف هنا نيقولا اون (دانيلسون) الذي كان يتمتع بين الشعبويين بشهرة لا يستأهلها كماركسي . «ن.س»

في مثل هذه الشروط ، كان من المفيد للغاية لو تصدى احدهم لشرح مفهوم «التقدم» لدى أنصار التصور المادي للتاريخ. صحيح انه سبق لصحافتنا ان تكلمت اكثر من مرة في الموضوع لكن المفهوم المادي الحديث عن التقدم ما يزال يفتقر ، من جهة اولى ، الى الوضوح بالنسبة الى كثيرين وكثيرين ، ولابريولا يمثّل عليه ، من الجهة الثانية ، بأمثلة موفقة للغاية ويشرحه مستعينا بتأملات عدة هي في منتهى السداد ، وان كان لا يفعل ذلك مع الاسف بصورة منهجية وكاملة على نحو ما كان يفترض فيه . افكاره تستوجب اذن بعض التكميلات . ورجاؤنا ان نتمكن من صوغها متى ما توفر لنا قدر من وقت الفراغ (٣٢) . اما الان فقد

---

٣٢ ـ تحتفظ محفوظات بليخانوف بجزء من نسخة اخرى للمقال الذي بين ايدينا ، يعرض فيه بليخانوف بمزيد من التفاصيل المفهوم المادي عن التقدم . وهاكم ما كتبه :

«من المفيد ان يعاد النظر في مسألة التقدم من وجهة نظر المادية المعاصرة. هل يوجد معيار موضوعي للتقدم ؟ يجيب الذاتويون : كلا . فليس لهذا المعيار وجود ، ولا يمكن ان يوجد ، باعتبار ان التقدم شيء نسبي تماما : فما هو في نظري تقدم يمكن ان يكون في نظرك تراجعا ، والعكس بالعكس . وفي هذا القول قدر طفيف للغاية من الحقيقة ، بالاضافة الى قدر كبير للغاية من الخطأ . فالتقدم هو بالفعل شيء **نسبي** تماما . لكن يترتب على ذلك فقط انه لا وجود لمعيار **مطلق** للتقدم . الامر الذي لا يستبعد البتة امكانية اكتشاف معيار **موضوعي** لهذا التقدم . فالتقدم ، بالنسبة الى كل **نوع** حيواني او نباتي ، عملية تكيف مع الوسط الطبيعي ، وتشكل درجة هذا التكيف المعيار الموضوعي للتقدم . ويكمن تكيف الانسان الاجتماعي مع وسطه الطبيعي في تعديل هذا الوسط من اجل صيانة نفسه . ويتم هذا التعديل للوسط الطبيعي بطاقة وسرعة اكبر كلما كانت ادوات العمل المتاحة للانسان اقوى ، اي كلما كانت قواه الانتاجية اكبر . يمكن اذن اعتبار هذه القوى المعيار الموضوعي للتقدم . =

آن لنا ان نختم .

لكن قبل ان نضع الريشة، بودنا ان نرجو القارىء مرة اخرى ان يتذكر ان المادية المسماة بالاقتصادية التي يسدد اليها السادة الشعبويون والذاتويون ضرباتهم ويطوقونها باعتراضات لا تحمل على كل حال على الاقتناع، لا تمت بصلة متينة الى التصور المادي الحديث للتاريخ .

من منظور نظرية العوامل ، لا تعدو المجتمعات الانسانية ان تكون عبئا ثقيلا تجره على درب التاريخ بال «حي» وال «حـــا» «قوى» متمايزة ـ اخلاق ، قانون ، اقتصاد ، الخ . أما مـــن وجهة نظر التصور المادي الحديث ، فترتدي الاشياء مظهـــرا مغايرا تماما . وتتكشف «العوامل» التاريخية على انها محـــض تجريدات . وحين ينقشع ضبابها ، يغدو واضحا ان البشر لا يصنعون كثرة من تواريخ متمايزة ـ تاريخ للقانون ، تاريـــخ للاخلاق ، تاريخ الفلسفة ، الخ ـ بل تاريخا واحدا ، تاريـــخ علاقاتهم الاجتماعية ، المشروطة بحالة القوى الانتاجية في كـــل زمن ووقت .

اما ما يسمى بالايديولوجيا ، فهو فقط الانعكاس المتعـــدد الاشكال في الاذهان لهذا التاريخ الواحد غير القابل القسمة .

= غير ان هذه «الصيغة» تقتضي «تصحيحا» جوهريا . فقد سبق أن رأينا ان المجتمع ينقسم ، في طور معين من تطور القوى الانتاجية ، الى اقسام ، اي الى طبقات . ومصالح هذه الطبقات أبعد ما تكون عن التماثل ، بل انها متعاكسة جوهريا من بعض الجهات الرئيسية . ولا ريب البتة في ان تطور القـــوى الانتاجية مفيد للطبقات الحاكمة . لكن أهو مفيد للطبقات المحكومة ؟ ان تاريخ المجتمعات المتمدينة يقدم عددا موفورا من الامثلة على تفاقم وضع الطبقـــات الدنيا تحت تأثير ...» . «ن.س»

العامل الاقتصادي (١)

- ١ -

لا يحب الكثير من الناس عندنا الحرب الكلامية ، وبخاصة

---

١ ــ هذا المقال رد على مقال نيقولا ميخائيلوفسكي (كلمات جديدة في «الكلمة الجديدة») ، المنشور عام ١٨٩٧ في عدد تشرين الاول من مجلة «روسكويه بوغاتستفو» . وكان هذا المقال نفسه ردا على مقال بليخانوف (كامنسكي) عن كتاب لابريولا ، «التصور المادي للتاريخ» ، المنشور في العام ذاته في عدد ايلول من «نوفويه سلوفو» (الكلمة الجديدة) . (راجع النص السابق) .

وقد كتب بليخانوف في وقت لاحق ، في عام ١٩٠٦ ، في مقدمة مجموعته «نقد نقادنا» ، بصدد رد ميخائيلوفسكي ذاك ، يقول :

«لقد طرأ ... بمناسبة مقالي عن «التصور المادي للتاريخ» «طارىء» لا =

اذا كانت مشوبة بـ «الضراوة» . ومؤكدا انه لا سبيل الـــى

= يخلو من اثارة . فقد كانت مقالات سادة الذاتوية والشعبوية اولئك ، ممن كانوا يتهجمون على التفسير المادي للتاريخ ، قد اقنعتني بأنهم ان حفظـــوا مفرداتنا فانهم لم يستوعبوا الافكار المطابقة لها . ولاقناع الجمهور ايضا بذلك، عقدت العزم على عرض نظريتنا في التاريخ بمفردات مغايرة . وهذا ما فعلته في المقال الآنف الذكر . وجاءت النتيجة كما كنت أتوقع . فقد راح واحد مـــن ابرز خصومنا ، من دون ان يفقه في الامر شيئا ، يصيح ويزعق بأنني جحدت «المادية الاقتصادية» ! وكنت في سبيلي الى اعداد «رد صاعق» ، كما يقـــول تشاتسكي بطل غريبوئيدوف . لكن المجلة التي كان يفترض ان ينشر فيهـــا المقال اوقفت عن الصدور ، وبقي ردي بلا نشر . ولا يتهيأ لي ان جمهور اليوم هو الجمهور المناسب» («المؤلفات الكاملة» ، م١٨ ، ص ٢٩٤ ــ ٢٩٥) .

كانت المجلة التي اوقفت عن الصدور هي «نوفويه سلوفو» التي صادرت الرقابة عددها الاخير الصادر في كانون الاول .

ومع ذلك ، وبعد اغلاق «نوفويه سلوفو» ، لم يرفض بليخانوف ، على ما يظهر ، ان يعطي مقاله لـ «ناتشالو» («المبدأ») ، مجلة «الماركسيين الشرعيين». ففي رسالة بتاريخ ١٧ ايار ١٨٩٩ ، كتب اليه بيوتر ستروفه يقول : «ان نشر مقالك ضد ميخائيلوفسكي سيكون رهنا باعتبارات الرقابة فقط» .

اذن في عام ١٨٩٩ ، ما كان بليخانوف يعتبر بعد ان قد «ولى موسم» نشر مقاله . ولكن في وقت لاحق ، وبعــــد ان انزاح الستار عن حقيقـــة الايديولوجيا البورجوازية الصغيرة للشعبوية ، وبعد وفاة ممثلها الرئيســـي والاقوى نيقولا ميخائيلوفسكي (١٩٠٤) ، ارتأى بليخانوف انه لم تعد هنـــاك ضرورة ولا امكانية لمواصلة المناظرة . وكتب في مقدمة الطبعة الثانية مـــن «تطور التصور الواحدي للتاريخ» انه «اسلوب غير مشروع» ان «تهاجم خصمك بسلاح جديد وترغمه على الدفاع عن نفسه بسلاح قديم» .

وبفضل المعلومات الواردة اعلاه ، يمكن تحديد تاريخ كتابة هذا المقال بين نهاية ١٨٩٧ وكانون الثاني ١٨٩٨ .

المناقشة في الاذواق والالوان . لكن الاذواق تتغير . وقد مر زمن كان فيه الناس عندنا يحبون الحرب الكلامية كثيرا . تذكروا بيلنسكي ؛ تذكروا ايضا مؤلف **«مقالات في الحقبة الغوغولية من الادب الروسي»** . فقد كتب هذا الاخير مبررا حمية ناديدين (٢) في الجدال والمناظرة :

«ما أعجبها ، أفكارنا ، الادبية منها وغير الادبية ! انهم يطرحون علينا دوما وأبدا اسئلة من هذا القبيل : لماذا يفلح المزارع حقله بمحراث قديم او بمحراث حديدي ثقيل ؟ لكن أنى له ان يفلح بطريقة اخرى ارضا خصبة ، صعبا حرثها ؟ أمن الصعوبة بمكان اذن ان نفهم ان ما من مسألة هامة تحل بدون حرب ، وان الحرب تخاض بالحديد والنار، لا بعبارات دبلوماسية لا يروج موسمها الا بعد بلوغ هدف القتال الذي يدور بالسلاح ؟ ان المحظور هو ان يُهاجم انسان بلا سلاح او بلا دفاع ، كالشيخ الطاعن في السن او ذي العاهة العاجز . لكن الشعراء والادباء الذين حاربهم ناديدين ما كانوا من هذا الطراز ...» .

انني أتبنى تماما هذه النظرة . وأعتقد ايضا ان العبارات

= «لم يتح الوقت لبليخانوف ليعطيه عنوانا . وقد جرت العادة على تسميته بـ «العامل الاقتصادي» ، نظرا الى ان النقاش كان يدور حول هذه الفكرة ... ولم ير المقال النور في حياة بليخانوف . وقد اعتمدنا هنا النص كما نشر في «تراث بليخانوف الادبي» (طبعة ١٩٣٧) . «ن.س»

٢ ــ نيقولا ايفانوفتش ناديدين : ناقد ومؤرخ واثنوغرافي روسي (١٨٠٤ ــ ١٨٥٦) . «م»

الدبلوماسية المنمقة الملطفة تعجز عن حل اي مسألة هامة ، وان خصاما جيدا خير بمئة مرة ، بخلاف ما يقوله المثل السائر ، من صلح رديء . ان الله هو الذي رسم ذلك ، ويخطىء الفولتيريون فادح الخطأ اذ ينكرونه .

لهذا ترونني مغتبطا غاية الاغتباط بالحرب الكلامية التي ابتدأت بين «نوفويه سلوفو» و«روسكويه بوغاتستفو» التي هبت لنجدتها الموسكوفية البدينة الملقبة من قبل بعض هواة المزاح ب «روسكايا ميسل» (٣) . وليس من المستبعد ان يلحق من جراء هذه الحرب وضر ببعض الكرامات الادبية ، وأن تتزعزع مكانة بعض من اهل الشهرة في ميدان الادب ، لكن لن يكون ذلك بالخطب العظيم . فالشهرة غير المستحقة هي وحدها القابلة للزعزعة . وهزها خير من مداراتها .

«أتعلمون ما أضر وما سيضر لحقبة مديدة من

---

٣ ـ انتقلت «نوفويه سلوفو» (الكلمة الجديدة) ، مجلة الشعبويين الليبيراليين منذ ١٨٩٤ ، في ربيع ١٨٩٧ الى «الماركسيين الشرعيين» (رؤساء تحريرها : بيوتر ستروفه ، ميخائيل طوغان بارانوفسكي ؛ الخ) . وقد نشرت فيها ايضا مقالات لماركسيين ثوريين ، وعلى الاخص لينين وبليخانوف . وقد دخلت «نوفويه سلوفو» في مناظرة مع «روسكويه بوغاتستفو» (الثروة الروسية)، لسان حال الشعبوية الليبيرالية ، حيث كان نيقولا ميخائيلوفسكي يشن الهجوم تلو الهجوم على الماركسيين الروس ، وكذلك ، والى حد ما ، مع «روسكويه ميسل» (الفكر الروسي) التي نشر فيها مقال ميخائيلوفسكي السجالي الاول .
«ن . س»

٤ ـ تعبير مقتبس من عنوان لمقال لبيساريف : «نزهة في حديقة الآداب الروسية» . «ن . س»

الزمن ايضا ، على ما يخيل الي ، بنشر افكار جوهرية حول الادب وتهذيب الذوق في روسيا ؟ **عبادة الاوثان الادبية** ! فنحن ما زلنا كالاطفال نصلي ونتعبد للآلهة التي لا يحصر لها عد التي يكتظ بها اولمبنا ، بدل ان نرجع الى شهادات الميلاد لنتأكد من ان مواضيع عبادتنا ذات أصل سماوي بالفعل» .

ان بيلنسكي هو الذي قال ذلك في «**تهويماته الادبية**» المشهورة . وقد تصرم زمن مديد منذئذ ، وغزت اولمبنا كثرة من الآلهة او انصاف الآلهة الجدد . فهل نظل سادرين في ازدرائنا لشهادات الميلاد ؟ وهل نثابر على تعاطي عبادة الاوثان العمياء ؟

هاكم ، على سبيل المثال ، ميخائيلوفسكي . انه ينصح مجلتنا ، هو المدرك لفائدة الحفر حول جذور الحقيقة ، بأن تعيد النظر في متاعها «سواء فيما يتعلق بالقضايا النظرية الخالصة ذات الطابع المجرد ام فيما يتعلق بالاستنتاجات العملية» .

اننا ممتنون للغاية للسيد ميخائيلوفسكي على هذه النصيحة الودية . لكن ما دامت الاشياء تعرف معرفة افضل بكثير بالمقارنة، فاننا سنلقي ــ ونحن نعيد النظر في متاعنا ــ نظرة خاطفة بين الفينة والفينة على المتاع الذي يطوف به محرر «روسكويه بوغاتستفو» الموقر منذ نحو ثلاثين عاما في «حديقة الآداب الروسية» (٤) .

لنبدأ بتلك «القضايا النظرية الخالصة ذات الطابع المجرد». ما الدور الذي يلعبه العامل الاقتصادي في تاريخ الانسانية؟

---

٤ ــ تعبير مقتبس من عنوان لمقال لبيساريف : «نزهة في حديقة الآداب الروسية» . «ن.س»

لقد ابديت ، في مقالي عن التصور المادي للتاريخ ، بعض افكار بهذا الشأن استأثرت بانتباه السيد ميخائيلوفسكي . لكن لا يمكن القول مع ذلك انه أحسن فهمها . وظاهر الامر انه يعتقد انني انحزت الى وجهة نظر الذاتويين وغيرهم من الانتقائيين . وهذا خطب عظيم آمل الا يلم بي ابدا .

قبل الدخول في النقاش ، يخلق بنا ان نتفاهم حول المفردات. صحيح انه كان اولى بنا ان نذكّر بذلك قبل الان ، ولكن آجل البر خير على كل حال من عدمه .

نظرا الى ان خصوم التصور المادي للتاريخ لم يقدموا قط تعريفا دقيقا بما يقصدونه بتعبير «العامل الاقتصادي» ، فما كان ليبقى امامي من سبيل غير ان أفتش بنفسي في مؤلفاتهم عن الطبيعة التي يعزونها الى هذا العامل ، لولا ان عددهم ، لسوء الحظ ، كبير بمثل عدد النجوم في السماء . ونظرا الى عجزنا عن التباري واياهم بكامل عددهم ، سنتوجه الى أثنين من الناطقين بلسانهم : السيد كاريئيف والسيد ميخائيلوفسكي .

ينطلق السيد كاريئيف ، في نقده التصور المادي للتاريخ ، كما هو معلوم ، من الفكرة السديدة القائلة ان الانسان يتألف من روح وجسم . يقول :

«للجسم والروح حاجاتهما التي تهفو الى التلبية والتي تضع كل فرد في موقف مختلف ازاء العالم الخارجي ، اي ازاء الطبيعة والناس الآخرين ... وموقف الانسان ازاء الطبيعة ، بدالة متطلبات الفرد الجسمانية والروحانية ، يخلق ، من جهة اولى ، صنائع من شتى الاصناف ترمي الى تأمين الوجود المادي للفرد ، ويخلق من الجهة الثانية مجمل الثقافة الفكرية والاخلاقية ...» .

يرجع اذن اصل الموقف المادي للانسان ازاء الطبيعة الى حاجات جسمه . وهنا تحديدا ينبغي البحث عن :

«اسباب القنص وتربية الحيوان والزراعة والصناعات التحويلية والتجارية والعمليات المالية» (٥) .

لكن الاستاذ الموقر لا يستطيع ان ينسى انه توجد لدى الانسان ، الى جانب حاجات «الجسم» ، حاجات «الروح» ايضا. ولهذا يناقش «المادية الاقتصادية» التي تتجاهل مطلق التجاهل ، **على ما يعتقد** ، الحاجات الروحية ولا تقيم اعتبارا النشاط المبذول في سبيل تلبيتها . وهذا شيء يرفع رأس السيد الاستاذ . لكن ماذا يعني تجاهل حاجات «الروح» ؟ ماذا يعني عدم اقامة اعتبار للنشاط الذي يلبيها ؟ ذلك يعدل الاعلان بأن الانسان لا تسيّره سوى حاجات أنانية ، فضلا عن انها مادية صرف، كحاجة المأكل، وحاجة النوم ، والحاجة الجنسية، الخ؛ كما يعدل الاعلان بأنه اذا افصح الانسان احيانا عن ظمأ متجرد الى المعرفة وعن حب للقريب واستعداد للتفاني ونكران الذات ، فذلك كذب ، قناع يتقنع به هذا الانسان ليغش البلهاء السريعي التصديق .

انني لأسألكم هل وجد قط نصير للتصور المادي للتاريخ قال بشيء من هذا القبيل ، من قريب او بعيد ؟ ان كل مطلع ، ولو ابسط الاطلاع ، على الادبيات في هذا الموضوع سيجيب من غير

---

٥ ـ شاهد من مقال نيقولا كاريئيف «المادية الاقتصادية في التاريخ» ، في «فييستنيك افروبي» (رسول اوروبا) ، ١٨٩٤ ، العدد ٧ ، ص ٧ . «ن.س»

ان يتردد ثانية واحدة : لم يقل احد قط منهم بشيء من هــذا القبيل .

من ملء حقي ، بعدئذ ، ان ألفت نظر السيد كاريئيف الى ان أتباع التصور المادي للتاريخ لا يعزون البتة دورا جامعا مانعا الى العامل الاقتصادي كما يفهمه هو ، اي الى النشاط المبذول لتلبية حاجات الانسان الجسمانية وحدها . وطبيعي ان لي الحق ذاته في ان أضيف قولي انه اذا كان «الماديون الاقتصاديون» يعتنقون حقا الافكار التي ينسبها اليهم السيد كاريئيف ، فان أتبـــاع التصور المادي للتاريخ لا يمتون بصلة الى هؤلاء الماديين العجيب امرهم .

لننتقل الى السيد ميخائيلوفسكي . كتب في عام ١٨٩٤ ، معلقا على احد مؤلفات بلوس (٦) التاريخية ، وكل بغيته دحض «المادية الاقتصادية» وتفنيدها ، كتب يقول :

«ما يقوله بلوس عن صراع الطبقـــات والشروط الاقتصادية (وما يقوله عنها قليل للغاية نسبيا) ، لا يترتب عليه انه يشيد التاريخ على اساس من التطور الذاتي لاشكال الانتاج والتبادل : فليس لنا ان نتصور اصلا انه في مستطاع احد ان يتصدى لسرد مسلسل أحداث ١٨٤٨ وأن يصرف النظر في الوقت نفسه عن شروطها الاقتصادية . ثم اننا لو نحينا من كتاب بلوس اطراءه للثورة التي انجزها ماركس في علم التاريخ ، وبعض الجمل الاصطلاحية المعتمـــدة على مفردات ماركسية ، لما خطر لنا ببال اننا في حضرة نصـــير

---

٦ ــ فلهلم بلوس : كاتب ومؤرخ الماني ، اشتراكي ــ ديموقراطي انتهازي (١٨٤٩ ــ ١٩٢٧) . «ن.س»

للمادية الاقتصادية . وعديدة هي الصفحات الجيدة ، التاريخية المضمون ، التي حررها انجلز وكاوتسكي وآخرون غيرهما، والتي يمكنها هي كذلك ان تستغني عن عنوان المادية الاقتصادية ، نظرا الى انها تأخذ في اعتبارها مجمل الحياة الاجتماعية ، وهذا على الرغم من ان الوتر الاقتصادي يغلب في هذا الدوران» (٧).

يترتب على ذلك انه في رأي السيد ميخائيلوفسكي (٨) ...
من ملء حقي اذن ان أردد على مسامع السيد ميخائيلوفسكي ما سبق ان قلته للسيد كاريئيف : ان أتباع التصور المادي للتاريخ لا يمتون بصلة البتة الى الماديين ، ان كان هؤلاء يقولون فعلا بالافكار التي تقوّلهم اياها .

لكن هل يوجد ماديون يقولون بهذه الافكار ؟ ينبغي ان ندع جانبا هذه المسألة في الوقت الحاضر ، لانه يتوجب علينا هذه الساعة ، ومن دون ان يشط انتباهنا لحظة واحدة ، ان نوضح الافكار الحقيقية لانصار التصور المادي للتاريخ .

لهذه الغاية ، سأختار من نتاج غليب اوسبنسكي مثالا في منتهى البلاغة .

في القسم الثاني من **«الخراب»** ، يصف لنا الراوي لقاءه بأعضاء شيعة راسكولنيكية حديثة التكوين . ففي «المشاعة» التي أسستها الشيعة المذكورة يشتغل كل واحد لخير الجميع ؛

---

٧ ـ كتب ميخائيلوفسكي هذا الكلام عن كتاب غليوم بلوس «تاريخ الثورة الالمانية» في زاوية عرض الكتب «الادب والحياة» في مجلة «روسكويه بوغاتستفو» ، ١٨٩٤ ، العدد ١ ، ص ١١٧ . «ن.س»

٨ ـ هنا صفحة ضائعة من مخطوط بليخانوف . «ن.س»

وقد انعدم الفرق بين «خاصتك» و«خاصتي» ، فباتت الحياة ميسورة من الناحية المادية . وقد تأسست المشاعة نزولا عند الرغبة الاخيرة لفلاح يدعى ميرون ، عاش ناسكا زاهدأ ، وأحاطت بهامه هالة الشهداء . وحفاظا على «الايمان» ، نبش زعماء الشيعة الجديدة نعشه ، وعرضوه في كنيستهم الصغيرة . وبحسب زعمهم ، كانت تفوح منه رائحة عطرة ، لكن ما كان المرء يشم في الواقع اي عطر . وقد سبب هذا الظرف ارتباكا وشكًا عظيمين لعضو شاب في المشاعة ، لم يكن قد تميز حتى ذلك اليوم بتعصبه الديني ، بل كان كل انصرافه «بالاحرى الى عباءات الفرو الجيدة ، والرفاه ، والطعام الوفير» .

وقد جلس الفتى يوما الى جانب الراوي ، وهمس في أذنه:

«ــ أهي كذبة ، يا صاحب السعادة» ؟

ــ عمَ تتحدث ؟

ــ عن قصة ميرون تلك . فهو معروض منذ ثلاثة اسابيع ، ولا تفوح منه مع ذلك اي رائحة ، أؤكد لك ذلك وأنا في كامل وعيي !

نظرت مدهوشا الى وجهه الذي علته حمرة الخجل فجأة . وأردف يقول :

ــ لم أعد أفهم ! فبدون ورقة من مجمع الكنيسة ، لا يمكن فتح النعش . لكن عندنا امرأة عجوز فعلت ذلك سرا ، وقد قالت لي: «كل ذلك كذب بكذب ! لا تصدق ما يقال ! ليس في النعش الا تراب» . هذا ما يروونه هنا . ان أمور مشاعتنا آيلة الى خراب !

هز الفتى رأسه بأسى عميق . فقلت له :

ــ لماذا تؤول الى خراب ؟ ألا تعيشون فيها عيشا رغدا ؟ لقد قلت لي بنفسك لمان ما من واحد منكم عاش في بيته أحسن من عيشه هنا .

ــ ليس هذا ما اتكلم عنه .

ــ واصلوا العمل اذن كما في السابق ، جميعكم بقلب واحد !

فقاطعني المراهق قائلا :

ـ ثم ماذا ؟ كلا ، هذا مستحيل ! سنرحل جميعا . كلا ، يا صاحب السعادة ! كنا نتبع القديس . وبفضله كنا نحس بأننا في سلام ... كنا نحسب ان لنا شفيعا ... لكن اذا كان ذلك كذبا ؟... الا ماذا ؟ ماذا سيحدث ؟... االكون قد اقترفت خطيئة كبيرة ؟ اكنا لا نعيش في الحقيقة ؟... هذا ما أفكر به ! أولى بي ان اموت ميتة الكلاب ... اولى بي ان أسلم نفسي للسلطات ... سأذهب ... سأهرب ... سأكفر ... سأقول : «افعلوا ما شئتم ، لا تشفقوا عليّ !» . لكنني سأهرب !.

اذا كان يوجد حقا في مكان ما من العالم ماديون اقتصاديون يعزون دورا جامعا مانعا الى العامل الاقتصادي **كما يفهمه** السيد كاريئيف ، فنصيحتنا اليهم ان يتبصروا مليا في هذا المقطع من القصة . فهوذا فتى مؤمن ميال كما هو ظاهر للعيان الى المادية الاقتصادية **بالمعنى الذي يفهمه السيد كاريئيف** ، وذلك ما دام منصرفا بفكره الى تلبية حاجات «جسمه» على الاخص . لكن له ايضا حاجات روحية ، وهي التي ترجح كفتها في الختام . فهاهوذا يعرب عن استعداده للتخلي عن عباءات الفرو الجميلة وعن رغد العيش وعن الطعام الوفير ، **لمجرد** ان التعاليم الدينية لمؤسس الشيعة قد تكشفت عن انها ضلال وأنالمسألة كلها لا تعدو ان تكون «كذبا بكذب» . ان غليب اوسبنسكي لم يخترع ذلك الفتى من بنات خياله . وكل واحد منا يحس صادق الاحساس بأنه شخصية حقيقية . فكيف يمكن لنا ، بعد هذا ، ان نتجاهل حاجات «الروح» ؟ كيف يتأتى لنا ان نقول ان الانسان يهتدي دوما وأبدا بحاجاته الجسمانية وحدها ؟ كلا ! حسبنا ان نقرأ ذلك المقطع لكي نقتنع اقتناعا نهائيا بأن الماديين الاقتصاديين الذين اكتشفهم السيد كاريئيف هم على خطأ تام من امرهم .

وأتباع التصور المادي للتاريخ ؟ تلك قضية اخرى . وذلك المقطع لا يسبب لهم حرجا او ارباكا . واذا كان لا يحرجهم ولا يربكهم ، فلأنهم غير متفقين مع الماديين الاقتصاديين ، الذين اكتشفهم السيد كاريئيف ، بخصوص اهمية العامل الاقتصادي. سيقول أتباع التصور المادي للتاريخ : «حتى او كان الفتى الراسكولنيكي كما يصفه اوسبنسكي لا يشعر باي ميل الى المادية الاقتصادية بالمعنى الذي يفهمه السيد كاريئيف ، وحتى لو كان لا يفكر بعباءات الفرو الجميلة ورغد العيش والطعام الوفير ، وحتى لو كانت افكاره جميعا تتجه فقط صوب (الشهيد ميرون) ، فان ذلك لن يحول بينه وبين ان يكون من نتاج الوسط الاجتماعي الذي يخلقه في التحليل الاخير تطور القوى الانتاجية المحددة لعلاقات البشر فيما بينهم في عملية الانتاج الاجتماعية».

جلي اذن ان هذه الفكرة لا تشبه من قريب او بعيد الفكرة التي يعزوها السيد كاريئيف الى ماديه الاقتصاديين . كذلك ، لا تشبه من قريب او بعيد «التطور الذاتي لاشكال الانتاج والتبادل» الذي تخيله السيد ميخائيلوفسكي ...

ألا فلنتكلم عن هذا التطور الذاتي .

- ٢ -

يلفت محرر الـ «روسكويه بوغاتستفو» الانتباه الى انني في مقالي عن التصور المادي للتاريخ لم أتنازل لأشير ـ اذا كان همي الوحيد خرمشة السادة كاريئيف وكودرين وكريفنكو ، وفي الختام السيد ميخائيلوفسكي شخصيا ـ ولو أدنى اشارة الى دور وسائل الانتاج وأشكال التبادل ، «على ما لهذه النقطة من اهمية لا بأس بها ، على ما يبدو ، في التصور المادي للتاريخ» .

انني ألفت بإلحاح كامل انتباه القارىء الى ملاحظة السيد

ميخائيلوفسكي هذه التي هي على قدر عظيم من الاهمية .

لقد قلت في المقال المشار اليه ، في عرضي لافكار لابريولا الذي أتفق واياه ، على كل حال ، كامل الاتفاق :

«يصنع الناس اذن تاريخهم بمسعاهم الى تلبية حاجاتهم . وبديهي ان الطبيعة هي التي تعين في الاصل هذه الحاجات ؛ لكن هذه الاخيرة لا تلبث ان يطرأ عليها تبدل ملموس ، من الناحية الكمية ومن الناحية النوعية على حد سواء ، بفعل خواص الوسط الاصطناعي . وتشرط القوى الانتاجية التي يمتلكها البشر علاقاتهم الاجتماعية كافة . وحالة القوى الانتاجية هي التي تحدد في البدء العلاقات التي يعقد الناس أواصرها فيما بينهم في عملية الانتاج الاجتماعية ، أقصد **العلاقات الاقتصادية** . وهذه العلاقات تخلق بطبيعة الحال مصالح معينة تجد تعبيرها في **القانون** . يقول لابريولا : كل نظام قانوني «هو دفاع ... عن مصلحة محددة» . ويتسبب تطور القوى الانتاجية في انقسام المجتمع الى طبقات لا تتباين مصالحها فحسب ، بل تتناقض في كثير من الاحوال تناقضا جوهريا . ويتولد عن هذا التناقض في المصالح منازعات بين الطبقات الاجتماعية ، صراع هذه الطبقات . ويفضي هذا الصراع الى استبدال **العشيرة بالدولة** ؛ ورسالة هذه هي الحفاظ على المصالح السائدة . وأخيرا ، في هذه العلاقات الاجتماعية المشروطة بحالة معينة للقوى الانتاجية تتأصل جذور **الاخلاقية** ، اي الاخلاق

اليومية التي يهتدي الناس بقواعدها في الحيـــــاة الجارية» (٩) .

لقد قرأ السيد ميخائيلوفسكي ما تقدم ، لكنه لم يجد فيه كلمات «وسائل الانتاج وأشكال التبادل» . ومن هنا كان عــدم رضاه وتساؤله بذهول عما يمكن ان اكون قد فعلته بـ «هــذه النقطة على ما لها من اهمية لا بأس بها ، على ما يبدو» . لكن ما كنه هذه النقطة ؟ ما كنه وسائل الانتاج تلك وأشكال التبــادل تلك ؟ لا شيء سوى العلاقات التي يعقد الناس أواصرها فيمـــا بينهم في عملية الانتاج الاجتماعية والتي ورد ذكرها في عرضي. لقد «تنازلت» اذن وذكرت «هذه النقطة» بما «لها من اهمية لا بأس بها ، على ما يبدو» . بل لم أكتف بذكرها : فقد وجهت اليها التحية التي تستأهلها بتشديدي على اهميتها . **إلامَ يرجع اذن ذهول السيد ميخائيلوفسكي ؟ الى انني لم أستخدم الالفـــاظ التي تعلمها** . ولو كان يعرف المعنى الذي ينبغي وضعه وراءها، لكان تبين له على الفور بكل تأكيد انني انما أتحدث عن وسائل الانتاج واشكال التبادل التي تنبع منها . لكنه لم يتعلم شيئـــا غير **الالفاظ** ، وبقي على جهل مطبق بمعناها . فلمـــا استعملت مصطلحات اخرى ضاع عنه خيط الافكار .

ان الموقف لمشوق . والرغبة تأخذ المرء في ان يهتف مـــع بوتشنسكي في **«المفتش العام»** (١٠) : «ما أغربها من مغامرة !» ، وفي ان يضيف مع زميله دوبتشنسكي : «ما أعجبه من نبأ !» . ان السيد ميخائيلوفسكي يعيد الى الاذهان بصدد خرمشاتـــي نادرة الراقص الذي لا يعرف ان يرقص الفالس الا **بدءا من مدفأة**

---

٩ ـ راجع الصفحة ٩٠ ، ٩١ من هذا الكتاب . «م»

١٠ ـ مسرحية غوغول الشهيرة . «م»

الجدار . لكني من جهتي اجده أشبه بكثير به مني . فأن يحفظ المرء عن ظهر قلب بعض الكلمات **من دون ان يفهم معناها** ، وان يطلب من خصومه الا يستخدموا سوى الكلمات التي تعلمهـــا بخوائها ، وان يتعثر وتزل به قدمه بمجرد ان يتم التعبير عـــن الفكرة عينها في شكل آخر ، فذاك هو حقا ما يسمى بعدم معرفة رقص الفالس الا بدءا من مدفأة الجدار ، والعجز عن التقـــدم خطوة واحدة اذا وضع الراقص قرب الباب ، قرب المدفأة . يا الهي ، ما أشقه على النفس من حادث ، يا سيد ميخائيلوفسكي !

يقول السيد ميخائيلوفسكي :

«لقد سئلنا مرارا ، شفهيا او كتابيا ، لماذا نترك بلا جواب الهجمات العديدة التي تشنها مجلة (نوفويه سلوفو) على مجلتنا او على كتابها» .

ولا مناص من الافتراض انه بعد هذه الحادثة المزعجة لـــن يحث احد السيد ميخائيلوفسكي على شن حرب كلامية علينا . فكل انسان يتبين الان ان كل ما يستطيعه في مناظرة من هذا النوع هو ان يرصف الكلمات . لقـــد قال ـ واحسن القول ـ ليسكوف الشهير في **«ضرورة الكويتبين وجودتهم»** (١١) انـــه «لمن الطبيعي ولمن الاسهل بما لا يقاس ان يكتب المرء بأصابعه من ان يكتب برأسه» . لكن ليسكوف كان يحب المفارقات : أفـــلا يؤكد صاحب الاطوار الغريبة هذا ان المرء يجوّد في الكتابة كثيرا اذا لم يفكر بتاتا ؟ وهذا حكم لا جدال في انه لن يلزم الســـذج

---

١١ ـ كريستيان لودفيغ ليسكوف (١٧٠١ ـ ١٧٦٠) : كاتب هجائي الماني. «م»

(ربما «اطفال ملائكيون ذاتويون» (١٢)) الذين دعوا السيد ميخائيلوفسكي الى اجتراح معجزة .

يقول ماركس في مقدمته المشهورة لـ **«المساهمة في نقد الاقتصاد السياسي»** :

«في انتاج البشر الاجتماعي لوجودهم ، يدخلون في علاقات محددة ، ضرورية ، مستقلة عن ارادتهم ، **علاقات انتاج** تطابق درجة محددة من تطور قواهم الانتاجية المادية . ويؤلف مجمل علاقات الانتاج هذه **بنية المجتمع الاقتصادية** ، القاعدة العينية التي ترتفع عليها بنية فوقية قانونية وسياسية» .

انت ترى ، يا سيد ميخائيلوفسكي ، ان ماركس ما كان يتنازل هو الآخر ليذكر دور وسائل الانتاج وأشكال التبادل ، على ما لهذه النقطة من اهمية لا بأس بها ، على ما يبدو ، الى آخر المعزوفة ! ماذا يترتب على ذلك ؟ ترى أكان ماركس ينقاد لدافع خفي ؟ أكان يأخذ اهبته لتبني وجهة النظر التي سيعتنقها لاحقا الذاتويون الروس ؟ نصيحتي اليك ، يا سيد ميخائيلوفسكي ، ان تدرس المسألة .

بانتظار ذلك ، سألفت نظر القارىء الى نقطة اخرى . يطلق ماركس اسم البنية الاقتصادية على مجمل علاقات الانتاج . والحال ان هذه العلاقات ما هي الا علاقات البشر فيما بينهم في عملية الانتاج الاجتماعية . كل تغير في علاقات الانتاج هو اذن

---

١٢ ـ تعبير لميخائيلوفسكي رد به على النعت الساخر الذي كان بليخانوف قد اطلقه على ميخائيلوفسكي وأنصاره : الشيوخ الخرفين الذاتويين . «ن.س»

تغير في العلاقات القائمة بين البشر . وعليه ، من مطلق اللغو الكلام عن «تطور ذاتي» لتلك العلاقات ، وكم بالاحرى القول بأنه يتم «بمفرده» و«من تلقاء نفسه» بدون مساهمة البشر . وهذا بالضبط ما يقوله السيد ميخائيلوفسكي عن ذلك «التطور الذاتي» (*) . ويتبين لنا من ذلك مدى غرابة فهمه لماركس الذي كانت ساورته الرغبة آنفا في دحض نظريته في التاريخ .

ان «التطور الذاتي لوسائل الانتاج وأشكال التبادل» هذر خاوٍ من المعنى . والحال ان مفهوم «العامل الاقتصادي» يتماهى لدى السيد ميخائيلوفسكي مع هذا «التطور الذاتي» . العامل الاقتصادي ، كما **يفهمه السيد ميخائيلوفسكي** ، لغو باطل اذن . ومن المفهوم ألا يكون في المستطاع اعتبار اللغو القوة الراجحة الكفة في التاريخ .

ينتمي السيد ميخائيلوفسكي ، كما هو معلوم ، الى تلك الفئة من الناس التي تزعم انها تأخذ بمذهب كارل ماركس **الاقتصادي** وتردّ في الوقت نفسه نظريته في **التاريخ** . وحتى يقوم المرء بمثل هذا التمييز ، فلا بد ان يكون جاهلا بالمذهب الاقتصادي للمفكر الالماني وبنظريته في التاريخ على حد سواء .

لماذا ؟ هاكم السبب .

ما القيمة ؟ انها عند ماركس علاقة انتاج اجتماعية . وللوهلة الاولى قد لا يبدو هذا التعريف في غاية من الوضوح . لكنه في منتهى البساطة بالنسبة الى من فهم **نظرية التاريخ** لدى مؤلف **«الرأسمال»** . لقد تقدم بنا العلم ان البشر يعقدون فيما بينهم ، في عملية الانتاج ، علاقات تحددها حالة القوى الانتاجية . ففي

(*) انه يتكلم ، والحق يقال ، عن التطور الذاتي لوسائل الانتاج وأشكال التبادل . لكن تقدم بنا العلم بأن هذه الوسائل وهذه الاشكال تشكل ما يسمى بعلاقات البشر فيما بينهم في عملية الانتاج .

طور معين من تطور هذه القوى ، يعقد المنتجون فيما بينهم نوعا من علاقات تتمثل فيها منتجات عملهم في شكل **بضائع**. فالبضاعة أ تتبادل بكمية معينة من البضائع ب ، ج ، الخ ؛ فلهـا اذن قيمة تبادلية محددة . لكن البضائع منتجات **عمل** ، وعلاقاتها في **عملية التبادل** انما تعبر عن علاقات **العمال** (منتجي البضائع) بعضهم ببعض **في عملية الانتاج الاجتماعية** . لا تعبر قيمة البضائع اذن الا عن علاقة عمل منتجها بمجمل العملية الانتاجية. يترتب على ذلك ان القيمة علاقة انتاج اجتماعية . وكثيرا ما يتصورها الناس خاصة ملازمة للاشياء ، وهذا وهم . بيد ان هذا الوهم محتوم ولا مهرب منه في طور معين من تطور القوى الانتاجية .

والرأسمال ؟ الرأسمال قيمة تبادلية محبوة بخاصة التزايد والتنامي . معلوم ان الرأسمال الذي لا يدر دخلا يعتبر رأسمالا **ميتا** . تشكل اذن خاصة در دخل السمة المميزة الاساسية للرأسمال **الحي** . وإن تكن علاقات تبادل البضائع تعبر عن علاقات المنتجين بعضهم ببعض في عملية الإنتاج الاجتماعية ، فان الرأسمال ، تلك القيمة التبادلية التي تتولد عنها قيمة جديدة ، لا يستطيع بدوره ان يمثل شيئا آخر غير علاقات المنتجين الاجتماعية . وعليه ، يقول ماركس ان الرأسمال يشكل ايضا علاقة انتاج اجتماعية ، وبتعبير أدق ، العلاقة الخاصة بالمجتمع البورجوازي ، علاقة الانتاج **البورجوازية** .

تتميز هذه العلاقة بكون العامل يبيع المستخدم قوة عمله . ومعلومة هي الغاية التي يشتري الرأسمال من اجلها هذه القوة: ففي عملية الانتاج يخلق العامل قيمة اكبر من المبلغ المنفق على شراء قوة عمله . ويسمى الفرق بين القيمة الجديدة التي يخلقها العامل وبين مبلغ أجرته فضل القيمة . ويؤول فضل القيمة الى المستخدم ويغدو مصدر **دخله** . ومن هنا ، فان قابلية الرأسمال

لدر دخل تجد تفسيرها في شكل العلاقات بين **الكائنات الانسانية**، وهو شكل يختص به المجتمع البورجوازي في عملية الانتاج . لكن خواص **علاقات** الانتاج هذه تبدو وكأنها خواص ملازمة **للاشياء** ، اي خواص وسائل الانتاج العائدة الى الرأسمالي . وهذا ايضا وهم محتوم لا مهرب منه في طـــور معين من تطور القـــوى الانتاجية .

كان ماركس اول من ازاح النقاب عن سر هذا الوهم. وازاحة النقاب عن هذا السر تعني بيان كيف ان تطور العلاقات الاجتماعية يحدد تطور الافكار .

في الواقع ، ان تكن علاقات الانتاج الاقتصادية تتمثـــل بالضرورة في طور معين من تطورها في رأس الناس في شكـل خواص للاشياء ، وان تكن العلاقات الاقتصادية لا تسقط مـن السماء كما يقول ماركس لتتعين مرة واحدة ونهائية ، وانمـــا يخلقها تطور القوى الانتاجية في المجتمع ، يترتب على ذلك ان افكارا معينة تطابق هذه القوى في حالة معينة من حالاتها . ومن يسلم بنظرية ماركس الاقتصادية ، لا مناص له من التسليـــم ايضا بهذه اللازمة . ومن يسلم بهذه اللازمة ، يكن قد قطع شوطا لا بأس به على طريق التفسير المادي للتاريخ .

يعتقد السيد ميخائيلوفسكي انه لا رابطة ضرورية بين افكار ماركس عن الاقتصاد وبين نظريته في التاريخ . ويدرك القارىء النبيه الان لماذا يذهب السيد ميخائيلوفسكي هذا المذهب فـي التفكير ؛ للسبب البسيط التالي ، وهو انه لم يفقه شيئا مـــن افكار ماركس الاقتصادية . فالانسان الذي لا يخطر له ببال ان وسائل الانتاج وأشكال التبادل ما هي سوى علاقات النـــاس بعضهم ببعض في عملية الانتاج الاجتماعية ، هذا الانسان قـد يسعه ان يفهم كل ما يشاء وكل ما تشاؤون ، لكنـــه لا يفهم لا ماركس ولا نظريته في الاقتصاد .

يلفت السيد ميخائيلوفسكي ، على نحو لا يخلو من الضغينة، انتباه القارىء الى ان السيد كامنسكي لم يذكر البتة في مقاله ان كان كتاب لابريولا يضم صفحات تعالج «مفهوم التاريخ لدى ماركس وانجلز» ، كما يلفت الانتباه الى ان السيد كامنسكي كان يسعه على الاقل ان يشير الى ذلك ولو عرضا ، ولكنه آثر ان يضيع وقته في «الخرمشات» .

ما العلاقة بين افكار لابريولا عن التاريخ و«مفهوم التاريخ لدى ماركس وانجلز» ؟ علاقة في منتهى البساطة : التطابق . وكل من استوعب «المفهوم» المشار اليه ، ولو في ادنى الحدود ، لا يمكن ان يخامره ريب في ذلك بعد ان يقرأ المقتطفات التي ضمنتها عرضي لافكار الاستاذ الايطالي . ولئن بقي السيد ميخائيلوفسكي فريسة الحيرة بصدد هذه النقطة ، فهذا يظهر للعيان مرة اخرى كم هي غريبة عجيبة طريقة استيعابه للمذهب الذي يرى ان من واجبه الاخلاقي ان يكافحه .

لم يتعرف السيد ميخائيلوفسكي «مفهوم التاريخ لدى ماركس وانجلز» لسبب وحيد ، وهو انه لم يجد في عرضي لهذا «المفهوم» بعضا من الكلمات التي حشا بها دماغه بلا طائل. حادثة مزعجة تشق على النفس ، لكن ربما كان في نية السيد ميخائيلوفسكي ان يحمّلني تبعتها بقوله : «لماذا ألبست فكر لابريولا ثوبا لا دراية لي به ؟ لماذا لم تقل للحال ان هذا المؤلف يندرج في عداد «التلامذة» الايطاليين ؟» . وسأجيب بأن لكل امرىء الحق في ان يعبر عن آرائه بالنحو الذي يحلو له ، شرط ان تؤدي الالفاظ التي يستعملها تماما معنى افكاره . وربما كانت لي ايضا ، ناهيك عن ذلك ، دوافع خاصة . فلعلي كنت أتوقع

رد فعل السيد ميخائيلوفسكي ، فأردت ان أبيّن للقارىء انه اذا كان مناقضي قد حفظ عن ظهر قلب بعضا من صيغنا فهو لم يفهم بالمقابل معناها البتة . واذا كنت قد اجريت فعلا هذا الحساب، فسيوافقني القارىء على ان ما حدث لاحقا جاء مسوِّغا له على أسطع وجه .

لكن لنتابع ...

يؤلف مجمل علاقات الانتاج بنية المجتمع الاقتصادية ، وتتحدد هذه البنية بحالة القوى الانتاجية .

يلاحظ السيد بلتوف في الصفحة ١٧٣ من كتابه (١٣) :

«لا يمكن وصف الاقتصاد بأنه **علة اولى** للظاهرات الاجتماعية كافة الا بهدف التبسيط فقط . فليس الاقتصاد ببعيد عن ان يكون علة اولى فحسب ، بل هو ايضا معلول : فهو «تابع» للقوى الانتاجية» .

وهذا بالضبط ما قلته في مقالي عن كتاب لابريولا :

«في مذهب الماديين المعاصرين ، يتطابق **كل** نظام اقتصادي مع الطبيعة الانسانية اذا ما تطابق مع حالة القوى الانتاجية في الحقبة المعينة . وعلى العكس ، يدخل كل نظام اقتصادي في تناقض مع الطبيعة الانسانية متى ما خالف حالة القوى الانتاجية . هكذا يستبين ان العامل «الغالب» **تابع** لعامل «آخر» .

---

١٣ ـ اي «مبحث في تطور التصور الواحدي للتاريخ» الذي نشره بليخانوف باسم بلتوف المستعار . «م»

فماذا يبقى في هذه الحال من «**غلبته**» (١٤) ؟

ان هذه «نقطة» بالغة الاهمية في «مفهوم» التاريخ لدى الماديين المعاصرين ، والتوقف عندها لا يخلو من فائدة .

لو كانت العلاقات الاقتصادية هي العلة الاولى ، العلة الاساسية للظاهرات الاجتماعية ، لما أمكننا ان نفهم لماذا تتغير وتتنوع . صحيح ان السيد ميخائيلوفسكي تخيل «تطورها الذاتي» ، لكن هذه الكلمة لا تعني شيئا ولا تفسر شيئا ، لانه لا يمكن لاي «تطور ذاتي» ان يحدث بدون سبب كافٍ . وفي الواقع ، ان شرط العلاقات الاقتصادية هو حالة القوى الانتاجية، وانما **بفضل** تبدلات هذه الحالة **تتغير وتتنوع** تلك العلاقات . ولا يكتب الاستقرار لمنظومة معينة من علاقات الانتاج الا حيثما تطابقت وحالة قوى الانتاج الاجتماعية وبقيت مطابقة لها . أما اذا زال هذا التطابق ، فسرعان ما تتلاشى العلاقات المذكورة والبنية الاقتصادية المذكورة ، لتحل محلها منظومة جديدة من العلاقات .

من نافل القول ان البنية الاقتصادية لا تكف دفعة واحدة عن التطابق مع حالة قوى الانتاج الاجتماعية ؛ وانما يتم ذلك وفق سيرورة متفاوتة السرعة تبعا للظروف . وانما عن طريق «العامل» السياسي تتم ازاحة البنى الاقتصادية المتقادم عليها الزمن . فكلما تصرم الزمن وتطورت قوى الانتاج الاجتماعية ، تعاظم بالنسبة الى الغالبية الطابع الجائر والمرهق للبنية الاقتصادية القائمة ، اي لمنظومة معينة من العلاقات بين البشر في عملية الانتاج الاجتماعية . وكلما تعاظم الارهاق الناجم عن هذه

---

١٤ ـ راجع الصفحة ٨٤ من هذا الكتاب . «م»

المنظومة ، تزايد عدد المستائين وتنامى حزب المجددين ؛ وبعبارة اخرى ، تغيرت العلاقات بين البشر في مضمار الحياة السياسية أيضا . وحين يبلغ التغير درجة معينة ، تبدأ اعادة النظر في البنية الاقتصادية القديمة . وطبيعي ان سرعة هذه السيرورة ليست واحدة على الدوام ، ولا كذلك شدتها .

اذن هنا ايضا نتبين لماذا لا يتم اي شيء في الحياة الاجتماعية «من تلقاء نفسه» ، ولماذا يستوجب كل شيء تدخل الانسان الاجتماعي .

- ٤ -

هكذا تتبدى الامور من وجهة نظر المادية الجدلية المعاصرة . لكن تعبير «المادية الجدلية» يزعج ايضا السيد ميخائيلوفسكي . يلاحظ قائلا :

> «يتكلم السيد كامنسكي على الدوام عن «المادية الجدلية» التي يعتبر لابريولا ممثلها المتماسك ، حتى وان كان يتيه في التفاصيل . وانما في حاشية مقتضبة في اسفل الصفحة نعلم ان لابريولا «يطلق عليها (على «المادية الجدلية») اسما مقتبسا من انجلز: «المادية **التاريخية**» . وخليق بنا ، على ما يبدو ، أن نستنتج ان مصطلح «المادية الجدلية» لا وجود له بتاتا في كتاب لابريولا . صحيح ان الاسم لا يغير شيئا في المسمى ، لكننا سنرى ان السيد كامنسكي نفسه يقدم مثالا على الخلط اذ يلصق هذا النعت او ذاك بالاسم المنعوت : «المادية» ، ولا يدرك القارىء البتة لماذا ولأي غرض يجري استبدال نعت بآخر . وقد

جاء في الحاشية المقتضبة في أسفل الصفحة ، التي تحدثت عنها للتو ، ان تسمية «المادية التاريخيـــة» **مقتبسة** من انجلز . لكن هل يترتب على ذلــك ان لابريولا «اقتبس» حقا وأشار الى مصدر اقتباسه ، ام ان المسألة محض توافـــق ، وليس «الاقتباس» بحصر المعنى سوى فرضيـــة فرضها السيـــد كامنسكي ؟» .

ان مصطلح «المادية الجدلية» لا وجود له في كتاب لابريولا . بيد ان الاستاذ الايطالي يبقى مع ذلك تلميذا للمادية الجدلية .

لماذا ؟ لاسباب كثيرة . وهاكم واحدا منها : بعد ان قرأت لابريولا بت عارفا بأفكاره ، والحال انني أعرف ايضا الماديـــة الجدلية . ان السيد ميخائيلوفسكي لم يقرأ هذا المؤلف . غير ان المقاطع التي اوردتها له في مقالي تظهر للعيان بجلاء ان لابريولا «تلميذ» ايطالي . وكل امرىء يعلم ان اساتذة هؤلاء «التلامذة» هم أبرز ممثلي المادية الجدلية .

صحيح ان السيد كامنسكي لا يظهر عليه انه عارف بذلك . وعليه ، سأسوق له هذا المقطع من انجلز :

«حينما هتك الستر عن الضلال الشامل المميـز للمثالية الالمانية القديمة ، بات من الواجب المحتـوم الرجوع الى المادية ، لكن ــ لننوه بذلك ــ ليس الى المادية الميتافيزيائية الخالصة ، الميكانيكية الصرف ، مادية القرن الثامن عشر . ففي مقابل الادانة الخالصة القاطعة ، الثورية الساذجة ، لكل التاريخ السابق ، ترى المادية المحدثة في التاريـخ سيرورة ارتقـــاء الانسانية ، ومهمتها هي ان تكشف قوانينه المحركة.

وفي مقابل تصور الطبيعة الذي كان سائدا لدى فرنسيي القرن الثامن عشر كما لدى هيغل ، وهو التصور الذي يجعل منها كلا واحدا مماثلا لذاته أزلا ابدا ، له حركته الدورية المحددة مع أجرام سماوية خالدة ، كما يؤكد نيوتن ، ومع انواع عضوية ثابتة ، كما يؤكد لينه (١٥) ، تركّب المادية المحدثة ، على العكس ، بين شتى الانجازات الحديثة لعلم الطبيعة الذي يرى ان للطبيعة بدورها تاريخها في الزمن ؛ فالأجرام السماوية ، اسوة بالانواع الحية القادرة على ان تحيا فيها في ظروف موائمة ، تولد وتفنى ، وادوار طواف هذه الأجرام تتخذ ، بقدر ما يمكن التسليم بها ، أبعادا اكبر وأعظم بما لا يقاس . وفي كلتا الحالتين، فان المادية المحدثة جدلية في الجوهر، ولا ضلع لها بفلسفة متعالية على العلوم الاخرى»(١٦).

يتبين السيد ميخائيلوفسكي مما تقدم ان المادية المحدثة هي في رأي انجلز المادية **الجدلية** . ومع انه من العسير التشكيك في انتماء انجلز الى هذه المادية ، فإنني أحرص على نفي امكانية هذا الشك بالذات . هاكم ما يقوله انجلز بلغته الاصلية :

«لقد كنا ماركس وأنا في أرجح الظن الوحيدين اللذين انقذا من الفلسفة المثالية الالمانية الجدل الواعي

---

١٥ ـ كارل فون لينه : عالم طبيعيات سويدي ، له تصانيف مشهورة في علم النبات والحيوان (١٧٠٧ ـ ١٧٨٧) . «م»

١٦ ـ شاهد من كتاب انجلز «الاشتراكية الطوباوية والاشتراكية العلمية». «م»

ودمجاه بالتصور المادي للطبيعة والتاريخ» (١٧) .

لعل السيد ميخائيلوفسكي سيسأل عن معنى تعبير «المادية التاريخية» الذي يستخدمه احيانا انجلز والذي اقتبسه منه لابريولا ؟ انني مبادر الى تفسيره له .

تشمل مادية ماركس وانجلز ، كما رأينا للتو ، الطبيعة والتاريخ معا . وهي في كلتا الحالتين **«جدلية في الجوهر»** ، لكن بمقدار ما تعنى المادية الجدلية بالتاريخ ايضا ، ينعتها انجلز احيانا **بالتاريخية** . ولا يميز هذا النعت المادية ، بل يشير فقط الى واحد من الميادين التي تدرسها . وهذه عين البساطة .

يصور غليب اوسبنسكي في **«الخراب»** موظفا طاعنا في السن ، بافل ايفانيتش بتشكين ، حلت بعقله لوثة تحت وقر المستجدات الطارئة على الحياة . فهو عاجز عن المحاكمة العقلية او النقاش ، وأقصى ما يستطيعه ان يهرف في مناسبة وغير مناسبة ب «هراء ساخط» . فاذا ما حدثه احد عن السكة الحديدية ، على سبيل المثال ، دمدم بتشكين قائلا :

«السكة الحديدية ! ما السكة الحديدية اولا ؟ سكة حديدية ... سكة حديدية ! ثم ماذا ؟ ما حقيقة الامر ؟... ماذا تعرفون عنها ؟» .

لقد طفق السيد ميخائيلوفسكي يظهر منذ بعض الوقت صلة قربى وثيقة بهذه الشخصية . فهو يدمدم ، نظير بافل ايفانيتش ، قائلا : «المادية الجدلية ! لكن ما المادية الجدلية اولا ؟ المادية الجدلية ... المادية الجدلية ! ثم ماذا ؟ ما حقيقة الامر ؟...

---

١٧ ـ شاهد من «ضد ـ دهرينغ» ، وهو بالالمانية في النص . «م»

ماذا تعرفون عنها ؟» .

كان بتشكين يهرف بهذا «الهراء الساخط» لان «الزمن الحاضر» كما يقول اوسبنسكي «قد أخل بدماغه الى حدود الممكن» . ترى هل سيعرف دماغ السيد ميخائيلوفسكي هذا المصير المحزن ؟

تبدو صيغة «الماديين الجدليين» في نظر هذا المؤلف «خرقاء». من الجائز. لكن من الممكن بسهولة تفادي استخدامها. حسبنا ان نقول : «الماديون المعاصرون» . ولئن لم أستخدم هذا المصطلح الا فيما ندر ، فهذا فقط لانه كان يبدو لي ضروريا ان أبرز وأن أشدد على طابع المادية المعاصرة . وأملي ان يكون هذا الهدف قد تم ادراكه اليوم . وعليه ، سيكون في مستطاعي من الان فصاعدا ان اقول ، بدلا من «المادية الجدلية» و«الماديين الجدليين» ، المادية المعاصرة والماديين المعاصرين .

وسأنوه على كل حال بأن السيد ميخائيلوفسكي حكَم رديء بصدد المفردات . فمنذ عهد غير بعيد رأيناه يدين مصطلح «المنتج» الذي كان يؤكد انه تفوح منه رائحة الاصطبل (١٨) . وهذه حقا حجة لا تدحض ! فمنذ ان صدرت في عام ١٨٢٥ المجلة السانسيمونية «المنتج» ، درجت عادة استخدام هذا المصطلح في اوروبا الغربية من دون ان يذكّر احدا برائحة

---

١٨ ـ كان ميخائيلوفسكي في تعليق له في «روسكويه بوغاتستفو» (١٨٩٥ ، العدد ١) على كتاب بلتوف ، قد كتب يقول :

«بديهي ان اهل الفكر مدعوون الى «المساهمة في تطور وعي الذات» لدى الناس بوجه عام ولدى «المنتجين» بوجه خاص . بيد ان كلمة «منتج» هذه غير موفقة : فمنها تفوح رائحة اصطبل . وفي مثل هذه الاحوال ، اعتدنا نحن على استعمال كلمة «الشعب» بمعنى الجماهير الكادحة» . «ن.س»

الاصطبل . واذا كانت هذه هي الصورة التي يوقظها في ذهن صاحبنا «النبيل التائب» ، فإصبع الاتهام ينبغي ان تسدد في هذه الحال لا الى الكلمة ، وانما الى تربية الشخص .

- ٥ -

قلت في مقالي ان لويس بلان وايولي جوكوفسكي كانا في نظر السيد ميخائيلوفسكي «ماديين اقتصاديين» ، مثلهما مثل الأتباع المعاصرين للتصور المادي للتاريخ ، وانه **من الصعب تجاوز هذا الحد في التخليط** . وقد احتج السيد ميخائيلوفسكي برهافته المعهودة قائلا : «**هذا غير صحيح** [التسويد منه] ؛ ومثل هذا الرأي لم يصدر عني» .

بلى ، يا سيد ميخائيلوفسكي ، لقد صدر عنك . وهوذا كلامك بحرفه :

«يتكلم السيد بلتوف ايضا عن المؤرخين وعن «الطوباويين» الفرنسيين على حد سواء ، فيصدر حكمه عليهم جميعا بقدر فهمهم او عدم فهمهم للاقتصاد بوصفه أس البنيان الاجتماعي . بيد أن الغريب في الامر انه لا يأتي بأي ذكر للويس بلان ، مع ان مقدمة «**تاريخ عشر سنوات**» تكفي وحدها لتأمين مكانة رفيعة لهذا الكاتب في عداد مؤسسي ما يسمى بالمادية الاقتصادية . صحيح ان تلك المقدمة تنطوي على اشياء كثيرة لا يمكن للسيد بلتوف ان يوافق عليها ، لكنها تحتوي بالمقابل على صراع الطبقات وعلى تعيين الاقتصاد للطبقات ، وعلى دور

الاقتصاد كنابض خفي للسياسة ، وباختصار ، على اشياء كثيرة مما دخل **فيما بعد** في تركيب المذهب الذي يذود السيد بلتوف بحمية فائقة عن حياضه . ولئن نوهت بهذا النسيان ، فلأنه اولا يبعث على الدهشة في ذاته ، ولانه يشي ثانيا بمقاصد خفية لا تمت بصلة الى النزاهة» .

يحتل لويس بلان اذن مكانة رفيعة في عداد «**مؤسسي**» المادية المسماة بالاقتصادية . حسنا ، لكن ماذا يقصد السيد ميخائيلوفسكي ب «المادية الاقتصادية» ؟ أ«مفهوم التاريخ لدى ماركس وانجلز» ؟ يترتب على ذلك في هذه الحال ان لويس بلان كان واحدا من آباء هذا «المفهوم» وأن أتباع التصور المادي للتاريخ يتمسكون ب «المفهوم» أسوة بلويس بلان الذي يحتل ، على ما يقال لنا ، مكانة رفيعة في عداد مؤسسي هذا المذهب . من الذي **لا يقول الحق** اذن ؟ [التسويد مني هذه المرة] .

انني ارى من الان ، وأنا العارف بالسيد ميخائيلوفسكي ، كيف سيحاول ان يستل نفسه من هذه الورطة . سيقول :

«لم أتخلف عن القول بأن لدى لويس بلان اشياء كثيرة لا يمكن للسيد بلتوف ان يوافق عليها . وهذا يعني ان لويس بلان ، وان يكن واحدا من مؤسسي المادية الاقتصادية ، ليس ماديا اقتصاديا مثل الآخرين » .

ذلك ان كل شيء يحدث لدى السيد ميخائيلوفسكي كما في الاغنية الفرنسية :

كانوا اربعة

يريدون القتال .
لكن كان بينهم ثلاثة
لا يريدون القتال .
فقال الرابع : الامر لا يعنيني .
لكن هذا لا يمنع
انهم بقوا اربعة
يريدون القتال»(١٩) .

ان هذا المنطق لا يمكن ان يقنع الا اولئك الذين يريدون ان يقتنعوا بأي ثمن، اي الذين لا حاجة الى اقناعهم. اما الاستشهاد بالقول «صحيح ان هناك اشياء كثيرة» فانه لا يثبت شيئا بالنظر الى الجملة التي تلي :

«لكنها تحتوي بالمقابل على صراع الطبقات وعلى تعيين الاقتصاد للطبقات ، وعلى دور الاقتصاد كنابض خفي للسياسة ، وباختصار ، على اشياء كثيرة مما دخل **فيما بعد** في تركيب المذهب الذي يذود السيد بلتوف بحمية فائقة عن حياضه» .

ليس من سبيل الى فهم هذه الجملة على غير النحو الذي فهمته بها ، اي بمعنى انه ما دام يوجد لدى لويس بلان «تعيين الاقتصاد للطبقات» ودور «الاقتصاد كنابض خفي للسياسة» ، الخ ، فان هذا المؤلف كان ماديا اقتصاديا ، مثله مثل الاتباع الحاليين لدينا للتصور المادي للتاريخ .

---

١٩ ـ بالفرنسية في النص . «م»

لكني فهمت ، فضلا عن ذلك ، ان السيد ميخائيلوفسكي ، بقوله ما قاله ، قد اخطأ خطأ فاحشا ، لانه ثمة فرق جوهري هائل بين افكار لويس بلان عن التاريخ وبين «مفهوم التاريخ» لدى الماديين المعاصرين . وبالفعل ، يتميز هذا «المفهوم» بنزعة **مادية** ثابتة لا تناقض نفسها بتاتا ، بينما لم تمنع «مادية» لويس بلان «الاقتصادية» هذا الاخير من النظر الى التاريخ بعيني **مثالي**. ولئن أدرج السيد ميخائيلوفسكي ، رغما عن كل شيء ، لويس بلان في عداد مؤسسي «المادية الاقتصادية» ، قاصدا بها التفسير المادي الذي يعطى في ايامنا هذه للتاريخ ، فانما يثبت بذلك على أسطع نحو جهله المطبق بالموضوع .

ان «الاقتصاد كنابض خفي» و«تعيين الاقتصاد للطبقات» ، ان جميع هذه «الخصائص» التي يستند اليها السيد ميخائيلوفسكي ليدرج لويس بلان في عداد «مؤسسي المادية الاقتصادية» ، يمكن التقاؤها مجتمعة ومنفردة لدى المؤرخين الفرنسيين في عهد عودة الملكية ، لدى اوغستان تييري ، لدى مينييه ، وعلى الاخص لدى غيزو .

وبما أن السيد ميخائيلوفسكي يجهل ذلك جهلا مطبقا ، فلنبادر الى تزويده ببعض المعلومات المفيدة حول هذه النقطة .

لقد أسهم غيزو ، كما هو معروف ، بأوفر قسط في الحركة الاجتماعية (٢٠) التي تشكل السمة المميزة الاساسية للتاريخ الفرنسي في عهد عودة الملكية والتي تتجسد في نضال البورجوازية ضد ارستقراطية مدنية وكهنوتية مستميتة في سبيل استعادة امتيازاتها التي الغتها **الثورة** . وكان غيزو يفهم

---

٢٠ ـ لم يكن فرانسوا غيزو (١٧٨٧ ـ ١٨٧٤) مؤرخا فحسب ، بل شغل ايضا منصب وزير التعليم العام (١٨٣٢ ـ ١٨٣٧) ورئيس الحكومة (١٨٤٧ ـ ١٨٤٨) . «م»

حق الفهم معنى تلك الحركة . فلم تكن في نظره سوى الفصل الختامي لصراع طبقي مستمر منذ اجيال وقرون . وقد رأى غيزو في المناقشات السياسية الحامية التي كان مجلس النواب مسرحها آنئذ مظهرا للنزاع العريق بين «الطبقة الوسطى» وطبقة النبلاء. وكان تعاطفه الشخصي ينصب بتمامه على البورجوازية. وقد خدمها بكل قواه ، وبكل قلبه ، وبكل فكره ، ليشجعها على خوض غمار الكفاح الى النهاية . وقال عن أحداث نهاية القرن الثامن عشر انها كانت حربا . وقد افضت هذه الحرب الى غنم: فقد غنمت الطبقة الوسطى المكان الذي هو حق لها ؛ وعليها بأي ثمن ان تحافظ على هذا الغنم . ولا مكان لاي هدنة بين الطبقة الوسطى والارستقراطية ما دامت هذه الاخيرة لم تذعن لواقع الغنم هذا (*) .

على هذا الاساس ، اتهمه بعض أنصار العهد القديم بالكلام عن صراع الطبقات قصد اثارة المشاعر والاهواء . وقد رد عليهم ببلاغة مقنعة في مقدمته الطويلة للطبعة الثالثة للكتاب الذي ذكرت . فبعد ان أوضح ان صراع الطبقات ليس نظرية ، وانما واقع ، اردف يقول :

«بتعبيري عن هذا الواقع ما كنت أزعم لنفسي شرف اكتشاف او حتى شرف تجديد . كان كل مبتغاي ان ألخص تاريخ فرنسا السياسي . وتاريخ الطبقات يملأ او بالاحرى يصنع (كذا !) هذا التاريخ بأسره . كانوا يعرفون ذلك ويصرحون به قبل قرون

(*) انظر على الاخص «في حكومة فرنسا منذ عودة الملكية وفي الوزارة الحالية» ، باريس ١٨٢٠ .

عديدة من الثورة . وكانوا يعرفونه ويصرحون به في ١٧٨٩ . وكانوا يعرفونه ويصرحون به قبل ثلاثة اشهر (كتب في ١٨٢٠) . وبالرغم من اتهامي الان بالتصريح به ، لا أعتقد ان احدا من الناس قد نسي ذلك . ان الوقائع لا تتبخر تبعا لهوى الاحزاب ومصلحتها المؤقتة ...» .

ويلاحظ بعد ذلك ساخرا ان انكار واقعة صراع «الطبقات» كان سيذهل مؤرخا قديما مثل بولانفيلييه (٢١) بقدر ما كان سيذهل جميع النواب الشجعان للطبقة الثالثة الذين ذادوا عن حقوقها في الجمعية العامة (٢٢) . وفي رأيه ، ان ممثلي الارستقراطية المنحطين هم وحدهم الذين كان في مستطاعهم ان ينكروا ان طبقتهم كانت فيما غبر سيدة فرنسا وانها قاتلت بضراوة للدفاع عن امتيازاتها .

واضح هذا رأي غيزو بصدد «الاقتصاد كنابض خفي للسياسة» . لكن لعل السيد ميخائيلوفسكي يريد ان يعرف ان كان لا يوجد ايضا لدى غيزو «تعيين الاقتصاد للطبقات» . في هذه الحال ، أحيله الى **«مباحث في تاريخ فرنسا»** و**«تاريخ ثورة انكلترا»** . ولسوف يتبخر كل ظل من شك في هذا الصدد. اما عن رأي غيزو في «النابض الخفي» الذي يشرط انتشار الافكار في مجتمع من المجتمعات ـ رأي غير معروف على الوجه

---

٢١ ـ الكونت هنري دي بولانفيلييه : مؤرخ فرنسي للعصر الوسيط (١٦٥٨ ـ ١٧٢٢) . «م»

٢٢ ـ الجمعية العامة هي الجمعية التمثيلية التي كانت تضم ممثلي الطبقات الثلاث في فرنسا : الاكليروس والنبالة والبورجوازية . وفي عام ١٧٨٩ ، اعلن ممثلو الطبقات الثلاث مجتمعين قيام الجمعية التأسيسية. «م»

الصحيح ، ومن المناسب تسليط الضوء عليه ــ فانه يعبر عنه في النص التالي :

«ليست الافكار والمذاهب والمؤسسات بمنجى من سلطان الظروف ، والشعوب لا تأخذ بها الا متى وجدت فيها اداة او ضمانة لمصالح ملحة يتحسسها الجميع !» (*) .

ينبغي اذن تصنيف غيزو بدوره في عداد «مؤسسي المادية الاقتصادية» . ما رأيك في ذلك ، يا سيد ميخائيلوفسكي ؟ ثم ألن تجشم نفسك مشقة افهامنا وجه الاختلاف بين «مفهوم التاريخ» لدى وزير لويس ــ فيليب (٢٣) السابق وبين «المفهوم» الذي كان يكوّنه عنه مؤلف «الرأسمال» ؟

لعلك ستقول ايضا انه بالرغم من جميع «النوابض» التي استشهدت بها و«الخصوصيات» التي عددتها ، يبقى لدى غيزو «اشياء كثيرة» لا يمكن ان يوافق عليها أتباع التصور المادي للتاريخ عندنا ؟

ستكون على حق . لكني سأجيبك ، اولا ، بأن هذه «الاشياء الكثيرة» ان لم تكن قد حالت بين لويس بلان وبين المثول في عداد المؤسسين ، فانها تستطيع ايضا ان تحول بين غيزو وبين المثول في عدادهم . ثم سأنصحك ، فوق ذلك ، بإمعان الفكر في «الاشياء الكثيرة» التي تميز افكار لويس بلان وغيزو عن التاريخ

(*) «في حكومة ...» ، ص ٩١ .

٢٣ ــ ملك فرنسا من ١٨٣٠ الى ١٨٤٨ ، وفي عهده شغل غيزو مناصبه الوزارية . «م»

عن «مفهوم التاريخ لدى ماركس وانجلز» . واذا اخذت بنصيحتي ، فستتبين بنفسك انه في اصل هذه «الاشياء الكثيرة» يكمن الاقتناع بأن تطور العلاقات الاجتماعية والمؤسسات الاجتماعية يتعالى في التحليل الاخير **بخواص الطبيعة الانسانية**. لعلك تذكر ، يا سيد ميخائيلوفسكي ، ان ليست الطبيعة الانسانية هي التي تلعب دورا في «مفهوم التاريخ» لدى الماديين المعاصرين ، وانما العلاقات التي يعقد البشر أواصرها فيما بينهم بفضل حالة قواهم الانتاجية . ومن المفيد تذكر ذلك . وسأجرؤ على القول ان هذه «نقطة» لها «اهمية لا بأس بها ، على ما يبدو» لتمييز «مفهوم التاريخ» لدى الماديين المعاصرين عن سائر المفاهيم القديمة . وهذه النقطة على وجه التحقيق هي التي لا تسمح بإدراج لويس بلان وغيزو في عداد «مؤسسي» هذه المادية التي لها ، على حد ما نعلم ، طابع جدلي في الجوهر .

يستطيع السيد ميخائيلوفسكي ان يصنف التصنيف الذي يشاء مؤلفا يتكلم عن «الاقتصاد كنابض خفي للسياسة» ، ويعين الطبقات بالاقتصاد (ليس من وسيلة اخرى لتعيينها ، على كل حال) ، ويفكر ، نظير غيزو ، بأن التاريخ مصنوع من صراع تلك الطبقات ، وان كان **لا يعلم من اين يجيء «الاقتصاد» ذاته**، ويبذل قصارى جهده لتفسير اصله او تطوره بخواص الطبيعة الانسانية. لكن عليه ان يتذكر ان وجهة نظر هذا المؤلف معاكسة للمادية الجدلية المعاصرة .

لنأخذ على سبيل المثال السيد جوكوفسكي . ان السيد ميخائيلوفسكي لا يعلم اين يصنفه : أفي «عداد الماديين الاقتصاديين ام في عداد الماديين الجدليين» . وهذا جهل آخر يعود مصدره الى ان مناقضي الذاتوي لا يفهم المادية الجدلية . فلو كان يفهمها ، لما كان عليه غير ان يطرح على نفسه سؤالا : هل يفسر السيد جوكوفسكي اصل العلاقات الاقتصادية وتطورها في المجتمع بتطور القوى الانتاجية ؟ فاذا كانت كتابات هذا المؤلف

تجيب على هذا السؤال بالايجاب ، فما على السيد ميخائيلوفسكي ، من دون ان يتردد ثانية واحدة ، غير ان ينعته بأنه مادي جدلي. لكن اذا كان الجواب بالسلب، فليس بمستطيع ان يصفه بهذا الوصف الا اذا عكس معاني الكلمات . واني أعتقد ان لا سبيل البتة الى العثور في كتابات السيد جوكوفسكي على المعيار المذكور ، وهذه قناعتي الثابتة ما لم يثبت لي مناقضي العكس . وأرجح الظن انه لن يثبت ذلك ابدا . لكن حتى لو اثبته ، فلن يتبدل شيء لا في مسار مناقشتنا ولا في مآلها .

ما كانت غريتشن (٢٤) الساذجة تعلم ان «كلمات مختلفة بعض الشيء» تقلب المعنى رأسا على عقب . ويبدو ان ثمة اشخاصا آخرين يشاطرونها جهلها .

لقد غاب عن ذاكرتي «المقال القديم» للسيد جوكوفسكي (٢٥) الذي يستشهد به السيد ميخائيلوفسكي . لكن المقتطفات التي يسوقها منه تحمل على الاعتقاد بأن السيد جوكوفسكي يتكلم عن العوامل بـ «ألفاظ مختلفة بعض الشيء» عن ألفاظي .

هاكم ما نقرؤه لدى السيد ميخائيلوفسكي :

«بعد التنويه بالعناصر الثلاثة المحدّدة في كل زمن للوعي المدني في المجتمع ، العنصر القانوني

---

٢٤ ـ من بطلات غوته . وسيأتي ذكرها وشاهد كلامها بعد بضع صفحات . «م»

٢٥ ـ المقصود مقال كان جوكوفسكي قد نشره في كتابه «النظريات السياسية والاجتماعية في القرن السادس عشر» ، ١٨٦٦ . وقد ساق ميخائيلوفسكي شاهدا منه في مقاله «كلمة اخرى حول السيد طوغان ـ بارانوفسكي والعامل الاقتصادي» . «ن.س»

والعنصر السياسي والعنصر الاقتصادي، يتابع السيد جوكوفسكي قائلا : ينسى الحقوقيون ورجال السياسة والاقتصاديون ان «كل واحد منهم يدرس **فقط جانبا من المجتمع جرى تجريده عسفا ،** جانبا يمكن عزله لصالح الدراسة ، لكن على نحو اتفاقي فحسب وبدون اي استقلال ذاتي فعلي ، وبالتالي لا يمكن تصوره في ذاته ولا يكون له من معنى الا بارتباطه العام بالجوانب الاخرى» . ثم يردف قائلا : «اذا نظرنا الى المجتمع من زاوية نظرية خالصة ، امكننا **تجريد** جانب من جوانبه ، كما امكننا ابراز نتائج الجانب المعزول عن غيره ومطالبه . لكننا سنكون قد ارتكبنا خطأ فادحا» ، الخ» .

- ٦ -

لقد آن الاوان، على كل حال، للعودة الى مشكلة «العوامل».

اننا نعلم ان العلاقات الاقتصادية في اي مجتمع من المجتمعات مشروطة في مذهب الماديين المعاصرين ، لا بخواص الطبيعة الانسانية ، وانما بحالة القوى الانتاجية الاجتماعية . فطردا مع تنامي هذه القوى ، تتبدل العلاقات الاقتصادية والاجتماعية ، ويستتبع هذا التبدل تغيرا في طبيعة الانسان الاجتماعي ، **وبالتوازي مع تغير هذه الطبيعة ، تتغير العلاقات بين شتى عوامل الحياة الاجتماعية** . وهذه «النقطة» بالغة الاهمية ؛ بل يمكن القول انه متى ما فهمها المرء فهم كل شيء .

لنسلم بادىء ذي بدء بأنه لا وجود لغير عاملين اثنين : عامل مادي ، اقتصادي ، يتجاوب وحاجات «الجسم» ، وعامل روحي

يتجاوب وحاجات «الروح» (*) . فما تأثير تطور القوى الانتاجية على العلاقة القائمة بينهما ، مع الافتراض ــ توخيا لمزيد من البساطة ــ بأن هذا التطور لا يفضي الى انقسام المجتمع الى طبقات ؟

ان القوى الانتاجية المتاحة للانسان البدائي زهيدة للغاية . وعليه ، فان الشطر الاعظم من وقته يستغرقه الاهتمام بمحض صيانة وجوده الجسماني . «العامل الاقتصادي» هو الراجح اذن بلا تحفظ . لكن طردا مع تنامي القوى الانتاجية ، تتيح تلبية حاجات «الجسم» لهذا الانسان المزيد فالمزيد من وقت الفراغ الذي يسعه ان يستخدمه لصالح «الروح» : فيتفرغ للعلم ، للفن ، الخ . يمكن القول اذن انه طردا مع تطور القوى الانتاجية يتعزز العامل الروحي ، ويتكفل التاريخ نفسه من ثم بالطعن في صحة «المادية الاقتصادية» .

كانت الامور ستسير على هذا المنوال لو ان تطور القوى الانتاجية لا يفضي الى انقسام المجتمع الى طبقات . بيد ان فرضيتنا كانت عسفية. ففي الواقع ، يهدم تطور القوى الانتاجية المساواة البدائية بخلقه الاغنياء والفقراء . فالفقراء ، نظير متوحشي الحضارات البدائية ، لا يتاح لهم الا القليل القليل من الوقت لتلبية حاجات «الروح» . والعامل الاقتصادي يحجب عنهم ، لا محالة ، الرؤية . فحين تفقد امرأة عجوز ، ارمل ، ابنها الوحيد ، تعبر عن المها على النحو التالي تقريبا :

من سيعتني بالجدة التي لا أسرة لها ؟
هأنذا في حال اسوأ من حال الفقيرة المتسولة !
من سيقطع لي الحطب

(*) لا داعي لان أذكّر القارىء بأنني أتبنى هنا مفردات السيد كاريئيف.

لأمطار الخريف وبرد الشتاء ؟
وحين تبلى فروتي ،
من سيصيد لي الارانب البرية ؟
مسكينة كاسيانوفنا ، لقد مات ولدك ،
وبندقيته المعلقة يأكلها الصدأ !» (٢٦) .

ولكن ما شأن الاغنياء ، بل ليس الاغنياء وانما فقط الناس الذين لا يعرفون العوز ؟ ان العامل الاقتصادي لا يحجب عنهم الرؤية ، وحزنهم ازاء موت طفل يعبر عن نفسه غير ذلك التعبير، وعلى سبيل المثال هكذا :

«أواه ! كم من أمسيات شتائية مشمعة وساحرة
امضيتها في التفكير في اللغة والتاريخ والقواعد :
وأطفالي الاربعة مكومون على ركبتي ،
وأمهم على مقربة منهم ، وبعض اصدقاء يثرثرون عند ركن المدفأة !
كنت أسمي هذه الحياة الرضى بالقليل !
لكن ها هي طفلتي قد خطفتها يد المنون !
واحزناه ، فليشد الله في أزري !
ما كنت أعرف طعم الفرح اذا طالعني الحزن في وجهها،
كنت أكتئب وأتجهم حتى في الحفلات الراقصة المرحة
اذا ما لمحت، عند ذهابي، طيف حزن على عينيها»(٢٧).

---

٢٦ ـ نكراسوف : «في القرية» . «ن.س»
٢٧ ـ فكتور هيغو : «التأملات» . بالفرنسية في النص . «ن.س»
(ومن الممكن الرجوع الى ترجمتنا لمجموعة بليخانوف : «الفن والتصور المادي للتاريخ» للمزيد من المقارنة بين القصيدتين . «م») .

هذا لا يعني بالطبع ان الاغنياء او الناس الذين لا يعرفون العوز يحبون اطفالهم اكثر مما يحبهم الفقراء . لكن ترابط العواطف مختلف . فالأم عند نكراسوف تربط ذكرى ابنها ب «فروتها البالية» وب «الارانب البرية» ، الخ ، لان حب ابنها كان يتجلى في حرصه الدائم على تدارك الحاجات «الجسمانية» للعجوز . كانا من الفقراء . والفقير مقضي عليه بالهلاك اذا عجز عن العمل بنفسه ، واذا لم يكن الى جانبه من يساعده بعمله . ولو كانت أم نكراسوف غنية ، لما تجلى الحب الذي يكنه لها ابنها في حرصه على تدارك حاجات «جسمها» الحيوية : فقد كانت هذه الحاجات ستجد تلبيتها بواسطة المال ، وكانت عناية الابن ستتحول الى حاجات «الروح» . ولو كان الولد قضى نحبه قبل الام ، لما كانت وجدت اي سبب لاستحضار صورة الحطب المطلوب قطعه او صورة الفروة البالية ، بل لتذكرت ما كان يكنه لها من احترام ، او حنانه ورقته حين كان صغيرا ، ايام كانت «ترضى بالقليل» . وبعبارة اخرى ، لو كانت تجهل الفقر، لأمكنها ان تطلق نفسها على سجيتها للحب الوالدي . واكرر فأقول : ليست المسألة مسألة عمق العواطف ورقتها ورهافتها ، وانما ترابطها ؛ وهو ترابط مرهون بدرجة اليسر ، اي **بعلة اقتصادية.** باختصار ، لا مراء في ان العامل الاقتصادي يلعب ، مع انقسام المجتمع الى طبقات ، دورا متباينا في حياة الناس تبعا للطبقة التي اليها ينتمون ، ويكون تباين الدور متحددا ببنية المجتمع الاقتصادية .

ان هذا لاستنتاج مثير للاهتمام : استنتاج مؤداه ان دور العامل الاقتصادي يتحدد ببنية المجتمع الاقتصادية . فهل يترتب على ذلك ان البنية الاقتصادية والعامل الاقتصادي لا

يتماهيان (٢٨) ؟ بتاتا . بل انه لأمر يبعث على بالغ الدهشة ألا يكون السيد كاريئيف وأولئك الذين ينحون منحاه في التفكير قد فهموا ذلك .

يطلق اسم بنية المجتمع الاقتصادية على مجمل العلاقات التي يعقد البشر اواصرها فيما بينهم في سيرورة نشاطهم الانتاجي . ولا يرمي هذا النشاط الانتاجي الى تلبية حاجات «الجسم» وحدها كما يتصور السيد كاريئيف . لكن حتى لو كان هذا النشاط يرمي الى هذه الغاية وحدها ، لكان من المحال وغير المعقول مماهاة نشاط البشر الانتاجي بالعلاقات التي يعقدون أواصرها فيما بينهم أثناء قيامهم به . أن خصومنا لا يتوصلون الى ان يفهموا اننا **حين نتكلم عن البنية الاقتصادية** ، فانما عن هذه العلاقات نتكلم .

لقد تقدمت بنا معرفة ما يشرط بنية المجتمع الاقتصادية . فما هي بعلة ذاتها . لكنها ما ان توجد حتى تحدد مجمل البنى الفوقية التي تنهض عليها .

غير انه لا يحق لنا ان نتعلل دوما وأبدا ب «الاقتصاد» لتفسير الظاهرات الاجتماعية .

في اول مقالاتي عن تاريخ النقد الروسي ، حاولت ان أشرح للسيد فولنسكي افكار الماديين المعاصرين حول تطور الادب والفن (٢٩) ، مستشهدا على وجه الخصوص بمثال الرسم

---

٢٨ ــ تماهى s'identifier : تطابق في الهوية . والفعل مشتق من تعبير «ما هو» الذي منه اشتقت اصلا كلمة «الماهية» . «م»

٢٩ ــ يشير بليخانوف هنا الى مقاله «أ.ل. فولنسكي ، النقاد الروس ، دراسة ادبية» (القسم الاول من «مصائر النقد الروسي») ، المنشور في العدد٧ (نيسان ١٨٩٧ من نوفويه سلوفو ، بتوقيع مستعار هو ن. كامنسكي . وترجمة المقال العربية منشورة في «الفن والتصور المادي للتاريخ» تحت عنوان «النقد المثالي والنقد المادي» . «م»

الفرنسي . لنتأمل هذا المثال من جديد . ان امامي الان صورة فوتوغرافية للوحة دافيد المشهورة : **«حملة الفؤوس يحملون الى بروتوس جثمان ابنائه»** . فكيف تحدّرت مدرسة دافيد (٣٠) من علاقات الانتاج الاجتماعية ؟

لحل المعضلة ينبغي ان نتذكر ان جميع عناصر «البنيـــة الفوقية» لا تستمد اصلها **المباشر** من **القاعدة الاقتصادية** : فالفن على سبيل المثال **لا يرتبط بها الا بصلة غير مباشرة** . وعليـــه ، ينبغي على الدوام ، عند النقاش في الفن ، ان نأخذ في اعتبارنا الحلقات الوسيطة . وسوف نرى فيما يلي كيف تتيح لنا هذه الحلقات الوسيطة ان نرد على السؤال الذي يستأثر بعنايتنا .

- ٧ -

كان تطور العلاقات الاقتصادية في فرنسا قد دفع الـــى مقدمة المسرح بطبقة ثالثة ، وكانت هذه الطبقة «كل شيء» في الواقع ، و«لا شيء» في القانون . وكان هذا التناقض قد ايقظ ، بالطبع ، تذمرا متعاظما باستمرار اوحى الى افاضل اعضاء هذه الطبقة بالرغبة في الغاء النظام القديم مهما كلف الامر . وما ان ظهرت هذه الارادة للعيان ، حتى صار من المحتم ان يظهر للعيان ايضا الوعي بأنه «ليس من السهل اصلاح صنيع الاجيال» وبـأن الاطاحة ببنية بالية تقتضي تضحيات هائلة من جانب المجددين .

---

٣٠ - لويس دافيد : رسام فرنسي بارز (١٧٤٨ - ١٨٢٥) ، ثوري يعقوبي ، تمثل لوحاته بطولات العصور القديمة ، وتجسد المثـــل الجمالي الاعلـــى للكلاسيكية الجديدة البورجوازية . «م»

والى جانب هذا الوعي ، وكنتيجة ضرورية له ، ظهر شعـــور بالتعاطف مع رجال احبوا اوطانهم في عصور أخرى ، ولدى أمم اخرى ، الى حد التضحية . وغدا التاريخ القديم هو المصـــدر الرئيسي لأسطع أمثلة هذا الحب . واشرأبت العقول الاكثـــر تقدما نحو هذا التاريخ : تذكروا المقطع الذي تتحدث فيه مدام رولان (٣١) عن شغفها وحماستها حين كانت تطالع بلوتارك فـــي شبابها .

لا ينبغي اذن ، بناء على ما تقدم ، ان يأخذنـــا العجب لأن دافيد رسم «بروتس» . كما لا ينبغي ان يأخذنا العجب لما نالته من نجاح (٣٢) . كذلك لا ينبغي ان ياخذنا العجب لانها رسمت بناء على طلب رسمي . ويقدم ارنست شينو (*) شرحا ضافيـــا لهذا الظرف الاخير . وخلاصة رأيه انه في السنوات الاخيرة من عهد لويس السادس عشر ، وبنتيجة انجذاب الذوق العام الـــى جمهوريات العصور القديمة ، صارت الاوساط الرسمية تهتـــم اهتماما بالغا بتصوير الفنون ـ من نحت ورسم وأدب ـ لمآثـــر أبطال الاغريق ، وبخاصة أبطال روما . ونزولا عند طلب الذوق

---

٣١ ـ زوجة الجيروندي رولان ، كان لها صالون نافذ التأثير سياسيا ، وكان يتردد عليه الجيرونديون ؛ ماتت اعداما (١٧٥٤ ـ ١٧٩٣) . «م»

٣٢ ـ معلوم ان بروتوس حكم على ابنائه بالاعدام لانهم تآمروا لاعادة الملكية. وتصوره لوحة دافيد يستقبل بمهابة وشموخ حملة الفؤوس وهم يحملون اليه جثث ابنائه ، بينما زوجته وابنته تبكيان . وقد قال بليخانوف في تحليـــل اللوحة : «ان خلاص الجمهورية هو القانون الاسمى في نظر ذلك الرجل . انه هو الآخر رب اسرة ، ولكنه رب أسرة صار مواطنا . والفضيلة عنده هي فضيلة الثوري السياسية» . «م»

(*) راجع «الرسم الفرنسي في القرن التاسع عشر» ، الطبعة الثالثة ، ص ١٠ .

العام ، اوصى السيد دانجيفيليه ، ناظر الفنون الجميلة ، دافيد على لوحتين كان لهما الاثر الحاسم في توطيد شهرته : **«قسم الهوراسيين»** (٣٣) و**«حملة الفؤوس يحملون لبروتوس جثمان ابنائه»** .

لقد أذعن دانجيفيليه لضغط الرأي العام ، وكان اتجاه هذا الرأي العام متحددا بالعلاقات الاجتماعية في فرنسا عضرئذ ، تلك العلاقات التي كانت بدورها ثمرة تطور القوى الانتاجية التي احدثت تعديلا عميقا في كل «اقتصاد» البلاد . هذا شيء ميسور الفهم ؛ ويلاحظ شينو بسداد ان دافيد عبر وأحسن التعبير عن الشعور القومي الذي صفق لنفسه بتصفيقه للوحاته . ويضيف شينو قائلا : كان دافيد يرسم الاشخاص الذي يتبناهم الجمهور كنماذج ، وكانت حماسة هذا الجمهور ازاء هذه اللوخات تعزز اعجابه بأولئك الابطال . ومن هنا كانت السهولة التي تمت بها في الفنون الجميلة ثورة تضارع تلك التي حدثت في الأعراف وفي البنية الاجتماعية (*) .

توضح هذه الاسباب لماذا اختار دافيد موضوع تينك اللوحتين . بيد ان الثورة التي أنجزها في الفن لا تقف حدودها بالطبع عند هذا الاختيار . بل ان التحول شمل كل موقف الرسامين من الرسم . فالمدرسة التي تمرد عليها دافيد كانت تتسم بتصنع وتفاهة وتحذلق بلغت أسوأ مداها لدى كارل

---

٣٣ ـ تمثل لوحة «قسم الهوراسيين» ، التي رسمت عشية الثورة ، ثلاثة رومانيين إشاوس يتهيأون للتضحية بأنفسهم باسم انجاز واجبهم المدني . وقد دوت اللوحة كنداء ثوري ، وبوأت دافيد مركز زعامة المدرسة الجديدة في الرسم . «ن . س»

(*) راجع «الرسم الفرنسي ...» ، ص ١٩ .

فانلو (٣٤) وتلاميذه . وقد جاء فن دافيد كرد فعل على هـــذا الميل الى التكلف . ولهذا نابت عنده بساطة متقشفـــــة مناب التصنع والتكلف (*) .

اين كان يسع دافيد ان يجد خير أمثلة هذا التجرد ؟ هـــذه المرة ايضا ، في العصور القديمة . وهذه المرة ايضا ، في التاريخ الروماني القديم الذي كان معروفا اكثر بكثير عهدئذ من التاريـــخ الاغريقي. سيستقي دافيد اذن نماذجه من القدامى. لكن المعلومات عن الرسم القديم كانت ضئيلة ، وكان النحت هو الذي يعبر ، بالنسبة الى المحدثين ، خير تعبير عن تصورات القدامى الجمالية. وفي مستطاعنا ، لو شئنا ، ان نثبت بلا مشقة ان العيـــــوب الاساسية في مدرسة دافيد ترجع في اصلها الى هذا السبب . ومن دون ان ندخل في التفاصيل ، لنقل فقط ان جميع لوحات دافيد التاريخية تمثل ، بتأثير هذا الظرف ، عددا لا يستهان به من تماثيل مرسومة بروعة وبهاء (**) .

ما عتم هذا العيب الاساسي ان ظهر للنور عندمـــا انفتحت البورجوازية الفرنسية ، بعد فوزها بمواقع جديدة ، على روح

---

٣٤ ــ شارل اندريه فانلو : رسام فرنسي اختص برسم المشاهد المركبـــة (١٧٠٥ ــ ١٧٦٥) . «م»

(*) «بقدر ما شط السابقون في التحذلق والتأنق التفه ، جاء رد الفعل شططا في البساطة والتقشف» ، ارسين الكسندر : «التاريخ الشعبي للرسم ، المدرسة الفرنسية» ، ص ٢٥٤ .

(**) نتبين من ذلك ان فن عصر بعينه ، وكذلك الايديولوجيا ومجمـل السيكولوجيا الاجتماعية ، اذ تعكس العلاقات الاجتماعية ، ترتبط في الوقت نفسه وثيق الارتباط من منظور الشكل (بالمعنى الايجابي او السلبي) بفن العصر او العصور السابقة . هذا ما ينبغي ان يكون دائم المثول في اذهاننا حين ندرس تاريخ الايديولوجيات .

اخرى . لكن لم يتنبه احد لهذا العيب في القرن الثامن عشر : اذ كان لا يقبل انفصالا عما كان يمثل بالنسبة الى العصر ، كما رأينا اعلاه ، الميزة الاساسية لرسم دافيد .

طبيعي انه يمكن القول ــ وقد قيل مرارا ــ ان دافيد وتلاميذه (٣٥) ما كانت لهم طينة الفنان الحقة . وبديهي ان **هذا** النقص لا يمكن ان يفسر لا بحالة الرسم الفرنسي قبل دافيد ، ولا بتأثير الفن القديم . لكنه يتفسر على أحسن وجه بحالة فرنسا **الاجتماعية** عصرئذ : فلئن اسهمت هذه الحالة بأوفر قسط في تطوير **العقل** ، فانها لم تشجع تطور الموهبة الفنية . وكفة العقل لدى دافيد ترجح رجحانا مطلقا كفة الخيال ، وفي هذا خسارة محققة للرسام . وقد كان للرومانسيين طينة رسامين اغنى بكثير من تلاميذ مدرسة دافيد، وهذا امر لا مرية فيه. لكن الرومانسية تناظر طورا آخر في تطور فرنسا الاجتماعي .

زبدة القول ، لم تكن الثورة التي انجزها دافيد في الرسم سوى التعبير الفني عن كفاح الطبقة الثالثة في سبيل انعتاقها . واذا ما عرفنا علاقة هذا الكفاح بتطور البنية الاقتصادية للمجتمع الفرنسي ، أمكننا ان نربط رسم دافيد بذلك التطور . بيد ان اللجوء الفوري الى «الاقتصاد» لا يفسر شيئا . وهذا عمل لا يمكن ان يأتيه الا من فهم فهما مغلوطا «مفهوم التاريخ» لدى الماديين المعاصرين ، أي الماديين **الجدليين** ، يا سيد ميخائيلوفسكي .

وللانتهاء من مسألة «العوامل» ، سأسوق مثالين آخرين . لقد ابرزت الثورة الفرنسية عددا موفورا من الخطباء

---

٣٥ ــ خرج من مدرسة دافيد غرو ، غرانيه ، درويه ، جيروديه ــ تريوزون، جيرار ، ايزاباي ، نافيز ، لويس ــ ليوبولد روبير ، انجر ، وآخرون .

«ن.س»

المفوهين . فقد كان ميرابو وبارناف والجيرونديون وعدد كبير من الجبليين سادة حقيقيين للكلام . فأين تعلموا فنهم ؟ لدى كبار المسرحيين التراجيديين الفرنسيين الذين طوروا **فن الفصاحة** الى حد الكمال . وهكذا كانت التراجيديا «عاملا» في تطور بلاغة سياسية كانت سلاحا رهيبا بين أيدي رجالات الدولة عهدئذ .

المثال الثاني : تعرض الادب ألفرنسي في نهاية القرن الثامن عشر وبداية التاسع عشر بقوة لتأثير «العامل» السياسي ، بينما لم يظهر فيه تقريبا أثر «الاقتصاد» . فما اعظمها من سانحة للتعبير عن حقدك الكريم على اولئك «التلامذة» الحمقى الذين تتهمهم بعدم الاعتراف بأي «عامل» غير عامل الاقتصاد ! لكن اذا ما حاولت ـ بعد ان تفرغ ما في قلبك في خطبة تقريعية ملتهبة ـ ان تعرف ما الذي يشرط الفعل المتبادل (والمتغير بلا انقطاع ، لاحظ ذلك جيدا !) لجميع هذه «العوامل» ، فستتيه في دياميس الظلمات الى ان تلجأ الى «التلامذة» الحمقى ، فيقولوا لك ما يلي :

ان حالة معينة للقوى الانتاجية تشرط بنية اقتصادية معينة للمجتمع. وبدءا من هذه البنيةتتطور علاقات قانونية وسياسية. وينعكس مجمل هذه العلاقات في وعي البشر ويشرط سلوكهم. ويمارس «الاقتصاد» احيانا فعله على المسالك الانسانية بوساطة «السياسة» ؛ وأحيانا اخرى يمارسه بوساطة الفلسفة او الفن او اي ايديولوجيا اخرى ؛ وانما مع مر الزمن فقط ، **وفي الاطوار المتاخرة من الرقي الاجتماعي** ، يرتدي «الاقتصاد» في الوعي الانساني مظهره **«الاقتصادي»** الصرف . وفي غالب الاحيان يفعل فعله في البشر بوساطة هذه العوامل مجتمعة ، علما بأن فعلها المتبادل وكذلك شدة كل واحد منها على حدة منوطان بعلاقات اجتماعية محددة ترتد في منشئها الى قاعدة اقتصادية معينة ، وهي ظاهرة تتحدد بدورها بطابع هذه القاعدة .

في مختلف أطوار التطور الاقتصادي للمجتمع ، تتعرض كل

ايديولوجيا بقدر متفاوت لتأثير الايديولوجيات الاخرى . ففي البدء ، يرتبط القانون بالدين . ثم يقع ، في القرن الثامن عشر على سبيل المثال ، تحت تأثير الفلسفة . ولا تقضي الفلسفة على تأثير الدين على القانون الا بعد ان تخوض صراعا ضاريا . ويأخذ هذا الصراع شكل مواجهة بين مفاهيم مجردة . وقد يتراءى لنا ان اهمية كل «عامل» تتزايد او تتناقص بفعل قوته الذاتية والقوانين المحايثة لتطور هذه القوة ، بينما مصيره متحدد بتمامه في الواقع بتطور العلاقات الاجتماعية .

تدلنا المقارنة بين الثورة الفرنسية والثورة الانكليزية على مدى ارتهان مصير كل «عامل» بخواص هذه العلاقات الاجتماعية، وحتى بالخواص الثانوية منها . لقد أوضح غيزو في مقدمة كتابه «**تاريخ الثورة الانكليزية**» ان الثورتين كلتيهما نجمتا عن اسباب واحدة وكانت لهما اهداف واحدة . «**كان الميل واحدا كما المنشأ . وكانت الرغائب والجهود وخطوات التقدم متجهة نحو الهدف ذاته**» . بيد ان الميول الواحدة كانت تتجلى في انكلترا على غير ما تتجلى به في فرنسا . ففي اول هذين القطرين ارتدت صبغة **دينية** ، وفي ثانيهما صبغة **فلسفية** . ويرجع هذا الفرق في دور «العوامل» الى بعض الفروق الثانوية في علاقات الطبقات .

لقد افترضنا للتو انه كان يوجد عاملان فقط . وعلينا ان نقر الان بأن هناك وفرة من العوامل . وبادىء ذي بدء ، يتعامل كل فرع خاص من فروع العلم مع «عامل» خاص . وناهيك عن ذلك ، يمكننا ان نحصي حتى في كل فرع علمي خاص عدة عوامل . هل الادب عامل ؟ اجل . هل الشعر المسرحي عامل ؟ بلى . والتراجيديا ؟ لست ارى سببا يحول دون اعتبارها عاملا . والدراما البورجوازية ؟ كذلك هو حالها . وبالاختصار، ان العوامل لا تقع تحت حصر .

حين يقول خصوم التصور المادي للتاريخ ان تطور الانسانية

يتم تحت تأثير عوامل شتى وشديدة التباين ، فانهم يعبرون بذلك عن حقيقة كبرى . لكن هذه الحقيقة الكبرى ترتد الى ما يلي ، وهو ان العلاقات الفعلية بين البشر في المجتمع وتطور هذه العلاقات التاريخي **تنعكس في الوعي الانساني من زوايا شتى وشديدة التباين وعلى مستويات مختلفة .**

ان هذه الحقيقة التي لا تقبل جدالا لا تستطيع ان تكون بمثابة حد لمعرفتنا العلمية بالعلاقات الاجتماعية. فبعد ان نلاحظ ان الثورة الانكليزية تعرضت بقوة لتأثير «العامل» **الديني** ، يتوجب علينا ان نجد العلل **الاجتماعية** لاصل هذا التأثير. كذلك، بعد ان نلاحظ ان الحركة الاجتماعية في فرنسا في القرن الثامن عشر قد رفعت عاليا راية **الفلسفة** ، يتوجب علينا ان نكتشف العلة الاجتماعية التي رجحت كفة الفلسفة . وبما اننا نعرف من الاساس ما يشرط العلاقات الاجتماعية بين البشر ، فلن تمنعنا كثرة العوامل وتنوعها من النظر الى التاريخ من وجهة نظر الواحدية المادية .

بعد أن قرأ السيد ميخائيلوفسكي مقالي عن التصور المادي للتاريخ ، تخيل انني بدأت أنظر الى الحياة الاجتماعية بالعين ذاتها التي ينظر بها اليها الانتقائيون من شاكلته . ويظهر هنا عالم الاجتماع الشائب هذا سذاجة جديرة بالصبية غريتشن :

هذا ما يقوله تقريبا الخوري
لكن بكلمات مختلفة بعض الشيء (٣٦) .

ولا يسعني الرد على هذه السذاجة العذرية الا بلسان

---

٣٦ ــ بالالمانية في النص . وكذلك كلام فاوست الذي يلي . «م»

فاوست :

لا تغلطي ،
يا صديقتي الرقيقة .

لعل القارىء سيسألني هل يوجد بالفعل «ماديون اقتصاديون» يسعون الى زج العامل الاقتصادي في كل شيء ؟ وسأجيب ان بلى . فمنذ زهاء خمسة عشر عاما مثّل السيد دي موليناري (٣٧) **هذه** المادية المزعومة . راجعوا على سبيل المثال «**التطور السياسي**» الذي نشره هذا المؤلف المعروف في «**صحيفة الاقتصاديين**» . فالحرب عند موليناري صفقة تجارية تستتبع ربحا او خسارة ، والجمهورية شركة مساهمة ، والملكية مشروع خاص ، الخ ، على اعتبار ان النظام الاقتصادي البورجوازي يبقى في نظره النظام الطبيعي الوحيد للعلاقات الاقتصادية . ومن نافل القول أن هذا محض لغو ، لكن مثل هذه المادية نلقاها ، بنسب كبيرة ، لدى المؤرخين الفرنسيين في النصف الاول من القرن التاسع عشر . ولا يتسع المجال هنا للتبسط في هذه النقطة . وما دام في نيتي ان الخص «**الديموقراطية في اميركا**» **لتوكفيل** (٣٨) ، الذي ظهر مؤخرا في ترجمة روسية بقلم السيد ليند ، فستكون مناسبة للتبسط في الحديث عن تلك المادية .

---

٣٧ ـ غوستاف دي موليناري : اقتصادي بلجيكي (١٨١٩ ـ ١٩١١) . «م»

٣٨ ـ الكسي شارل هنري دي توكفيل : كاتب ومؤرخ فرنسي ليبيرالي ، وزير الخارجية في وزارة بارو الرجعية في عهد الجمهورية الثانية (١٨٠٥ ـ ١٨٥٩) . «م»

والى اي صنف من الماديين ينتمي السيد طوغان ـ بارانوفسكي ؟ من يقرأ ويفهم كتابه عن الازمات ، يستنكف عن طرح السؤال (٣٩) . لكن السيد طوغان ـ بارانوفسكي يستخدم مفردات غير موائمة ، وهذا ما يبعث عظيم الفرح في قلوب «بهلوانات الادب» (٤٠) الذين لا يملكون اي فكرة عن الموضوع ، ويعجزون عن تخطي الخصومات الكلامية الخالصة .

ان السيد ميخائيلوفسكي لا يدرك من المقصود بواحدة من الصيغ الواردة في مقالي : «المحتالون الذين عبثا ينتسبون الى اسم كبير» . فلنوضح اذن . انني أعتبر محتالا كل من يقترح على «المجتمع» أن «يحل» «مشكلات» يعجز هذا الاخير ، بحكم وضعه الاقتصادي ، حتى عن فهمها . هل يوجد لدينا مؤلفون طائشون لا يتورعون عن ابداء مثل هذه الاقتراحات الساذجة ؟ انني اترك السيد ميخائيلوفسكي عناء الرد . فلئن وجد لدينا من امثال هؤلاء المؤلفين ، فعبثا نلح ...

- ٨ -

انتقل الان الى «النقاط» الاخرى في مقال السيد ميخائيلوفسكي .

---

٣٩ ـ في ١٨٩٧ كان طوغان ـ بارانوفسكي ما يزال ينتمي الى معسكر «الماركسيين الشرعيين» . وقد صدر كتابه «الازمات الاقتصادية في انكلترا المعاصرة ، وأسبابها ، وتأثيرها في حياة الامة» في سان بطرسبورغ عام ١٨٩٤ . «ن.س»

٤٠ ـ تعبير لميخائيلوفسكي استخدمه ضده بليخانوف في كتابه «مبحث في تطور التصور الواحدي للتاريخ» . «ن.س»

انه يزعم انني أبعث «الهيغليـــــة» الى الحياة من جديد . وبديهي ان **هذا الزعم ليس صحيحا** (التسويـــد ، مرة اخرى ، مني) . فقد كان هيغل مثاليا ، ولن يصمني بالمثالية اي مناقض وهو مرتاح الضمير ، حتى ولو كان لا يعرف الفلسفة الا عـــن طريق كتاب ليويس . اما اذا أخرس صوت ضميره ، ففـــي مستطاعه بكل توكيد ان يعلنني مثاليا ، متذرعا بما أضمره من احترام عميق لهيغل . على ان مؤلف الـ «**ملاحظات عن ستيوارت ميل**» هو الذي علمني ان أحترم هذا الفيلسوف .

هاكم ما ورد في الخلاصة التي يعطيها عن أطروحته حـــول العلاقات الجمالية بين الفن والواقع (٤١) :

«يرى السيد تشيرنيشفسكي ان الاتجاه الراهــن للعلم صائب تماما ، وإذ يلاحـــظ نقص الانظمـــــة الميتافيزيائية السابقة ، وفي الوقت نفسه ارتباطهـــا الذي لا يقبل انفصاما بالنظرية الجمالية الراجحـــة الكفة ، يستنتج من ذلك انه ينبغي استبدال نظريـــة الفن السارية المفعول بنظرية اخرى اكثر انسجاما مع الافكار العلمية الجديدة عن الطبيعة وعن الحيـــــاة الانسانية . لكن قبل الشروع بعرض هذه التصورات، التي لا تفعل شيئا سوى انها تطبق على المشكلـــــة الجمالية افكارا باتت شائعة اليوم ، ينبغـــي لنا ان

---

٤١ ـ لم تتح الامكانية لتشيرنيشفسكي في أطروحتـــه عن «العلاقـــات الجمالية بين الفن والواقع» ليقول كل ما كان يريد وكل ما كان يستطيع ان يقوله . ولهذا اكملها بأن نشر في عام ١٨٥٥ في مجلة سوفريمنيك تحليـــلا مزعوما لاطروحة تشيرنيشفسكي بتوقيع الحرفين الاولين ن.ب. «ن.س»

نفسر العلاقة التي تقيمها هذه الافكار الجديدة مع القديمة في مضمار العلم بوجه عام .

كثيرا ما نرى متابعي عمل علمي ما يتمردون على المتقدمين عليهم ، مع ان اعمال هؤلاء الاخيرين كانت بمثابة نقطة انطلاق لعملهم بالذات . فقد كان ارسطو ينظر بعين العداء الى افلاطون ، وما كان ينضب لسقراط معين في ذم السفسطائيين الذين كان متابعهم . وتقدم لنا الازمنة الحديثة العديد من الامثلة المشابهة ، لكن تصادفنا احيانا حالات تقوي العزيمة، وذلك حينما يدلل مؤسسو الانظمة والمذاهب على تفهم للرابطة البيئنة التي تربط آراءهم بأفكار المتقدمين عليهم ، وحينما يظهرون تواضعا ويصفون انفسهم بأنهم تلاميذهم ؛ تلاميذ لا يُنكر عليهم انهم سدوا الثغرات التي في تصورات المتقدمين عليهم ، ولكن استقامتهم تلزمهم بالاعتراف بمدى ما ساهمت به هذه التصورات في تطوير افكارهم بالذات . هكذا كان سبينوزا ،على سبيل المثال ، ينظر الى ديكارت. وينبغي ان نسجل ، لصالح مؤسسي العلم الحديث، انهم ينظرون الى المتقدمين عليهم بتوقير ، بل بما يشبه الحب البنوي ، وانهم يقرون لهم بكل عظمة عبقريتهم وبكل اصالة مذاهبهم التي اليها يُرجعون اصل افكارهم . ان السيد تشيرنيشفسكي يفهم ذلك ، ويقتدي بمثال الرجال الذين يطبق فكرهم على المشكلات الجمالية » .

كان تشيرنيشفسكي في الفلسفة تلميذا لفيورباخ . وكان الرجل الذي من فلسفته وُلد مذهب فيورباخ ، الرجل الذي أكنّ له تشيرنيشفسكي ، على منوال فيورباخ ، احتراما كبيرا ،

هو هيغل ؛ هيغل الذي لا يرى السيد ميخائيلوفسكي في نتاجه غير «الميتافيزياء» . على انني لا افصح هنا عن افكاري على الوجه المرام . اذ هل يمكن القول اصلا ان السيد ميخائيلوفسكي **يرى** شيئا ما في **نتاج** هيغل الذي **لم يقع قط تحت بصره** ؟ كان احرى بي اذن ان أستعمل صيغة اخرى . وعلى كل حال ، آمل ان يكون القارىء قد فهم عليّ .

في الـ **«مقالات في الحقبة الغوغولية من الادب الروسي»** يتكلم تشيرنيشفسكي من جديد عن هيغل بتقدير بالغ . ولا ريب في ان السيد ميخائيلوفسكي سيجني فائدة جلى لو قرأ منها ، على سبيل المثال ، هذه السطور :

> «اننا لسنا متابعي هيغل مثلما لسنا متابعي ديكارت او ارسطو . فهيغل بات ملكا للتاريخ . ولعصرنا فلسفة اخرى ، وعيوب النظام الهيغلي سافرة له . لكن لا مناص من التسليم بأن المبادىء التي صاغها هذا المفكر كانت بالفعل قريبة الغاية من الحقيقة ، وبأنه عرض بعض جوانب هذه الحقيقة بقوة مذهلة حقا . والفضل في اكتشاف العديد من هذه الحقائق يعود الى هيغل وحده دون غيره . اما الحقائق الاخرى ، فلئن لم يكن مردها الى مذهبه وحده ، بل الى مجمل الفلسفة الالمانية بدءا من كانط وفيخته ، فانه لم يسبق قط ان جرى التعبير عنها بمثل ذلك الوضوح ، كما لم يسبق قط ان صيغت بمثل تلك القوة » .

بهذه الروح على وجه التحديد أنظر الى هيغل ، بالرغم من عدم اهليتي .. فأنا لا اسعى الى بعث «الهيغلية» مثلما لا اسعى

الى بعث الديكارتية ، لكني أعلم ان «المبادىء التي صاغها هـذا المفكر كانت بالفعل قريبة للغاية من الحقيقة ، وانه عرض بعض جوانب هذه الحقيقة بقوة مذهلة حقا» . هذا ما اقوله في مقالاتي . والسيد ميخائيلوفسكي يسخطه ذلك . وسأرد عليه بلسان فونفيزين (٤٢) : «انه لعزاء للجهل البشري ان يعتبر بعضهم كل ما لا يستطيع ان يفهمه ضربا من الترهات» .

لعل القارىء لا يعرف ما الجوانب من فلسفة هيغل التي كانت تحظى اكثر من غيرها باعجاب مؤلف **«الملاحظات عن ستيوارت ميل»**؟ انها **المنهج الجدلي**، والنفور من **«الفكر الذاتي»**. أيدهشكم ذلك ؟ اقرأوا اذن معي :

«هوذا اولا المبدأ الخصب لكل تقدم ، المبدأ الذي يميز بجلاء وسطوع عظيمين الفلسفة الالمانية بوجه عام ، والهيغلية بوجه خاص ، عن النظريات المرائية الى حد الجبن والدارجة عصرئذ (في مستهل القرن التاسع عشر) لدى الفرنسيين والانكليز، المبدأ القائل: «ان الحقيقة هي هدف الفكر الاسمى ؛ اطلبوا الحقيقة لان الحقيقة غلاف الخير ؛ وكائنا ما كان الحقيقي فانه افضل على الدوام من غير الحقيقي ، وليكن الواجب الاول للمفكر الا يتراجع امام اي استنتاج ؛ وليقف على أهبة الاستعداد للتضحية بأعز آرائه على مذبح الحقيقة ؛ فالخطأ هو مصدر كل شر ، والحقيقة هي الخير الاسمى ومصدر كل خير آخر» . وحتى نقدر

---

٤٢ ـ دينيس ايفانوفتش فونفيزين : كاتب هجاء روسي (١٧٤٥ ـ ١٧٩٢).
«م»

اهمية هذا المبدأ حق قدرها ، وهو مبدأ تجمع عليه الفلسفة الالمانية قاطبة بدءا من كانط ، ولكن هيغل هو اول من صاغه بقوة فذة ، يجب ان نتذكر الشروط الشاذة والجائرة التي كان يفرضها آنئذ على الحقيقة مفكرو المدارس الاخرى : فهم ما كانوا يعمدون الى التفلسف الا لـ «يبرروا القناعات الغالية على قلوبهم»، اي ما كان طلبهم الحقيقة ، بل تثبيت آرائهم المسبقة ؛ وما كان الواحد يأخذ من الحقيقة الا ما يحلو له ، وينبذ بالمقابل كل حقيقة غير سارة ، مقرا بلا تكليف بأنه يؤثر ألف مرة خطأ محببا الى النفس على حقيقة متجردة . وهذه الطريقة في التعلق ، لا بالحقيقة ، بل بتبرير افكار مسبقة محببة ، كان الفلاسفة الالمان (وعلى الاخص هيغل) يعدونها «فكرا ذاتيا» ، فلسفة برسم اللذة الشخصية ، لا فلسفة تمليها حاجة حيوية الى الحقيقة . لقد ازاح هيغل القناع بقسوة عن هذا التلهي الضار والباطل» .

أهناك شك في ان هذا المقطع ممتاز ؟ انه يفسر على أحسن وجه لماذا أضمر كتّابنا «المتقدمون» كراهية عظيمة لهيغل من كثرة ما أدمنوا على «التلهي الضار والباطل» الذي يطلق عليه اسم «الفكر الذاتي» .

لنصغ الان الى ما يقوله تشيرنيشفسكي عن الجدل :

«لقد دعا الى اعتماد «منهج التفكير الجدلي» المشهور تلافيا للميل الى الانصراف عن الحقيقة والى تقديم الرغائب والآراء المسبقة الشخصية . وقوام المنهج الجدلي التزام المفكر بألا يعتبر نفسه راضيا عن اي استنتاج ايجابي ، وبأن يبحث في ما اذا كان

موضوع تأمله لا يشتمل على صفات او قوى معاكسة لتلك التي يبدو على الموضوع المذكور انه يشتمل عليها من الوهلة الاولى ؛ وعلى هذا النحو يلتزم المفكر بأن يدرس الموضوع من جوانبه كافة ، فلا تتكشف له الحقيقة الا بوصفها نتيجة صراع بين جميع الآراء المتعاكسة الممكنة . وتتيح هذه الوسيلة امكانية استبدال مفاهيم الموضوع الجزئية تدريجيا بتحليل شامل جامع لهذا الموضوع، بمفهوم حي لجميع صفاته الواقعية . ويغدو بيان الواقع الواجب الاساسي للفكر الفلسفي . ومن هنا كان الاهتمام الخارق للمألوف بهذا الواقع الذي لم يشغل احدا من قبل والذي ما كان الناس يتورعون عن تحريفه لصالح آرائهم المسبقة المتحيزة . وعلى هذا النحو أخلت التأويلات العسفية محلها لبحث مدقق لا يعرف الكلل عن الحقيقة . والحال ان كل شيء مرهون في الواقع بالظروف ، بشروط المكان والزمان . وبناء عليه ، يعلن هيغل ان جوامع الكلم المجردة السالفة ، والعموميات التي كانوا يزعمون فيما غبر انهم يصدرون بواسطتها حكما على الخير والشر ، دونما اهتمام بالظروف وبالاسباب التي تولدت عنها الظاهرة ، لا يمكن ان ترضي الفكر : فكل موضوع ، كل ظاهرة لها مدلولها الخاص ، واذا اردنا اصدار حكم عليها وجب علينا ان نأخذ في اعتبارنا الوسط الذي وجدت فيه ، وهي قاعدة كان يصوغها على النحو التالي : «لا وجود لحقيقة مجردة ؛ فالحقيقة دوما عينية» . وبعبارة اخرى : لا يمكن اصدار تعريف الا لواقعة محددة ، وبعد دراسة جميع الظروف التي تتعلق بها هذه الواقعة» .

واضح اذن ان المنهج الجدلي ليس شيئا سيئا كما يتصور السيد ميخائيلوفسكي على ما هو ظاهر للعيان . وواضح ايضا ان المؤلفين الميالين الى «الفكر الذاتي» هم وحدهم الذين يمكن ان يدينوا هذا المنهج . وواضح اخيرا انني اذا «بعثت الهيغلية» بدفاعي عن الجدل ، لا اكون قد اتيت امرا إدا . او ، على كل حال ، ما كان تشيرنيشفسكي هو الذي سيدينني على هذه الجريمة .

ومهما يكن من امر ، فان المنهج الجدلي يرتدي بين ايدي الماديين المعاصرين اهمية جديدة ومرموقة .

يقول مؤلف **«الرأسمال»** :

«لا يختلف منهجي الجدلي عن المنهج الهيغلي في اساسه فحسب ، بل هو نقيضه المطلق . فحركة الفكر ، التي يجسدها هيغل باسم **الفكرة** ، هي عنده خالقة الواقع الذي هو محض شكل ظاهري **للفكرة** . اما في نظري انا ، فما حركة الفكر ، على العكس ، الا انعكاس الحركة الواقعية ، بعد نقلها وتحويلها الى دماغ الانسان .

«لقد امسى الجدل ، في مظهره الصوفي ، درجة دارجة في المانيا ، اذ كان يبدو عليه وكأنه يمجد الاشياء الموجودة . لكنه في مظهره العقلاني فضيحة وشناعة في نظر الطبقات الحاكمة وايديولوجييها المتمذهبين ،لانه يدرج في التصور الايجابي للاشياء الموجودة فهم حتمية نفيها وضرورة تدميرها ، ولانه اذ يعقل الحركة بالذات ، الحركة التي لا يعدو كل شكل متكون ان يكون مظهرا انتقاليا لها ، لا يهاب اي شيء ، ولانه في جوهره نقدي وثوري» .

انه ليشرّفني ان «أبعث» منهجا يتوجب حياله على خيالاتنا «الذاتية» و«صيغ تقدمنا» الطوباوية ان تطأطىء الرأس مذعنة . والسيد ميخائيلوفسكي نفسه يحدس بأن الامور تسير على اسوأ ما يرام بالنسبة الى الخيالات الذاتية والصيغ الطوباوية . ولهذا يحتمي وراء ديموقراطيي ١٨٦٠ ، ويسعى الى تصويرنا بصورة الاعداء الشرسين للميراث الذي خلفوه لنا .

لكن هذا ايضا **ليس صحيحا** (التسويد مني هنا ايضا) . فقد تركت لنا حقبة ١٨٦٠ تراثا متنوعا . ورثنا على سبيل المثال افكار دوبروليوبوف وأصدقائه . وسأرجو السيد ميخائيلوفسكي أن يبين اين ومتى هاجمنا هذه الافكار : ولن يكون في مستطاعه ابدا أن يفعل ذلك ، لسبب بسيط وهو انها حظيت على الدوام بتأييدنا . لكننا ورثنا ايضا عن تلك الحقبة السيد ميخائيلوفسكي وبعضا من أتباعه . **وهذا التراث** لا نريده ، حتى لو دُفع لنا فيه أجر لنقبل به ، كما يقال . اننا ننفض يدينا الاثنتين منه . ننفضهما منه اولا لانه لا شيء يجذبنا الى التلهي الضار والباطل المسمى بالفكر الذاتي . وننفضهما ثانيا لان هذا التلهي الضار والباطل كان رد فعل على افكار جماعة دوبروليوبوف الغالبة علينا . ولئن تأصلت جذور المذهب الذاتوي عندنا ، فمرد ذلك فقط الى ان تلك الجماعة غادرت المسرح . ويملك السيد ميخائيلوفسكي كامل التفويض ليطبق على نفسه ما يقوله سكالوزوب (٤٣) في «**شقاء من يكثر من التفكير**» :

انني موفق بما فيه الكفاية مع رفاقي :

---

٤٣ ــ شخصية من ملهاة غريبوئيدوف ، «شقاء من يكثر من التفكير» ، مثال الجاهل المغرور ، عدو الفكر الحر . «ن.س»

فلائحة المسابقة مفتوحة بالقدر المضبوط ،
اما لأن الاقدمين بلغوا حد العمر ،
وإما لأن الآخرين سقطوا في المعركة .

واذا كان ذلك الشخص الهزيل ، الذي بدا لهنيهة من الزمن رجلا عظيما لان العظام من الرجال ما عادوا على قيد الحياة ، قد عقد العزم على اتهامنا بازدراء التراث الفكري لديموقراطيي ١٨٦٠ ، فمرد ذلك بلا ريب الى افتراضه بأن ذاكرة القارىء قصيرة . لكن في هذا ما فيه من المجازفة . فذاكرة القارىء لا تبقى قصيرة الا لاجل من الزمن . وماذا سيحدث اذا ما بادر الى مراجعة شهادات الميلاد ؟ ماذا سيحدث اذا ما اكتشف اخيرا كيف يعامل السيد ميخائيلوفسكي ، في الواقع ، الميراث الذي خلفه لنا ديموقراطيو ١٨٦٠ ؟

الذي سيحدث انه حتى الاكثر سذاجة بين الاطفال الملائكيين الذاتيين سيكفون عن حمل السيد ميخائيلوفسكي وأتباعه على محمل الجد . ومن المؤكد ان تقدمنا الفكري لن يخسر بنتيجة ذلك ، بينما سيخسر السادة الذاتيون كثيرا .

- ٩ -

يؤكد السيد ميخائيلوفسكي ان الآراء الفلسفية لمن يكتبون في «نوفويه سلوفو» تفتقر ايضا الى الوضوح . يؤكد ذلك بحجة ان بعضا من هؤلاء الكتاب «يبعثون الهيغلية» (وقد رأينا ما معنى ذلك) ، بينما يميل بعضهم الآخر الى الفلسفة المسماة بالنقدية . لكن من الممكن ان تكون لدى اثنين من المؤلفين افكار

فلسفية في منتهى الوضـــوح وألا يكونا مع ذلـــك من رأي واحد (...) (٤٤) .

---

٤٤ ـ هنا يتوقف مخطوط بليخانوف . «ن.س»

الفهرس

٥٨٩ / ٣٠٠٠

هذا الكتاب



عند مفصل القرن التاسع عشر والقرن العشرين دارت في روسيا مناظرة بالغة الاهمية حول التاريخ والعامل المحدِّد لتطوره. وقد تولى بليخانوف في هذه المناظرة دور المحامي والشارح معا للتصور المادي للتاريخ.

فهل هذا التصور تصور اقتصادوي؟ والى اي حد تقر المادية التاريخية بأن الاقتصاد هو محرك التاريخ ؟ بل ما موقفها اصلا من نظرية العوامل التاريخية ؟

ان كل سؤال من اسئلة هذا الكتاب، وكل جواب من اجوبته ما يزال يحتفظ بأهمية راهنة لان المناظرة بصدد اقتصادوية المادية التاريخية ما تزال مستمرة منذ عقود ، ولعلها ستبقى مستمرة على امتداد العقود القادمة .

دار الطليعة للطباعة والنشر
بيروت

الثمن : ٨٠٠ ق. ل.
أو ما يعادلها